مشايخ
في مواجهة الطغيان

د. إسماعيل إبراهيم



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مشايخ في مواجهة الطغيان

المـــؤلف : د. إسماعيل إبراهيم

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٩٥٤٣

الطبعة الأولى ٢٠١٣



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

إلى القابضين على الجمر، إلى المتمسكين بكلمة الحق، إلى أصحاب الرأي الحر، المؤمنين الصادقين، الغيورين على الدين، المدافعين عن كرامة الوطن إلى كل عالم دين حق يعى دوره الحقيقي في إيقاظ وعى الأمة ونصح الحاكم والرعية ونهضة الأمة.

إلى الشباب الذين فجروا ثورة ا لخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ وأعادوا لنا بعضا من كرامتنا، ونتمنى أن تعود على أيديهم كل كرامتنا التي ضاعت يوم نسى علماء الدين دورهم الحقيقي، إلى شباب اليوم ومنهم أبنائى أحمد ومحمد وحسام وابنتي ميرنا.. وحفيدي كريم أحمد إسماعيل.

حتى يعرفوا أنه لا صحوة ولا عودة إلى مجد الإسلام وقوته إلا بالتمسك بالدين ومن خلال يقظة علماء المسلمين.

د. إسماعيل إبراهيم

■ المقدمة

في أحلك لحظات التاريخ وأشدها ظلمة، كان علماء الدين هم شعاع النور والهداية وصوت الحق والعدل، الذى يبشر المظلومين والصابرين، أن الفجر آت، وأن دولة الظلم ساعة، ودولة العدل والحق إلى قيام الساعة.

كلما اشتدت قسوة الحكام وتجبروا وصرفوا الناس عن جادة الطريق، كلما ازداد علماء الدين الحقيقيون تمسكا بالشريعة، وتفانوا في هداية الناس والعودة بهم إلى رحاب الله والزود عن دينه.

وعلى مدار التاريخ الإسلامى كان علماء الدين هم المدركون لحقيقة دورهم المعتصمين بالله، دائما في قلب كل معركة خاضتها الشعوب من أجل حريتها واستقلالها، إن لم يشاركوا بالحرب والقتال، فهم يشاركون بكلمة الحق في وجه الطغيان والسلطان المستبد، يُدعمون جبهات القتال بالعلم الدينى وبتحفيز النفوس وتقوية الهمم.

ولسبب ما في نفوس بعض الحكام، ونفاقاً لذوى السلطان، أهمل كُتاب التاريخ المحدثين دور الدين الإسلامى وجهاد علماء الدين في حركات التحرر العربية في العصر الحديث، فقد كان الدين هو المحرك الأساسى، والباعث على الصمود في وجه المستعمرين، وكان هو الطاقة التى لا تنفد، التي استمد منها أهالى البلاد المحتلة العون والمدد، لمواصلة الجهاد حتى تحررت بلادهم.

سجلات التاريخ المنصف، التى لم تُزيف تؤكد ذلك بجلاء ووضوح؛ سواء في مصر أم في الجزائر، أم في تونس وغيرها من الأوطان، التى اصطلت بنيران الاحتلال.

هؤلاء العلماء كانوا أطوع الناس لله، وأحرصهم على رضائه سبحانه وتعالى، وأنصحهم للراعى والرعية، ترى فيهم القدوة الطيبة، والخلق الفاضل، والسلوك القويم، والتمسك بهدى القرآن، وتعاليم رسولهم الكريم ﷺ.

في مختلف العصور قاموا بالنصيحة، وحاربوا المنكر، ووقفوا إلى جانب الحق، لا يخشون إلا الله، ولا يرجون سوى وجه ربهم القدير.

بأمثال هؤلاء العلماء والمشايخ صلُح حال المسلمين، وسادوا العالم، وكانت دولتهم عزيزة مُهابة، ولن يعود للعرب والمسلمين مجدهم، إلا إذا وُجد من جديد في أمتنا أمثال هؤلاء الرجال.

تربى معظم هؤلاء الرجال الذين يفخر بهم التاريخ في أحضان الدين، وتلقوا العلم في المساجد، ومنها الأزهر الشريف، الذى كان لعلمائه دور بارز في القيادة الروحية للأمة، بل كانوا يقودون الشعب في كل معاركه.

كانوا يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا، ويزلزلون عروشهم إذا جنحوا إلى الظلم، وكان المصريون يفزعون إلى علماء الأزهر في أوقات المحن للدفاع عن حقوقهم والوقوف في وجه طغيان واستبداد الحكام.

•• العالم المسلم العامل بمبادئ دينه، والعارف لرسالة العلماء لا يبالى في الحق أميراً ولا ملكاً ولا صاحب سلطان مادام على الحق، وإذا دعا إلى الخير بدأ بنفسه، وهكذا كان «سعيد بن المسيب»، الذى ظل صلبا في الحق طوال حياته، ضُرب وحُبس وأُوذى في جسده وماله، ولم يتحول أبداً عن الحق.

•• عالم الدين الحق؛ يتكلم من قلبه، يُزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها، لا يزهدهم فيها ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها، ولا يأخذ منهم هدية، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملوك والقرب من السلاطين، وهكذا كان الحسن البصرى، حربا على علماء السوء الذين يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا، وكان صوت الحق الذى لا يلين، لا يسكت عن إنكار منكر، ولا تمنعه منه هيبة أمير، ولا

بطش ملك.

•• من هؤلاء العلماء، عالم ترك ثروة من الفقه والعلم، وأنشأ في الحياة الفكرية تياراً جديداً خصباً، أعلى فيه قدر العقل والنظر والتأمل والعلم، وجمع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين، ودافع عن حرية الإرادة وحرية الرأى، التى هى أساس قدرة الإنسان على تنفيذ أمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كان جسوراً في الدفاع عن الحق وقوياً على الباطل. هو الإمام «جعفر الصادق» الذى رفض أن يكون خليفة، وتفرغ للعلم ودعوة الناس إلى الحق.

•• المؤمن الحق هو من أطاع الله ورسوله، وأولى الأمر إلا في معصية، نصرة الدين شاغله الأول، وقول الحق لدى السلطان ديدنه، وهكذا كان «أبو حنيفة النعمان» صاحب الاقتحامات الفكرية الجسور، الذى كان عارفاً بأحوال الحياة، مستوعباً كل ثقافة من سبقوه ومن عاصروه، خبيراً بالرجال، شديداً على الباطل، مرير السخرية بالمزيفين، لاذعا مع المنافقين من متعاطى الفقه والعلم والثقافة في عصره، الذى دافع عن حرية الرأى حتى الموت، فكان بحق فارس الرأى الحر الجسور.

•• أين علماء اليوم الذين سكتوا عن الحق من علماء الأمس الذين اعتزوا بالعلم فأعزهم الله، ولم يبيعوا إخلاصهم بعرض زائل من أعراض الدنيا، ولم يقولوا كلمات النفاق حرصاً علي منصب أو مال؟

فلقد أغلى الله سعرهم، ورفع من قيمتهم، فلم يستطع أن يشتريهم أحد غير ربهم. من هؤلاء العالم الفقيه النقى الورع، أمير المؤمنين في الحديث «سفيان الثوري» سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى.

هذا العالم لم يخش في الله لومة لائم، ولم يسكت على باطل رآه، ولم يكف عن توجيه النصح إلى الحكام قبل المحكومين.

•• واجب العلماء نحو الأمة كبير، وقد عرف علماء السلف الصالح أهمية هذا

الدور، فقاموا بواجب النصيحة والدعوة إلى الله في مختلف العصور، ولم يتهاونوا في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإعلاء كلمة الله، ورفع راية العدل، فاستقامت بهم الحياة، وسعدت بهم الأمة، ومن هؤلاء العلماء «ابن السماك» الذى قام بواجب النصيحة أيام أمير المؤمنين «هارون الرشيد».

•• الحاكم الذى يريده الإسلام، حاكم يطلب النصيحة، ويسعى في طلبها، حتى لا يكون من يقدمها في مركز الضعف، تأتى إليه النصيحة عن طريق القدوة والمثل، حاكم يُحسن اختيار مستشاريه، يجمع حوله أهل الورع والتقى، وعيون العلماء، حتى يُذكروه بالله والحق إذا نسى، ويُقوموا من مساره إذا ضل، حاكم يجعل الشورى أساس الحكم.

ومن العلماء الذين أدركوا ووعوا دور الحاكم والناصح «الفضيل بن عياض» الذى تأثر بسيرة الخليفة العادل «عمر بن عبد العزيز» فحاول أن يجعل خلفاء المسلمين يهتدون بهديه ويسيرون على خطاه.

•• تاريخنا الإسلامى مليء بعلماء الدين ومشايخه الذين كانوا علامات وضاءة في مسيرة الحضارة، وكانوا مثالاً للنزاهة والعلم والتقى والورع والدفاع عن حقوق الناس، والسعى لتطبيق العدالة والزود عن الشرع وإعلاء راية الحق.

من هؤلاء «أبو بكر الطرطشى» العالم الزاهد الجريء، الذى لا يخشى في الحق لومة لائم، والذى لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه، فقد كان أبى النفس قوالاً للحق.

•• العالم التقى الورع، الذى تربى علي مبادئ الدين الإسلامى الحنيف، لا يرضى عن نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق بديلاً، لا تخيفه قوة السلطان، ولا تستميله الهدايا أو العطايا أو الصلات، الناس عنده أمام الشريعة سواء حكام أم محكومين. مصلحة الأمة وفق أحكام الدين هى ما يسعى إليه ويعمل من أجله. رضا الله وتطبيق الشرع مبتغاه، لا ينافق حاكم أو صاحب سلطان.

بأمثال هؤلاء العلماء صلُح أمر الناس وشاع العدل بينهم، واحترمت الدول والشعوب أمة الإسلام، ومن هؤلاء سلطان العلماء «العز بن عبد السلام» بائع الأمراء، نصير الحق.

•• الحاكم كما يراه الإسلام ليس شخصاً مقدساً حاكماً بأمره، وليس وارثاً للمُلك، ولا مُهيمناً على عقائد الناس وقلوبهم، إنه طرف في عقد ليقوم بأعمال الوكالة باسم المجموع، فهو عقد موثق بالإيمان، يجعل على كلا الطرفين التزاماً دقيقاً يجب عليه تنفيذه والقيام بحقه، ويلزم الحاكم بإقامة كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ويلزم الأمة بالسمع والطاعة في المنشط والمكره، ما لم يكن عصياناً لأمر الله ونهيه، فإن كان عصياناً فلا سمع وطاعة.

وبناء على ذلك فإن من حق المحكومين نقد الحكام إذا أخطؤوا، ومنا صحتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعلماء أجدر بذلك فهم على مدار التاريخ قاموا بدور الرقابة على الحكام، وهكذا فعل الشيخ «شمس الدين الديروطى» مع السلطان «قنصوه الغورى».

•• من علماء الأزهر الذين وقفوا إلى جانب الناس ضد طغيان واستبداد الحكام، «الشيخ أحمد الدرديرى» الذى كان يُضرب به المثل في عفته، كما كان مهذب النفس كريم الأخلاق، لم يقف إلا جانب الحق، وعُرف بأنه صوت الحق ونصير المظلومين.

•• من العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر، وكان لهم دورهم المؤثر في الحركة الوطنية وإعلاء كلمة الحق، والوقوف إلى جانب أبناء الشعب ضد جور وظلم الحكام «الشيخ عبد الله الشرقاوى» الذى واجه طغيان «محمد بك الألفى»، وطوال فترة السنوات التسع التي قضاها شيخاً للأزهر، شهدت مصر أحداثاً هامة، كان للشيخ دوراً مؤثراً فيها.

•• فى الوقت الذى خيم فيه الظلام والجهل والضعف والتأخر على بلاد المسلمين قرب نهايات الخلافة العثمانية، لم يخل الأمر من نقطة ضوء، تمثلت في بعض العلماء

المسلمين من أبناء الأزهر الشريف، الذين كانوا في طليعة العاملين على التجديد والتحديث وبعث النهضة الفكرية، والأخذ بأسباب الحضارة والمدنية الحديثة. ومن هؤلاء الشيخ «حسن العطار»، الذى يُعد بحق من أعمدة المدرسة الثورية التي ثارت على أسس الحياة السائدة في المجتمع المصرى في بدايات القرن التاسع عشر.

•• تُقاس عظمة الرجال بقدر ما يحدثونه من تحولات في ظروف وتاريخ مجتمعاتهم، وهذا ما فعله رائد عصر التنوير، الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى حرك مياه الفكر المصرى والعربى الراكدة، وأخرجها من أسر التقليد والتسجيل، إلى رحابة الحركة والتحديث والتفكير فى الغد.

•• تاريخنا العربى والإسلامى غنى بالشخصيات الفذة التي طبعت عصرها، وكان لها تأثيرها في معاصريها وفى الأجيال اللاحقة، بما قامت به من أعمال وما سجلته من مواقف،وما أسهمت به من منجزات، مما جعلها قبسات مضيئة في ذاكرة الشعوب العربية والإسلامية، وحافزاً متجدداً لذوى النفوس الأبية الرافضة للاستعباد، وأصبحت مع تعاقب السنين نموذجاً يقتدى به كل من يعمل لصالح وطنه وشعبه، ومن هذه الشخصيات رجل ارتبط اسمه بالجزائر، وهو يُعرف بالجزائر، والجزائر المعاصرة تبدأ به، وتستمر من خلاله، هو الأمير الفقيه المجاهد البطل «عبد القادر الجزائرى»، فبالأمير يبدأ العصر الحديث فى الجزائر، وبه يرتفع التاريخ ارتفاع الساق والأغصان والأوراق من الجذر.

•• في وسط هذا النفق المظلم الذى تسير فيه الأمة العربية والإسلامية، وتلك الأوضاع المأساوية التي جعلت الأعداء ينقضون عليها من كل صوب، ويتداعون عليها يقتلون الأبرياء المدافعين عن حقوقهم في فلسطين، ويدمرون كل شيء في العراق، ويرفعون عصا التهديد في وجه كل من يحاول الذود عن الكرامة العربية الجريحة. في هذه الأوقات العصيبة، يطلُ علينا وجه من أبطال التاريخ الإسلامي، يصرخ فينا شعوباً وحكاماً يطالبنا بنبذ الخلاف والتوحد في مواجهة العدو، هو «جمال الدين الأفغانى».

•• وفى ظلام القرن التاسع عشر، أنار الإمام «الشيخ محمد عبده» كرائد عظيم للإصلاح الدينى والاجتماعى، الطريق أمام دعاة الإصلاح للسير قدماً نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية. وكشف الإمام للناس عن كثير من وسائل النهضة وسبل التقدم، أدرك «محمد عبده» ببصيرته النافذة أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فالدين هو أساس الإصلاح في كل زمان ومكان.

•• فى ثورة عرابى، كان للمشايخ صولاتهم وجولاتهم، جاهدوا بالكلمة والقلم والفتوى وحملوا السلاح. إضافة إلى «النديم» خطيب الثورة، و«عرابى» قائدها. والاثنان نهلا من علوم الدين وتتلمذا على مشايخ الأزهر، يأتى «الشيخ حسن العدوى»، الذى لم يكتف بمهمة إعداد النفوس والقلوب لرفض الظلم والاستبداد، وإنما تصدى للخديوى عندما تحالف مع الإنجليز ضد عرابى ورفاقه فأفتى هو والشيخان «محمد عليش ومحمد الخلفاوى» بعزل «توفيق» عن حكم البلاد.

•• ومن هؤلاء العلماء الداعية الرحالة المجاهد الصابر الدؤوب «عبدالرشيد إبراهيم» الذى تعود بنا مظاهر جهاده ودفاعه عن الإسلام والعمل على نشره في ربوع العالم، بسير رجال الإسلام الأوائل الذين نشروا الإسلام شرقاً وغرباً، أضاؤوا بنوره ظلمات القلوب والعقول.

•• عالم الدين الحق هو الذي يكون في الطليعة دائماً، إذا ما دعا الجهاد، كان في مقدمة الساعين إلى الشهادة أو النصر، وهكذا كان عالم الشام «الشيخ بدر الدين الحسنى»، الذى لم يكتف بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية، بل إنه قام بدور رئيسي في الجهاد ضد المستعمر الفرنسى.

•• فى فترة الظلام الفكرى التي خيمت على الوطن العربى عندما ضعُفت الخلافة العثمانية، هب بعض الرجال يطالبون القافلة النائمة أن تستيقظ وتعاود السير، وصرخوا بأعلى الصوت ناعين على الناس استسلامهم وركونهم، مطالبين

بمحاربة الاستبداد ونفض تراب الجهل، داعين إلى نهضة جديدة، ومن علماء الشام الذين نذروا أنفسهم لهذه المهمة وكرسوا كل حياتهم من أجلها «الشيخ طاهر الجزائرى» الذى ترك في كل مظهر من مظاهر الحياة في الشام أثراً، وفي كل ناحية من نواحى الإصلاح عملاً، فكان باعث نهضة، وكان معلم جيل.

•• هذا الرجل من عظماء الجهاد الفكرى، مؤمن صادق في إيمانه، مجاهد أخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على حرية الكلمة، ومقاومة حركات المسخ والتغريب التى تعرض لها الإسلام، وكان من أخطرها ما جاء على يد أبنائه من أمثال «على عبد الرازق» و «طه حسين» كما قاتل فى صفوف الوطنيين ضد الاحتلال والاستبداد الفرنسي، حتى حُكم عليه بالإعدام ففر بدينه إلى عدد من الأقطار الإسلامية، حتى استقر بمصر وأصبح شيخاً للأزهر الشريف، هو الإمام «محمد الخضر حسين».

•• وهذا شيخ آخر قالت عنه «التايمز البريطانية»: «هذا الرجل أخطر على بلادنا وحياتنا من ويلات الحرب» فقد رفض هذا الرجل بشدة أن تشارك مصر إنجلترا في حربها ضد الألمان ودول المحور، قائلا قولته المشهورة : «إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل»، وهو الذى رفض أن يطوع فتواه لصالح الملك عندما أراد أن يُحرم الزواج على الملكة فريدة من بعده، وقال قولته المشهورة أيضا: «فأما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم فلا أملكه». هو فضيلة «الشيخ محمد مصطفى المراغى» شيخ الأزهر.

•• «إن رأيى لي، ومنصبى لهم، ولن أضحى لهم بما يدوم في سبيل ما يزول» .. هذه العبارة الدالة على تمسك صاحبها برأيه وتقديسه لكلمة الحق، وعدم تنازله عن قولها، حتى ولو ضحى من أجل ذلك بأرفع المناصب، حتى ولو كان المنصب هو شيخ الأزهر، قالها العالم الإمام «سليم البشرى» الإمام رقم ٢٥ في مشيخة الأزهر، الذى قدم استقالته من هذا المنصب الهام والحساس عندما وجد أن ثمن بقائه في المنصب هو التنازل عن رأيه والانصياع لرغبة الحاكم.

•• يحفل تاريخ مصر بكوكبة من علماء الدين الذين عُرفوا بمواقفهم الصريحة القاطعة، ودفاعهم المخلص والمستميت عن الدين والتصدى بكل حزم لأى مساس بالشريعة الإسلامية، ومن هؤلاء العلماء الأجلاء، فضيلة الإمام الأكبر «الشيخ عبد المجيد سليم» شيخ الأزهر، الذى حباه الله بفيض من علمه وفضله، حتى أصبح فقيها لايبارى ومشرعاً ذائع الصيت ومصلحاً لا يخشى في الله لومة لائم، فقد عُرف عنه تمسكه بالحق والجرأة فى الفتوى متحديا الملك فؤاد ومن بعده الملك فاروق.

•• ودائما كان علماء الدين في طليعة المجاهدين ضد الاستعمار، وفي سجلات البطولة والجهاد ضد المستعمر والأوطان، يحظى المجاهد الليبي «عمر المختار» بحظ وافر من صفحات النضال والكفاح، وبذل الروح والنفس محارباً غطرسة الإيطاليين، الذين أرادوا طمس الهوية الليبية وتحويل ليبيا إلى مستعمرة تابعة لهم، يتحول فيها أهل البلاد إلى عبيد يخدمون السادة الطليان.

•• وهذا واحد من الشيوخ اسمه يثير الرعب والفزع، كتائبه هى أخشى ما يخشاه قادة اليهود، رغم أنه قد استشهد منذ عام ١٩٣٥م، فهو قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود في فلسطين، وصاحب أول تنظيم جهادى يخوض الحرب دفاعاً عن فلسطين، هو الشهيد المناضل «عز الدين القسام» الذى تلقى تعليمه في الأزهر الشريف.

•• الإسلام أقوى وأبقى من أن تشيع جنازته في أى مكان يصل إليه نوره، مادامت هناك صدور وقلوب شملها هذا الضياء. وقد أكدت حرب تحرير الجزائر هذا المعنى، فقد كان للإسلام الدور الأكبر في إلهاب الحمية الباسلة لجنود معارك التحرير وإعدادهم لهذا الجهاد الذى استأصل شأفة الفرنسيين بالجزائر.

أذكى روح الجهاد في نفوس الجزائريين علماء الدين الإسلامى، لقد أقلق هؤلاء العلماء الاحتلال بما آثاروا من همم وأحيوا من حمية، وبنوا من مدارس، وأنشؤوا من صحف، مستمدين من كتاب الله غذاءهم وضياءهم الهادى لاسترداد حقوقهم

المغتصبة وتحرير أرضهم، من هؤلاء العلماء «محمد البشير الإبراهيمي» كبير علماء الجزائر وشيخ المجاهدين بها.

•• ومن علماء الدين الجزائريين، الذين يمكن بحق اعتباره الأب الروحى لثوار الجزائر، والذى أوقد شعلة الحرية وظل حارساً لها حتى اليوم الأخير من عمره، والتي حملها من بعده تلاميذه الذين غرس فيهم روح الجهاد والدفاع عن الدين والوطن «الشيخ عبدالحميد بن باديس».

•• في الوقت الذى خفتت فيه أصوات قائلى الحق في عهد «عبدالناصر» ظل الإمام الفقيه «الشيخ محمد أبو زهرة» يقول الحق بصوت جهير، لا يخشى في الله لومة لائم، فقد كان لهذا الإمام قوة لا تُغلب، يقتحم المعارك القلمية في الصحف، والمصاولات اللسانية في الندوات، فيسيطر على الموقف بدامغ الحجة وواضح البرهان، لأن الرجل ممتلئ بأصول الشريعة، بصير بتيارات العصر ودوافعه، عالم بما يحيكه المغرضون من مكايد، ثم هو صريح لا يمارى ولا يدارى. لذلك كان موضع الهيبة والخشية يحذره معارضوه، ويؤيده أنصار رأيه في حب خالص. ولذلك كان يمثل قلقًا في عقل النظام.

•• ومن علماء الأزهر الذين طالبوا في زمننا هذا بتطبيق الشريعة الإسلامية وتعميمها في كل مواد القوانين الجنائية والمدنية والدستورية والدولية، الإمام الأكبر «عبدالحليم محمود»، الذى ألف لجنة علمية لصياغة قوانين الشريعة، ولكنه توفى قبل أن توافق الحكومة المصرية على ذلك. وعُرف عنه أيضا اهتمامه بنشر التعليم الدينى في كل قرية ومدينة ونجع، متحدياً كل الصعاب.

•• وفي مواجهة الهجمة الشرسة التي يتعرض لها الإسلام من الخارج والداخل متهمة المسلمين بالإرهاب، يأتى «الشيخ محمد الغزالى» الذى قاد العديد من المعارك الفكرية، أوضح من خلالها رؤية الإسلام ووسطيته في مواجهة الفلسفات المعاصرة، كما أظهر سماحة الإسلام في مواجهة التشدد والغلو والتطرف باسم

الدين، من خلال مؤلفاته المتعددة وكتاباته ولقاءاته مع وسائل الإعلام.

•• في مختلف العصور كان هذا هو دور علماء الدين: قاموا بالنصيحة، وحاربوا ووقفوا إلى جانب الحق في مواجهة الطغيان، لا يخشون إلا الله، ولا يرجون سوى وجه ربهم القدير، بأمثال هؤلاء العلماء والمشايخ صلُح حال المسلمين، وسادوا العالم، وكانت دولتهم قوية عزيزة مُهابة، ولن يعود للعرب والمسلمين مجدهم، إلا إذا وُجد من جديد في أمتنا أمثال هؤلاء الرجال، الذين نحن أحوج ما نكون إليهم في ظل عصر العولمة والهيمنة الأمريكية ومحاولاتها المستمرة لطمس هويتنا الإسلامية، وضرب قواعد وأسس ديننا، وللأسف يقف بعض علماء الدين صامتين ساكتين، بل هم أحيانا يفتون فتاوى تسهل للعدو تحقيق أغراضه.

لا نريد من شيوخ اليوم وعلماء الدين، إلا أن يكونوا كما كان شيوخ الأمس، فهم ملح الأمة، وشتان بينهم وبين شيوخ اليوم الذين قال فيهم الشاعر:

يا علماء الأمة يا ملح البلد ماذا يُصلح الملح إذا الملح فسد.

د. إسماعيل إبراهيم

القاهرة – مدينة نصر

صفر ١٤٣٤هـ . ديسمبر (كانون أول) ٢٠١٢م



سعيد بن المسيب
(٦٣٧-٧١٥م=١٣-٩٤هـ)

صلابة الحق وقوة الحجة

العالم المسلم العامل بمبادئ دينه، والعارف لرسالة العلماء لا يبالي في الحق أميرا ولا ملكا ولا صاحب سلطان مادام على الحق. وإذا دعا إلى الخير بدأ بنفسه. هكذا كان «سعيد بن المسيب».

عالم أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غاياته، وغاية حياته، كان من أوسع التابعين علما وأعرفهم بالحلال والحرام، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا. بقى أربعين سنة لا يسمع الآذان إلا وهو في المسجد، ولم يبدل مكانه من الصف الأول.

كان سعيد في هيبته وجرأته وصراحته مع الملوك أمة وحده. رفض عطاء السلطان، فتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفا، فلم يأخذ منها درهما، وكان له ٤٠٠ درهم يتاجر بها فى الزيت ويعيش منها، فلم يكن يريد يوما أن يتكل على راتب يأخذه من الحاكم، فما ذل العلماء إلا يوم اتكلوا على الرواتب.

ظل «ابن المسيب» صلبا في الحق طوال حياته، ضُرب وحُبس وأُوذي في جسده وماله، ولم يتحول أبدا عن الحق. كانت حياته التي امتدت من عام ١٣ إلى عام ٩٤هـ بالمدينة تجسيدا للعزة والإباء والكرامة، وهي من أبرز الخصال التي يتحلى بها العلماء الصادقون ، لأنهم يستمدون عزتهم من مصدرها الحقيقي، وهو الله تبارك وتعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[فاطر، الآية: ١٠].

الامتثال للشرع:

في يوم من الأيام وسعيد يجلس في المسجد النبوي بالمدينة ومن حوله طلاب العلم، وقف على رأسه أحد رجالات الحكم من بني أمية -وهمس في أذنيه: إنني أريد محادثتك في أمر هام، وأنا رسول الخليفة «عبد الملك بن مروان» إليك، ولقد جئتك بعز الدنيا والآخرة.

فقال له سعيد: انتظر حتى أنتهى من الدرس.

وما كاد سعيد ينتهي من الدرس حتى جاءه الرسول قائلا: يا سعيد.. ألم أقل أني جئتك بعز الدنيا والآخرة..؟؟.

قال سعيد: أما الدنيا فأنا في طاعة الله، وذلك هو العز الذي لا عز بعده. وأما الآخرة، فهي في علم الغيب، ولا يدري العبد أهو إلى الجنة أم النار.؟

قال الرسول: إن الخليفة رغب في مصاهرتك، فأرسلني لأخطب ابنتك لابن الخليفة والذي جده خليفة، وسيكون هو الخليفة بعد أبيه. فإن وافقت كيلنا لك الذهب والفضة وآتتك الدنيا راغمة، وفُرِشَت لك الأرض من دمشق إلي المدينة بما تحب وترضى.

وإن كانت الثانية،فأنت أعلم الناس بسياط بني أمية..؟؟

طلب سعيد أن يستشير ابنته امتثالا للشرع الحنيف، بعدها جلس سعيد مع نفسه، إن ابنته قطعة منه، ومحال أن تكون لابن الخليفة،الذي بغى وطغى وآثر الدنيا على الآخرة، ومن يفعل ذلك لا شك أن يكون طعمة للنار يوم القيامة.

وهو أرأف بابنته أن تكون حطبا لجهنم، مهما تحمل في سبيل ذلك من عذاب. إن بني أمية يهددونه بالسياط وبما هو أنكى من السياط، ولكن سياطهم لم يعد لها تأثير على جسده الفاني لأنه باع دنياهم.

انتظر أمير المؤمنين أن يهش سعيد ويبش، ويطير فرحا بهذه النعمة، لكن موازين الناس غير ميزان سعيد، ميزانه ميزان الشرع، الناس يفتشون عن المال والجاه، ولكن سعيدا يفتش لابنته عن السعادة الزوجية. عن الخلق والدين، عن الطهر ،والفضيلة. وماذا تفيده دنيا الوليد، إن مهرت ابنته بهذه الدنيا دينها؟

رجل صالح:

إن الرجل المتدين الحسن الخلق الفقير، خير للمرأة من ابن أمير المؤمنين، لأن هذا يكون لها وحدها، وذاك تشركها فيه الزوجات والجواري.

لقد قرر سعيد ألا تكون ابنته زوجة لابن أمير المؤمنين. وليبحث لها عن رجل صالح، صاحب خلق ودين. ومرت أيام، وكان له تلميذ اسمه «كثير بن أبي وداعة متين الدين»، رضي الخلق، انقطع عن الدرس، ثم جاء فسأله فقال: مرضت زوجتي فمرضتها وعنيت بها، ثم توفيت فدفنتها.

فقال سعيد: هل تزوجت غيرها؟

قال: ومن يزوجني ولا أملك إلا أربعة دراهم، من يزوجني يا شيخي وأنا لا أملك حمراء ولا صفراء من هذه الدنيا؟!

قال سعيد: سؤال محدد ألك رغبة في الزواج؟.

قال الطالب: وهل يمكن أن يعيش الرجل بغير زوجة،إلا إذا اضطرته ظروف الحياة وحال بينه وبين ما أمر الله تعالى به بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم، آية: ٢١].

ذهب سعيد إلى بيته، والتقى بابنته التي حباها الله أخلاق المؤمنات العابدات، وقال لها: يا ابنتي لقد اخترت لك زوجا صالحا تقيا عارفا بحدود الله، متأدبا في عشرة النساء بما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «النساء ناقصات عقل ودين، يغلبن كريما ولا يغلبهن إلا لئيم»، فأحببت أن أكون كريما مغلوبا، على أن أكون لئيما غالبا. فهل تقبلينه زوجا؟. قالت الفتاة: ما تراه خيرا يا والدي فهو خير ، ذهب سعيد ومعه ابنته إلى بيت «ابن أبي وداعة»، وقال له: هذه يا بني زوجك، أخرج على سطح منزلك وألق ببعض الحصيات على بيوت الجيران،حتى يعلموا أنك ستعرس في هذه الليلة.

وهكذا زوج «ابن المسيب» ابنته العالمة المحدثة زوج لا يملك سوى أربعة دراهم، رافضا أن يزوجها من ابن الخليفة الذي لا يخاف الله تعالى. ولم يرهب سعيد الخليفة ولم يفكر في الانتقام والغضب الذي يمكن أن ينزله به.

فتوى المبايعة:

كان سعيد يفتي بأن الرسول ﷺ نهى عن بيعتين، فلما أراد عبدالملك بن مروان،

أن يبايع لولديه: الوليد وسليمان من بعده، فدعا الناس إلى البيعة، فبايع الناس.

ودعا «سعيد بن المسيب» أن يبايع فأبى لم ينس سعيد فتواه ولم يتناسها، ولم يجد لنفسه مخلصا بفتوى جديدة. ولم يقل: إني واحد من الناس، وقد بايعوا فلأبايعن مثلهم، ولم يخدع نفسه بهذه الخدعة الشيطانية فيقول: إن القوم إذا لم أبايع نالوا من كرامتي وحقروني، وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين. ولكنه وقف موقف الحق فأبى البيعة.

وبذل له أمير المدينة «هشام بن إسماعيل» كل أنواع الترغيب والترهيب فأبى، فهدده بالجلد علنا، وتوسط العلماء حتى يلين موقف سعيد،وعرضوا عليه أن يسكت فلا يقول لا ولا نعم. قال: «أنا أسكت على الحق؟. لا». وكانوا يعلمون أنه إذا قال لا فليس في الأرض قوة تجعله يقول نعم.

قالوا: فاعتزل في بيتك أياما حتى تمر العاصفة، قال: «أبقى في بيتي فلا أخرج إلى الصلاة، وأنا أسمع: حي على الصلاة، حي على الفلاح، وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد؟. لا».

قالوا: فبدل مكانك من المسجد، حتى إذا جاء رسول الأمير لم يجدك فيه، فقال له لم أجده، قال: «أخوفا من مخلوق؟ لا.لا أتقدم عن مكاني شبرا ولا أتأخر شبرا».

ودعاه الأمير فهدده بالقتل، فلم يرجع عن فتواه وقالها أمامه مؤكدا: «نهي رسول الله ﷺ عن بيعتين»، يقرر الحكم كأنه في حلقة الدرس، وكأن السيف ليس على عنقه. لا يسكت خوفا من السيف، ولا يكتم العلم، ولا يبدل الحكم.

فأمر الأمير بأن يُساق سعيد إلى ساحة العقوبات، وجرده من ثيابه إلا تبانا قصيرا -غطاء يواري سوءاته-، وضُرب خمسين سياطا، ثم أُخذ إلى الحبس.

هذا العالم الجليل لم ترهبه السياط ولم تجعله يبدل موقفه، بل لم تنهه عن إفادة الناس بعلمه. فقد أقبل عليه قتادة العالم المشهور، وهو يُضرب، فقال: إني أخاف أن يموت، ويذهب علمه، وإني أحب أن أسأله عن مسائل، فتركوه يسأله، وراح سعيد

يجيبه ويناقشه والدم يسيل من ظهره.

وهو في سجنه، صنعت له ابنته طعاما كثيرا، وجاءت به. فقال لها: «هذا ما يريده هشام «الأمير»، أن أفتقر ويذهب مالي، فأحتاج إلى أموالهم فيستعبدوني بها، ولا أدري إلى متي يمتد سجني، فانظري ما كنت آكله كل يوم في بيتي فأتيني به، فإن العلماء لا يذلون إلا إذا احتاجوا إلى أموال الملوك».

ولما بلغ الخليفة ما حدث مع سعيد عزل أمير المدينة. فقال سعيد لأولاده وأهله: إياكم والتعرض لهشام بعد عزله، أو الشماتة به لما ناله. إني أدعه حتى يحكم الله بيننا(*).

التمسك بالحق:

موقف آخر يبين قيمة العالم ومكانته عندما يكون واثقا من علمه، متمسكا بالحق. لا يشتريه أحد غير ربه، حج «عبدالملك بن مروان»، فلما قدم المدينة، وقف على باب المسجد، وأرسل إلى «سعيد بن المسيب» رجلا يدعوه، قال له: أمير المؤمنين واقف بالباب يريد أن يكلمك.

قال سعيد: ما لأمير المؤمنين إليَّ حاجة، وما لي إليه حاجة، وإن حاجته إليَّ لغير مقضية..!

عاد الرجل إلى عبدالملك وأخبره، فقال له: ارجع إليه فقل: إنما أريد أن أكلمك. فرجع الرسول إلى سعيد وقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال له سعيد ما قال له أولا. فقال الرجل: يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول مثل هذه المقالة؟ فرد عليه قائلا: «إن كان أمير المؤمنين يريد لي خيرا فهو لك، وإن كان يريد لي غير ذلك، فلا أقوم من مقامي هذا حتى يقضي الله ما هو قاض».

**) د. عبد الرحمن عميرة، «مواقف العلماء أمام الحكام والولاة»، دار العلم والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٤٢.

فقيه أهل المدينة:

بعد وفاة «عبدالملك بن مروان» تولي الأمر ابنه الوليد - الذي رفض سعيد أن يزوجه ابنته من قبل. جاء الوليد إلى المدينة فدخل المسجد، فرأى شيخا قد اجتمع الناس عليه.

فقال: من هذا؟

فقالوا: «سعيد بن المسيب».

فلما جلس الوليد في المسجد، أرسل إليه، فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين.

فقال سعيد: لعلك أخطأت باسمي، أو لعله أرسلك إلى غيري.

قال الرجل: إنما يعنيك أنت!

فغضب سعيد وهم به. وقال له اذهب وقل له: ليس لي حاجة عنده وماله حاجة عندي.

هذا القول أغضب الخليفة، ولكن جلساؤه قالوا له: يا أمير المؤمنين إنه فقيه أهل المدينة، وشيخ قريش، وصديق أبيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه. ومازالوا به حتى ابتعد عنه.

ورغم ما ناله من أذى من وراء هؤلاء القوم، فإنه كان إذا سئل عنهم يقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر، آية: ١٠].

هذا الرجل القوي مع الحكام كان لينا حانيا مع طلاب العلم، وكان من أكثر الناس تأدبا مع حديث الرسول ﷺ:

جاءه رجل، وكان سعيد مريضا، فسأله عن حديث فجلس وحدثه. فقال

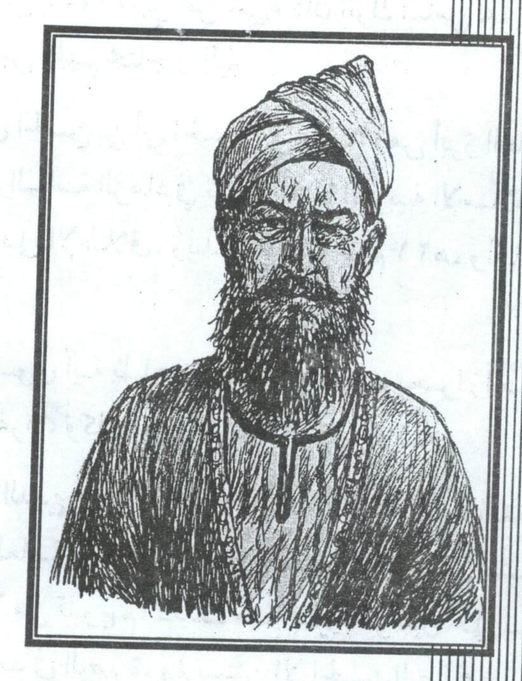
الرجل: وددت أنك لم تتعن.. أي لم تتعب نفسك وأنت مريض لا تقوى على الحركة.

فقال: كرهت أن أحدثك عن رسول الله وأنا مضطجع.

وكان سعيد يقول عن الدنيا: «هي قبيحة، وتكون إلى كل قبيح أميل، وأقبح منها من أخذها من غير حقها، ووضعها في غير موضعها من شرع الله».

رحم الله هذا العالم الذي تربى في مدرسة القرآن، والذي ما تحول يوما عن قول كلمة الحق. وليت علماء اليوم يتعلمون منه فما أحوجنا إلى أمثاله هذه الأيام.





الحسن البصري

(٦٢٤-٧٢٨م=٢١-١١٠هـ)

الباحث عن العدل وناصح الملوك

وصفه خالد بن صفوان فقال: هو أشبه الناس سريرة بعلانية، وقولا بفعل، إن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهي عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيا عن الناس، ورأيت الناس كلهم محتاجين إليه.

هو «الحسن البصري الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد»، من أبرز العلماء المسلمين والمفكرين المصلحين، والساسة الزهاد في تراث أمتنا العربية الإسلامية وتاريخها، وهو أبرز علماء عصره على الإطلاق. وُلِدَ في المدينة عام ٢١هـ، وأقام في البصرة، وفيها توفى عام ١١٠هـ.

كان في الورع والتقوى آية ظاهرة، وكان في العلم بحرا زاخرا، وكان في الفصاحة والبيان علما مفردا، وكان أعظم الوعاظ في تاريخه كله.

بعض الوعاظ يتخذ الدين حرفة، والتقوى صناعة يأكلون بها الدنيا ويجمعون بها المال، يصلون إلى العامة باللفظ الجميل والمظهر الخداع والخشوع الكاذب يتكلمون من ألسنتهم لا من قلوبهم، لذلك منع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الوعاظ من دخول المسجد في البصرة، ولم يستثن إلا الحسن البصري.

يتكلم من القلب:

لأنه كان يقول الحق، ويروي الحديث الصحيح، ولأنه كان يتكلم من قلبه، يزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها، لا يزهدهم فيها، ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها، ولا يأخذ منهم هدية، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملوك والقرب من السلاطين.

كان «الحسن البصري» حربا على علماء السوء الذين يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا، قال فيهم قولة حق: «ما هؤلاء إلا قوم ملوا العبادة، وصعب عليهم العمل، وقل ورعهم، فوجدوا الكلام أهون عليهم، فتكلموا».

مر الحسن بباب الأمير ابن هبيرة، فإذا بالقراء على الباب فقال: «ما يجلسكم هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار،

تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم،، قد شمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم الله، أما والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم».

صوت الحق:

وكان الحسن صوت الحق الذي لا يلين، لا يسكت عن إنكار منكر، ولا تمنعه منه هيبة أمير، ولا بطش ملك، وكان حينا يعرض تعريضا، وحينا يصرح تصريحا في تعريضه بالأمراء وترفهم وسرفهم.

راح يصف رسول الله ﷺ معطيا الأمراء والمسؤولين درسا حيا من حياة خاتم الأنبياء يقول: «ما كان يُغدى عليه بالجفاف «الموائد» ولا يُراح، ولا تُغلق دونه الأبواب، ولا تقوم دونه الحجاب، وكان يجلس على الأرض ويوضع طعامه على الأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار»، ثم قال: «ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله، وما أكثر التاركين لها».

ثم راح يعرض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقال: «ثم إن علوجا فسقة، قد أضلهم ربي ومقتهم، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا، وشادوا وزخرفوا، يقولون: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه».

حدث أن عمر بن هبيرة لما ولي العراق، أرسل إلى الحسن والشعبي وابن سيرين، والثلاثة من أعلام التابعين، وأئمة المسلمين، فقال لهم: «إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي في أشياء، إن أطعته فيها أغضبت الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وتغضبه، فهل ترون لي في متابعتي إياه فرجا»، فتكلم الشعبى وابن سيرين كلاما فيه تقية ومداراة، والحسن ساكت؛ قال له: «ما تقول أنت يا أبا سعيد؟».

قال: «أقول يا عمر بن هبيرة؛ يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ، فيخرجك من سعة قهرك إلى ضيق قبرك يا عمر بن هبيرة إن تتق الله

يعصمك من يزيد بن عبدالملك، وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله. يا بن هبيرة لا تأمن أن ينظر إليك الله على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، نظر مقت، فيغلق باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة: لقد أدركت ناسا من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة، أشد أدبارا من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر ابن هبيرة إن تكن مع الله في طاعته يرد عنك كيد يزيد بن عبد الملك، وإن تكن مع يزيد بن عبد الملك في معاصيه وكلك الله إليه»، فبكى عمر حتى ابتلت لحيته، وزاد في إكرامه عن الشعبي وابن سيرين.

في وجه الحجاج:

كان «الحجاج بن يوسف» الثقفي حاكمًا غليظ القلب، جبارًا متكبرًا، ولم يكن في العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عاليا في وجه الحجاج سوى «الحسن البصرى»، الذى كان ينتقده بشدة، وسلمه الله من الحجاج بإخلاصه وابتغائه وجه الله وحده.

بنى الحجاج دارا بواسط، وأحضر الحسن ليراها، فلما دخلها قال: «الحمد لله، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزا، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرا، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وفي فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء، فيقول: انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين، أما أهل السماوات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك، بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء، وغررت في دار الغرور، لتذل في دار الحبور».

ثم خرج وهو يقول: «إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه».

وبلغ الحجاج ما قال. فاشتد غضبه، وجمع أهل الشام، وقال: «أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون»، ثم أمر بإحضاره، فجاء وهو يحرك

شفتيه بها لم يسمع حتى دخل على الحجاج، فقال له الحجاج: «هاهنا اجلس»، فأجلسه قريبا منه، وقال: «ما تقول في علي وعثمان؟».

قال: «أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك، قال: قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه، الآيتان: ٥١-٥٢]، علم علي وعثمان عند الله، قال الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد، ودعا بطيب وبلل به لحيته».

فلما خرج «الحسن البصري» تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه؟ قال: قلت: «يا عدتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارزقني مودته، واصرف عني آذاه ففعل ربي عز وجل».

نعم المؤدب:

وانتقد البصري الحجاج يوما وبلغه الانتقاد، وطلبه فلم يذهب إليه واختفى منه، فلما رآه قال: أنت القائل ما بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني؟ قال: قولك: اتخذوا كتاب الله دغلا، وعباد الله خولا -والمقصود: أدخلتم في كتاب الله ما يفسده ويخالفه، واستعبدتم الناس- ومال الله دولا، يأخذون من غضب الله، وينفقون في سخط الله، والحساب عند البيدر-يوم الحساب- قال: نعم، قال: وتكنى بذلك عنا، قال: نعم قال: ولم قلته ويلك؟ قال: لما أخذ الله ميثاق الفقهاء في الأزمنة كلها ليبيننه ولا يكتمونه.

ثم قال له: كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب؟ قال: كثير قال: أين هم؟ فأطرق الحجاج ساعة مفكرا، ثم قال: يا جارية.. الغالية «الطيب»، فخرجت بها، فقال: ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب، ثم قال: انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت.

الحاكم العادل الذي يرعى الله في رعيته، هو الذي يطلب النصيحة والاستشارة

من العلماء المخلصين، ويبعد عنه كل منافق ومدع، ولقد كان «الحسن البصري» رضي الله عنه صاحب عاطفة قوية وروح ملتهبة، وكان من كبار المخلصين، بليغ اللسان، قوي الإيمان ، وكان من أقرب العلماء إلى قلب وعقل الخليفة الراشد «عمر ابن عبدالعزيز». لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى «الحسن البصري» أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب البصري يقول:

«الإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم في مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها ووضعته كرها، وربته طفلا، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم ويمون كبيرهم، وهو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلي الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك إلى الله، كعبد ائتمنه سيده، فاستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين: أن الله أنزل الحدود ليزدجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها، وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك، وتركوك في قعره وحيدا فريدا فتزود له، واذكر إذا بُعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين علي المستضعفين فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالا وأثقالا مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلي قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدا وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم».

الأدوية الكريهة:

إني يا أمير المؤمنين لم أملك شفقة ولا نصحا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقية الأدوية الكريهة، لما يرجوه له من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

وكتب «عمر بن عبد العزيز» رضي الله عنه إلى «الحسن البصري»: عظني فكتب إليه الحسن:

يا أمير المؤمنين، كن للمثل من المسلمين أخا، وللكبير ابنا، وللصغير أبا، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا، فتدخل النار(*).

وذات مرة كتب أمير المؤمنين عمربن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى فقهاء العراق أن يأتوه، فاعتل الحسن - أصيب بفتق في بطنه فكتب إليه معتذرا ناصحا يقول: يا أمير المؤمنين، إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا، يا أمير المؤمنين، لو أن لك عمر نوح، وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان؟ ولو نلت ذلك لم يكن لي بد من أن أشرب بكأس الأولين.

أمان كاذبة

وسط زخارف الدنيا ومظاهر الحكم، يحتاج الحاكم إلى التذكير حتى لا يغتر

(*) أحمد رضوان أبو الخير، «من مواقف العلماء»، دار المنار، ١٩٩٦، ص ١٠٨-١١٠.

بالدنيا، وهنا تأتي أهمية وجود الناصح والمستشار الذي يجرؤ على توجيه النصح لوجه الله، وقول الحق لا يخشى في الله لومة لائم، وهكذا كان «الحسن البصري».

كتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز يعظه ويحذره من الدنيا:

«يا أمير المؤمنين، الدنيا دار ظعن -بمعنى انتقال- وليست بدار إقامة على حال، وإنما أُنزل إليها آدم عقوبة، فأحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها وتفرق من جمعها، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه».

فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا، الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطابها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، وهي والذى بعث محمداً بالحق لأزواجها قاتلة.

فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤدى إلى الهلكة والفناء.

واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد وتاركها موفق والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذر، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف سوء العاقبة.

والدنيا وايم الله يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت،

والعباد في أضغاث أحلام، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا

ولما وصل كتابه إلى عمر، بكى وانتحب حتى أشفق عليه من كان عنده وقال: رحم الله الحسن، فإنه لا يزال يوقذنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، ولله هو من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

ما أروع الناصح:

ما أروع الناصح وما أروع الحاكم وما أعدله، بهما تنعدل كفتا الميزان ويسود العدل. بمثل هؤلاء العلماء أقام «عمر بن عبد العزيز» دولته التي لم تعرف الظلم، وعاش فيها الناس في أمن وسلام، واختفى فيها الفقر والحرمان وعلت راية الحق. وما أحوجنا إلى حاكم من أمثال عمر، وعالم من نوع وتقوى وورع «الحسن البصري»، حتى ينصلح حالنا الذي وصل إلى الدرك الأسفل من الهوان.

كان البصري شجاعا في الجهر بالحق، تنبعث شجاعته من نفس امتلأت بجلال الله وعظمته، فهانت في نظرها وجوه الخلق ومظاهر الدنيا، وانطلقت منها الكلمة قوية مدوية مجلجلة.

دخل الحسن البصري على «النضر بن عمرو» - وكان واليا على البصرة، فقال:

أيها الأمير أيدك الله، إن أخاك من نصحك في دينك وبصرك بعيوبك وهداك إلى مراشدك، وإن عدوك من غرك ومناك.

«أيها الأمير، اتق الله، فإنك أصبحت مخالفا للقوم في الهدي والسيرة، والعلانية والسريرة، وأنت مع ذلك تتمنى الأماني، وترجح في طلب العذر، والناس أصلحك الله طالبان، فطالب دنيا وطالب آخرة، وايم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح، وتعب الآخر واخترم - أي تقطع وفنى-

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني وترك الباقي فتكون من النادمين،

واعلم أن حكيما قال: أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيها؟

نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن النقص بعد الزيادة ، ومن الضلالة بعد الهدى، لقد جاء أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول: كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينا، وعلى أعمالهم معينا».





الإمــام جعفــر الصــادق

(٨٠-١٤٨هـ=٦٩٩-٧٦٧م)

رفض أن يكون خليفة

في أحلك لحظات التاريخ وأشدها ظلمة، كان علماء الدين هم شعاع النور والهداية وصوت الحق والعدل، الذي يبشر المظلومين والصابرين، أن الفجر آت، وأن دولة الظلم ساعة ودولة العدل والحق إلى قيام الساعة.

كلما قسّا الحكام وتجبروا وصرفوا الناس عن جادة الطريق، كلما ازداد علماء الدين الحقيقيون تمسكا بالشريعة، وتفانوا في هداية الناس والعودة بهم إلى رحاب الله والزود عن دينه.

من هؤلاء العلماء عالم ترك ثروة من الفقه والعلم والتأملات، وأنشأ في الحياة الفكرية تياراً جديداً خصباً أعلى فيه العقل والنظر والتأمل والعلم وجمع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين، ودافع عن حرية الإرادة وحرية الرأي التي هي أساس قدرة الإنسان على تنفيذ أمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان جسوراً في الدفاع عن الحق وقوياً على الباطل.

هو الإمام «جعفر الصادق» الذي رفض الخلافة وتفرغ للعلم ودعوة الناس إلى الحق.

حب بالإجماع:

لم يجتمع الناس على حب أحد في ذلك العصر نهاية الدولة الأموية وصدر الخلافة العباسية - كما أجمعوا على حب الإمام «جعفر بن محمد» الذي عُرف باسم «جعفر الصادق». ذلك لأنه كان صادق النفس، واسع الأفق مرهف الحس، متوقد الذهن كبير القلب، يلتمس في غضبه الأعذار للآخرين، حاد البصيرة، ضاحك السن، مضيء القسمات، عذب الحديث حلو المعشر، سباقا إلى الخير باراً طاهراً، وكان صادق الوعد وكان تقياً.

هو من العترة الطاهرة، عترة رسول الله ﷺ جده لأمه هو أبو بكر الصديق، وجده لأبيه هو الإمام علي بن أبي طالب. ولد في المدينة سنة ٨٠هـ، ومات فيها سنة ١٤٨هـ.

كان مع جلال هذا الحسب متواضعا لله، وعى منذ طفولته نصيحة أبيه «الإمام محمد الباقر»: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله.

إظهار المسكوت عنه:

تعهده وهو صغير جده لأمه «القاسم بن محمد بن أبي بكر»، بقدر ما تعهده جده لأبيه «علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبى طالب»، فإذا به وهو صبي يحفظ القرآن ويتقن تفسيره، ويحفظ الحديث ويفهمه. مما أتاح له أن يكشف ما وضعه المزيفون تزلفا للحاكمين، أو خدمة هذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع السياسي، وعمل على نشر الأحاديث التي حاول الحكام المستبدون إخفاءها، فقد حاول ذلك الزمان إخفاء ما رواه علي بن أبى طالب من السنة.

كان عصره متوترا مشوبا بالمآسي، تخضب الرايات المنتصرة فيه دماء الشهداء من آل البيت، ويطغى الأنين الفاجع علي عربدة الحكام، فمنذ استشهاد الإمام الحسين ابن علي في كربلاء والدولة الأموية تضطهد آل البيت وتضطهد أنصارهم، وتخشى أن ينهض واحد منهم لينتزع الخلافة.

وبعد استشهاد عمه «زيد» كان الإمام جعفر هو الذي تتطلع إليه الأنظار، لذلك كانت تحوم حوله عيون الأمويين وأرصادهم.

وكان الإمام جعفر منذ أن رأى بطش الأمويين بآل البيت وأنصارهم وبالباحثين عن الحقيقة وبمقاومي الاستبداد،كان قد أخذ بمبدأ التقية، فلم يجهر بالعداء لبني أمية اتقاء لشرهم، وحذر الفتنة، وهم إذ ذاك غلاظ شداد على من لا يوالونهم.

حقن دماء المسلمين:

فآثر أن يهب نفسه للعلم، وألا يفكر في النهوض والانقضاض على السلطان الجائر حقناً لدماء المسلمين، وإن خير ما يقاوم به البغي هو الكلمة المضيئة التى تنير للناس طريق الهداية وتزكيهم وتحركهم إلى الدفاع عن حقوق الإنسان التي شرعها الإسلام، وإلى حماية مصالح الأمة التي هي هدف الشريعة، وكان قد تعلم عن جده

«الإمام علي زين العابدين بن الحسين» عن جده الرسول ﷺ أن طلب العلم ونشره جهاد في سبيل الله، وأن الله تعالى جعل للعلماء مكانة بين الأنبياء والشهداء.

كان يسير على هدى نصائح أبيه «محد الباقر» الذي مات وابنه جعفر في الخامسة والثلاثين، فقد كان يقول له: «إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً، وإن ضجرت لم تصبر على حق، طلب العلم مع أداء الفرائض خير من الزهد، إذا صاحب العالم الأغنياء فهو صاحب دنيا، وإذا لزم السلطان من غير ضرورة فهو لص». كما أوصاه ألا يصحب خمسة ولا يحادثهم ولا يرافقهم في طريق: الفاسق والبخيل والكاذب والأحمق وقاطع الرحم. لأن الفاسق يبيعه بأدنى متعة، والبخيل يقطع المال حين الحاجة، والكذاب كالسراب يبعد القريب ويقرب البعيد، والأحمق يريد أن ينفع فيضر، وقاطع الرحم ملعون في كتاب الله.

هداه عكوفه على دراسة القرآن والحديث إلى أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبر وتفكر في ظواهر الحياة والكون،فهي دليله إلى الإيمان بوحدانية الله. وهداه هذا التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية لأنها علوم تحقق مصالح الناس، وتحرر الفكر وتهديه إلى الإيمان العميق الحق الراسخ، وتتلمذ عليه جابر بن حيان، وتعهده وحثه على دراسة علوم الحياة، وزوده بمعمل وأمره أن ييسر كتاباته لينتفع بها الناس، وكان يتدارس معه علوم الطبيعة والكيمياء والطب، وكشف له من تبصره بالفقه كثيرا من المعارف العلمية، وهداه بالمعارف العلمية إلى التمكن من الفقه.

الحكمة والموعظة الحسنة:

وعلم وهو في المدينة أن في العراق مذاهب تدعو إلى الإلحاد والزندقة فخرج يناقش زعماء هذا المذهب، لم يقصد مكتفياً بالحكم عليهم بالكفر، أو يصب اللعنات عليهم، بل ناقشهم بمنطقهم، ليثبت لهم وجود الله، وقادهم مما يعلمون إلى ما لا يعلمون.

عاش الإمام جعفر يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فأقنع كثيراً من الزنادقة والملحدين والمفكرين والوثنيين بالإسلام فأسلموا وحسُن إسلامهم، أضافوا بفكرهم ثراء إلى الفقه وإلى العلوم في ذلك العصر.

ولكم أساء إليه بعض صنائع الحكام الذين خشوا التفاف الناس حوله، فما قابل الإساءة إلا بالإحسان وهو يردد قول الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، كان يزدري الانتقام ويعلم الناس فضيلة العفو، مرددا قول رسول الله ﷺ: **«ما زاد عبد بالعفو إلا عزا»**.

وكان بعض المنتسبين إلى الفقه والثقافة وعلوم الدين قد صانعوا حكام بني أمية وزينوا لهم الاستبداد وأفتوا لهم بأنهم ظل الله في الأرض، وأنهم لا يسألون عما يفعلون.

وكان الأمويون يحسنون مكافأة هؤلاء المتملقين، فيجذلون لهم العطاء ويولون بعضهم، وكان بعض هؤلاء الولاة يحب أن يبدو فقيهاً عالماً. على الرغم من جهله المركب، وقد تعود أحد هؤلاء المرتزقة المنافقين أن يتقرب إلى الخليفة الأموي بلعن الإمام «علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه وسب «فاطمة الزهراء» رضي الله عنها.

ضال ومضلل:

ذهب الإمام جعفر واستمع له، ثم انقض مقاطعاً له وكشف للناس جهله ونفاقه، وأوضح للناس وهو يعظهم أن مثل هذا المنافق الذي يبيع شرفه وضميره بالمنصب أو بالجاه أو المال، ويبيع آخرته بدنياه، إنما هو ضال مضلل، وهو أبين الناس خسرانا يوم القيامة، وأن محض افتراءاته وكشف جهله واجب.

وعندما سقطت دولة بني أمية طالب الثوار «جعفر الصادق» أن يقبل البيعة ليصبح هو الخليفة، فرفض، فهو يحلق في سماء المعرفة ويضرب في أغوار العلم، ويشعر أنه أقوى من الملك.. وأنه باستمراره في دوره العلمي أنفع للناس. وكان يقول: **«من طلب الرياسة هلك»**.

وتولى «أبو العباس» الخلافة وجاء عصر جديد يتطلع الناس فيه إلى الحرية والطهارة والعدل، فإذا بالمنافقين الذين زينوا الاستبداد لبعض الأمويين وشرعوا لهم العدوان والطغيان يحيطون بأبي العباس، وعندما ورثه المنصور، إذ بهؤلاء المنافقين يحيطون بالخليفة الثاني، وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، وإذ بهم يوهمونه أنه فوق الحساب، حتى لقد جعلوا المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه.

بل راح هؤلاء المرتزقة يدعون الناس إلى التقشف باسم الإسلام، ويحببون الفقر إلى الناس باسم الدين ليصرف المستبدون إلى جمع المال، وينصرفون هم إلى الارتزاق.

لقد أرادوا من الأمة أن تواجه إسراف الطبقة الحاكمة لا باستخلاص الحق المعلوم الذي شرعه الله بل بالزهد في كل شيء والانصراف عن الحق، ووضعوا الأحاديث النبوية التي لم تسلم من تزييفهم لخدمة الطبقة المالكة.

التفاف الأمة حوله:

ولأنه كان يتمتع بالصدق والصفاء في التعامل مع الحياة والناس والأشياء، لكل هذه السماحة والعذوبة والرقة والتسامح، ولإشراقه الروحي الرائع، وذكائه المتوقد الخارق، وبجسارته في الدفاع عن الحق، وقوته على الباطل، وبكل ما تمتع به من طهارة وسمو وخلق عظيم، التف الناس على اختلاف آرائهم حول الإمام «جعفر ابن محمد»، وكما كان حكام بنى أمية يراقبون التفاف الناس حوله بفزع، أخذ الخليفة العباسي... المنصور.. يراقب الإمام جعفرًا متوجساً من جيشان العواطف نحوه، وإعجاب الناس به.

أخذ المنصور يتربص بالإمام جعفر، وعرف أن الإمام يحارب الزهد. وكانت جماعات الزهاد تحبب إلى الناس الفقر، وتدعوهم إلى العزوف عن الدنيا، وإلى عدم التفكير في شؤونهم. وقد شجع حكام بني أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن

التفكير في المظالم، ويصرفوهم عن المقارنة بين غنى الحكام وفقر المحكومين. وجاء بنو العباس يشجعون هذا الاتجاه إلى الزهد، حتى لقد قويت الدعوة إلى الانصراف عن هموم الحياة.

محاربة الزهد:

ورأى الإمام جعفر أن هذه الدعوة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً، وأنها ليست من الله في شيء فهي تزين للفرد ألا يهتم بمصلحة الأمة، وألا يحاسب الحاكم، وتتيح للحكام أن يعطلوا الشورى، وهي أساس الحكم في الإسلام.

ومضى الإمام الصادق يناقش الزاهدين، فالزهد كما يفهمه الإمام الصادق هو الاكتفاء بالحلال، لا التجرد من الحلال.

ورأى المنصور في دعوة جعفر ضد الزهد والفقر تحريضاً لعامة المسلمين على أن يستمتعوا بحقوقهم في المال، ودعوة إلى إثارة التمرد، وكان استبداد المنصور قد استشرى، وكما فعل الحكام الأمويون من قبل، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه ووجه بطشه إلى آل البيت، في هذه الظروف ظل الإمام جعفر يناضل بالكلمة دفاعا عن كل آرائه وعن حرية العقل والإرادة وشرف المثقفين، ثم أنه أخذ ينشر من فتاوى الإمام علي وأقضيته ما حرص الحكام والمستغلون علي إخفائه. فأفتى بأنه لا يحق للمسلم أن يدخر أكثر من قوت عام إذا كان في الأمة صاحب حاجة، إلى طعام أو مسكن أو كساء أو علاج أو دواء أو ما يركبه.

وأفتى بأن السارق إذا اضطر إلى السرقة، لأنه لا يعمل، فولي الأمر هو المسؤول وهو الآثم.. فإذا سرق السارق لأنه لا يحصل على الأجر الذي يكفيه هو وعياله، فالذى يستغله أولى بقطع اليد.

وجد المنصور في هذه الفتاوي تحريضاً عليه، واتهم «الإمام جعفر الصادق» بأنه يطمع في الخلافة، فقال له الصادق: «.. والله ما أنا طامع في ذلك ولقد كنت في ولاية بني أمية، وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم، وأنهم لا حق لهم في هذا

الأمر، فو الله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عنى شيء مع جفائهم الذي كان لي، فكيف أصنع هذا الآن وأنت ابن عمي، وأرحم الخلق بي رحماً...»

أعلم الناس:

ومع ذلك حاول المنصور إحراج الإمام الصادق، فاستدعى أبا حنيفة النعمان وقال له: فُتن الناس «بجعفر بن محمد» فهيئ له من المسائل الشداد، ظناً منه أن أبا حنيفة أعلم منه. وبالفعل جاء الإمام الصادق وأبو حنيفة وجلس الناس، وأخذ أبو حنيفة يسأل الإمام في أربعين مسألة، والإمام يجيبه عن كل مسألة، فيقول فيها رأي فقهاء الحجاز، ورأي فقهاء العراق، ورأى فقهاء آل البيت، ورأيه هو. وما ملك أبو حنيفة إلا أن يقول: الإمام جعفر أعلم الناس، فهو أعلمهم باختلاف الفقهاء بل أنه صحب الإمام جعفرًا بعد ذلك سنتين يتلقى منه العلم.

كان الإمام جعفر مستمراً في دروسه يعلم الناس ويفتيهم ولا يأبه بالمنصور، في الوقت الذي حاول الأخير استمالته إليه. أرسل إليه الخليفة يوما يسأله: لم لا تخشانا كما يخشانا الناس؟ فكتب إليه الإمام جعفر: «ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنئك، ولا نراها نقمة فنعزيك».

فكتب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا. فأجابه الإمام الصادق: من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك(*).

صِدق الإمام:

ولم يرق هذا للمنصور، فاستدعاه واتهمه بأنه يجمع الزكاة، وجمع الزكاة حق للخليفة وحده، فهو إذن يدعو لنفسه، وشهد ضد الإمام شاهد زور فكذب الإمام أقوال الشاهد، فطلب المنصور من الإمام أن يحلف بالطلاق، ولكنه رفض فقد كان يفتي بأن الحلف بالطلاق لا يجوز وقال : إنه لا يحلف بغير الله فقال له الخليفة محتداً:

(*) سعد القاضى، ((جعفر الصادق))، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٤١.

لا تتفقه عليَّ فقال الإمام هادئا مبتسماً: «وأين يذهب الفقه مني؟ ثم طلب الإمام من الشاهد أن يحلف على دعواه فحلف شاهد الزور».

وكان الخليفة قد اقتنع بأن الإمام صادق في قوله، فقد عرفه الجميع بالصدق ووقع شاهد الزور ميتاً، ومع ذلك فقد دعا (جعفر) للرجل بالرحمة.

وحطت ذبابة على وجه الخليفة لم يفلح في إبعادها، إذ كانت تعود فتستقر على وجهه..

فسأل: لماذا خلق الله الذباب؟ فقال الإمام جعفر الصادق.. ليذل به الجبابرة.

فقال له الخليفة متلطفا وجلا: سر من غدك إلى حرم جدك إن اخترت ذلك. وإن اخترت المقام عندنا لم نأل في إكرامك وبرك، فو الله لا قبلت قول أحد فيك بعدها أبدا.

وفضل الإمام العودة إلى المدينة المنورة وكان قد جاوز الخامسة والستين وظل بها يعلم الناس ويفقههم ويشرح للفقهاء كيف يستنبطون الأحكام عندما لا يجدون الحكم في الكتاب والسنة. وفي الثامنة والستين مات الإمام الصادق الذي رفض أن يكون خليفة.





الإمام أبو حنيفة

(٨٠-١٥٠هـ=٦٩٩-٧٦٧م)

دفاع عن الحرية حتى الموت

الدين قوة وشجاعة،غلبة وانتصار،إذا ما ملأ الإيمان قلبا ما عرف صاحبه الخوف يوما،لأنه يوقن أن الله هو الذي يخشاه ولا يخشى أحدا سواه،وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه ما ضروه إلا بشيء قد كتبه الله له. الإيمان القوي يجعل صاحبه لا يسير إلا في اتجاه الحق،يكسبه حجه ناصعة،ورأيا سديدا. تهون عليه الحياة ولا يهون الدين.

المؤمن الحق هو من أطاع الله والرسول. وأولي الأمر إلا في معصية،نصرة الدين شاغله الأول. وقول الحق لدى السلطان ديدنه. وهكذا كان «أبو حنيفة النعمان». صاحب الاقتحامات الفكرية الجسور،الذي كان عارفا بأحوال الحياة،مستوعبا كل ثقافة من سبقوه ومن عاصروه،خبيرا بالرجال،شديدا على الباطل مرير السخرية بالمزيفين،لاذعا مع المنافقين من متعاطي الفقه والعلم والثقافة في عصره.

ولد «أبو حنيفة النعمان» بالكوفة سنة ٨٠ هـ. من أسرة فارسية،وقد شهد في طفولته فظائع الحجاج والي العراق وبطشه بكل من يعارض الأمويين حتى العلماء الأجلاء،فدخل في نفسه منذ صباه عزوف عن الأمويين واستنكار لاستبدادهم،ورفض عام للطغيان. وورث عن أبيه وأمه حبا لآل البيت.

وكان أبوه تاجرا فعمل معه وهو صبي،وأخذ يختلف إلى السوق ويحاور الكبار ليتعلم منهم أصول التجارة وأسرارها،ولاحظ أحد الفقهاء اهتمامه بالعلم،فقال له: عليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء. فإني أرى فيك يقظة وفطنة.

طلب العلم:

منذ ذلك اليوم وهب الفتى نفسه للعلم،واتصل بالعلماء،ولم تنقطع تلك الصلة حتى آخر يوم في حياته،حيث انطلق يرتاد حلقات العلماء في مسجد الكوفة،يدرس علوم الكلام والأحاديث النبوية والفقه والقرآن الكريم. ثم مضى ينشد العلم في حلقات البصرة. وانتهت به رحلاته بين البصرة والكوفة إلى العودة إلى موطنه بالكوفة،وإلى الاستقرار في حلقات الفقه،لمواجهة الأقضية الحديثة التي استحدثت

في عصره،ولدراسة طرائق استنباط الأحكام.

وكان أبوه قد مات،وترك له بالكوفة متجرا كبيرا للحرير يدر عليه ربحا ضخما،فرأى أبو حنيفة أن يشرك معه تاجرا آخر،ليكون لديه من الوقت ما يكفى لطلب العلم وللتفقه في الدين ولإعمال الفكر في استنباط الأحكام.

ودرس على عدة شيوخ في مسجد الكوفة،ثم استقر عند شيخ واحد فلزمه،حتى إذا ما ألم بالشيخ ما جعله يغيب عن الكوفة،نُصب أبا حنيفة شيخا على الحلقة حتى يعود. وعندما جلس مكان شيخه سُئل في مسائل لم تعرض له من قبل،فأجاب عليها وكانت ستين مسألة.

وعندما عاد أستاذه عرض عليه الإجابات فوافقه على أربعين،وخالفه في عشرين،ومات الشيخ وأبو حنيفة في الأربعين،فأصبح شيخا للحلقة،وكان قد دارس علماء آخرين في رحلات إلى البصرة وإلى مكة والمدينة خلال الحج والزيارة،وأفاد من علمهم وبادلهم الرأي،ونشأت بينه وبين بعضهم حوادث،كما انفجرت خصومات.

ووزع وقته بين التجارة والعلم،وأفادته التجارة في الفقه،ووضع أصول التعامل التجاري على أساس وطيد من الدين،وكان «أبوبكر الصديق» رضي الله عنه هو مثله الأعلى في التجارة من حيث حُسن التعامل والتقوى والربح المعقول الذي يدفع شبهة الربا.

التاجر الحق:

في تجارته يعطي «أبو حنيفة النعمان» المثل والنموذج لكل تاجر في الصدق والأمانة،جاءته امرأة تبيع له ثوبا من الحرير وطلبت ثمنا له مائة درهم،وعندما فحص الثوب قال لها: هو خير من ذلك،فزادت مائة،ثم زادت حتى طلبت أربعمائة فقال لها نفس القول،فقالت أتهزأ بي؟ قال لها: هاتي رجلا يقومه،فجاءت برجل فقومه بخمسمائة. فهل يوجد مثل أبي حنيفة بين بعض تجار اليوم الذين لا يهمهم إلا

الربح وبأي وسيلة حتى ولو كانت غير مشروعة.

وأرادت امرأة أخرى أن تشتري منه ثوبا فقال: خذيه بأربعة دراهم،فقالت له: لا تسخر مني وأنا عجوز،فقال لها: إني اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم،فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم.

وذهب إلى حلقة العلم يوما،وترك شريكه في المتجر،وأعلمه أن ثوبا معينا من الحرير به عيب خفي،وأن عليه أن يوضح العيب لمن يشتريه،وباع الشريك الثوب دون أن يوضح العيب.

وظل «أبو حنيفة» يبحث عن المشتري ليدله على العيب،ويرد إليه بعض الثمن،ولكنه لم يجده،فتصدق بثمن الثوب كله،وانفصل عن شريكه.

وعلى الرغم من أنه كان يكسب أموالا طائلة،فقد كان لا يكنز المال،يحتفظ بما يكفيه لنفقة عام ويوزع الباقي علي الفقراء والمعسرين،فإذا عرف أن أحدا في ضيق، أسرع إليه، وألقى بصرة على بابه،ونبهه إلى أنه وضع علي بابه شيئا،ويُسرع قبل أن يفتح صاحب الحاجة الصرة.

وكان «أبو حنيفة» يدعو أصحابه إلى الاهتمام بمظهرهم،وكان إذا قام للصلاة لبس أفخر ثيابه وتعطر،لأنه سيقف بين يدي الله،فقد كان يعمل بالحديث النبوي القائل: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**».

تواضع وحياء:

وكان شديد التواضع،كثير الصمت،يقتصد في الكلام،ولا يقول إلا إذا سُئل،وإذا أغلظ إليه أحد أثناء الجدال صبر عليه،وإذا دخلت إليه امرأة تستفتيه قام من الحلقة وأسدل دونها ستارا ليحفظها من عيون الرجال،وأجابها عما تسأل،وقد نبع هذا التقدير الكبير للمرأة من حبه العميق لأمه،ثم من فهمه الواعي للإسلام واتباعه اليقظ للسنة واجتهاداته الذكية،وقد قاده اجتهاده إلى الإفتاء بأن الإسلام يبيح للمرأة حق تولي كل الوظائف العامة بلا استثناء حتى القضاء.

قال أبو حنيفة بذلك حوالي سنة ١٢٠ هـ ومازال علماء الدين في عصرنا يختلفون حول هذا الأمر ويرفض بعضهم في شدة تولي المرأة القضاء!!

كان مخالفوه في الرأي يغرون به السفهاء والمتعصبين والمتهوسين، ويدفعونهم إلى اتهامه بالكفر، وإلى التهجم عليه، فيقابلهم بالابتسام، ولكنه على الرغم من سماحته لم يكن يسكت عن خطأ الفقهاء من الذين جعلوا كل همهم نفاق الحكام وإرضاءهم، كان بعضهم يفتي في المسجد إلى جوار حلقة أبي حنيفة، فإذا أخطأ انبرى له أبو حنيفة يكشف ذلك الخطأ، ويعلن الصواب على الناس.

هذه الصراحة في النقد ألبت عليه الخصوم، الذين كانوا صنفين: بعض الفقهاء ممن وجدوا انصراف الناس عن حلقاتهم إلى حلقة أبي حنيفة، وحكام ذلك الزمان.

كان أعداؤه وفي مقدمتهم «ابن أبي ليلى» وتابعه «شبرمة» - فقهاء للدولة في العصر الأموي، حتى إذا جاء العصر العباسي تحولوا إلى الحكام الجدد واحتالوا عليهم بالنفاق حتى أصبحوا هم أهل الشورى، يزينون للحكام الجدد كل ما زينوه للحكام السابقين من طغيان وعدوان وبغي واستغلال وبطش بالمعارضين، واصطنعوا من الآراء الفقهية، وقبلوا من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ما يسند الطبقة الحاكمة والمستغلين، وما يصرف الناس عنهم وعن أمور الدنيا وعن سياسة حياتهم، لينقطع الناس إلى التقشف، ويتركون مستغليهم يستبدون.

استقلال واحترام:

في الوقت الذي كان أبو حنيفة يحتفظ فيه باستقلاله أمام الحكام، كان يكسب احترامهم حتى ولو اختلفوا معه. فعندما وقع خلاف بين الخليفة المنصور وزوجته لأنه أراد أن يتزوج عليها، أراد أن يحتكما إلى فقيه، فرفضت الزوجة الاحتكام إلى قاضي القضاة «ابن أبي ليلى» أو إلى تابعه شبرمة، أو إلى أحد الفقهاء من بطانة المنصور، وطلبت أبا حنيفة.

وعندما حضر «أبو حنيفة» أبدى الخليفة رأيه أن من حقه الزواج،لأن الله أحل للمسلم الزواج بأربع،والتمتع بمن يشاء من الإماء مما ملكت يمينه.

فرد أبو حنيفة: إنما أحل الله هذا لأهل العدل،فمن لم يعدل فواحدة. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء:٣] فينبغي علينا أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه. وضاق الخليفة بفتواه،ولكنه أخذ بها.

وقد جد فى عصر أبي حنيفة كثير من الحوادث والأقضية والأحوال،بعد اتساع الدولة وتشابك الأمور،وظهور ألوان كثيرة من النشاط التجاري والاجتماعي،وواجه الإمام هذا كله بالاجتهاد لاستنباط الأحكام التي تضبط العلاقات.

وما كان يبتدع في قياسه- كما رماه خصومه - وما كان يهدر السنة- كما حاول ابن أبي ليلى وتابعه شبرمة أن يصوراه كيدا له،بل كان منهجه قياس. المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة فيجتهد[*].

المساواة بين الرجل والمرأة:

وقاده هذا الاجتهاد إلى عدد من الآراء الحرة،ومنها الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة في عصر بدأت المرأة فيه تتحول إلى حريم للمتاع،فأفتى بأن للبالغة أن تزوج نفسها،وهي حرة في اختيار زوجها،كما أفتى بعدم جواز الحجر على أموال المدين،حتى لو استغرقت الديون كل ثروته،لأن في هذا مصادرة لحريته. وأفتى بعدم جواز الحجر على أحد،لأن في الحجر إهدار للآدمية وسحقا للإرادة.

وفي كل أمر من أمور الحياة تتعرض فيه حرية الإنسان لأي قيد،أفتي الإمام أبو حنيفة باحترام الحرية وكفالتها،لأن في ضياع حرية الإنسان آذى لا يعدله أذى، وقد قام فقه الإمام أبى حنيفة على احترام حرية الإرادة،ذلك لأن أفدح ضرر يصيب

(*) صبرى الأشوح، ((التفكير عند أئمة الفكر الإسلامى))، مكتبة وهبه، القاهرة ١٩٩٧م ص١٨٣.

الإنسان هو تقييد حريته أو مصادرتها. وكل أحكامه قائمة على أن هذه الحرية يجب صيانتها شرعا،وأن سوء استخدام الحرية أخف ضررا من تقييدها.

لا لقتال المسلمين:

ومن فتاواه الهامة،أنه أفتى بتحريم الخروج لقتال المسلمين والفتك بهم،مما صرف بعض قواد الجيش في عصره عن حرب العلويين وخصوم الحكام ومعارضة آرائهم. ومن ذلك أن «الحسن بن قحطبة» أحد قواد المنصور دخل على أبي حنيفة يسأله: أيتوب الله عليّ؟.

وكان الحسن هذا قد قاد جيوشا للمنصور فقتل العلويين وخصوم العباسيين،فقال له أبو حنيفة: إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما فعلت،فلو خيرت بين قتل مسلم وقتل نفسك لاخترت ذلك على قتله،وتجعل على الله عهدا على ألا تعود لقتل المسلمين،فإن وفيت فهي توبتك. فقال القائد: إني فعلت ذلك وعاهدت الله على ألا أعود إلى قتل مسلم. ثم ثار العلويون فأمر المنصور القائد أن يفتك بهم،فجاء القائد إلى أبي حنيفة يسأله الرأي،فقال له أبو حنيفة: فقد جاء أوان توبتك. إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب،وإلا أخذت بالأول والآخر.

فامتنع القائد عن تنفيذ أمر المنصور،وسلم نفسه إلي العقاب وهو القتل،إذ دخل على المنصور فقال إنه لن يقتل المسلمين بعد! فغضب الخليفة عليه وأمر بقتله،حتى استشفع له أخوه قائلا: إننا ننكر عقله منذ سنة،وأنه قد جن. ولما عرف المنصور أن القائد كان يتردد على أبي حنيفة أسرها في نفسه.

زُهد في المناصب:

رفض أبو حنيفة أن يقبل المناصب،عرض عليه الأمويون منصب القاضي،فرفضه فسجنوه وعذبوه في السجن،وظلوا يضربونه بالسياط حتى ورم رأسه ومع ذلك لم يقبل المنصب،لأنه كان يرى أن تحمل المسؤولية في عهد يعتبر هو حاكميه ظالمين مغتصبين،إنما هو مشاركة في الظلم وإقرار للاغتصاب. وساءت

صحته في السجن،وبدأت الثورة تتجمع ضد الخليفة الأموي احتجاجا على ما يحدث لأبي حنيفة،فأطلقوا سراحه. وبعد خروجه قرر أن يهجر الكوفة وأقام بالحجاز حتي سقطت الدولة الأموية،فعاد إلى موطنه،ظنا أن العباسيين سيكونون خيرا من الأمويين لكن العباسيين لم يتركوه، فمنذ شعر بخيبة الأمل فيهم لاضطهادهم للعلويين من آل البيت واصطناعهم المرتزقة من الفقهاء،بدأ يجهر برأيه في استبدادهم وطغيانهم، ورفض كل هداياهم كما رفض هدايا الأمويين من قبل، وعرضوا عليه منصب قاضي القضاة فأبى،وتمسك بالتفرغ للعلم.

بدأ خلافه مع الحكام الجدد بإحراج وزير الخليفة الأول،وكشف أكاذيبه أمام الخليفة في محاورة حاول فيها الوزير الأول أن يوقع بالإمام،ففضحه الإمام وأفسد حيلته، وقد أفتى أبو حنيفة بأن الوزير لا تصلح شهادته لأنه يقول للخليفة: أنا عبدك،فإن صدق فهو عبد ولا شهادة له،وإن كذب فلا شهادة لكاذب.

وقد أخذ أحد تلاميذ أبي حنيفة بهذا النظر فيما بعد حين ولي القضاء،فرد شهادة الوزير الأول لخليفة آخر،لأنه قبل الأرض بين يدي الخليفة قائلا له: أنا عبدك.

الكيد لأبى حنيفة :

انضم الوزير الأول إلى خصوم «أبو حنيفة» وفي مقدمتهم «ابن أبي ليلى» أخذ الوزير الأول يكيد عند الخليفة لأبي حنيفة،انتهز فرصة خروج أهل الموصل على الخليفة،وكانوا قد شرطوا على أنفسهم إن هم خرجوا على الخليفة أن تباح دماؤهم وأموالهم،وأرسل الخليفة إلى أبي شبرمة وابن أبي ليلى ليسألهما رأي الدين في أهل الموصل،وكان قد أعد جيشا للفتك بهم،واقترح الوزير الأول على الخليفة أن يدعو أبا حنيفة،وكان يعرف أن تقواه وشجاعته وكل فضائله ستقوده إلى مخالفة رأي الخليفة، وحضر الفقهاء الثلاثة فسألهم عن حكم الشرع فى أهل الموصل، وسكت أبو حنيفة وأفتى الآخران بأن أهل الموصل يستحقون الفتك بهم. وأفتى «أبو حنيفة» بأن الخليفة لا يحق له الفتك بأهل الموصل لأنهم بإباحتهم أرواحهم

وأموالهم إنما أباحوا ما لا يملكون، وسأل لو أن امرأة أباحت نفسها بغير عقد زواج أتحل لمن وهبته نفسها ؟ فقال الخليفة : لا.. فطلب الإمام أبو حنيفة منه أن يكف عن أهل الموصل فدمهم حرام عليه،وأن يوجه الجيش إلى حماية الثغور،أو إلى فتح جديد لنشر الإسلام،بدلا من أن يضرب به المسلمين. ومضى أبو حنيفة إلى داره.

ومرة أخرى حاول ابن أبي ليلى وشبرمة والعصبة المعادية لأبي حنيفة في قصر الخليفة أن يجعلوا الخليفة يقهر أبا حنيفة على قبول ما يعرضه عليه من مناصب،فإذا أبى حنيفة امتنع عن أداء واجب شرعي فحق عليه العقاب،ووجب أن يُشهر به في الأمة،لأنه يتخلى عن خدمتها.

واقترحوا على الخليفة أن يبدأ فيمتحن ولاءه،فيرسل إليه هدية،وكانوا يعرفون سلفا أن الإمام أبا حنيفة لن يقبل الهدية،وأرسل له الخليفة مالا كثيرا وجارية،فرد الهدية شاكرا، ثم أرسل الخليفة إليه يلح عليه فى ولاية القضاء أو فى أن يكون قاضيا للدولة. يرجع إليه القضاة فيما يصعب عليهم القضاء فيه،بما أنه يكثر من لوم القضاة علي أحكامهم ويكشف للعامة جهل شيخهم «ابن أبي ليلى» و«شبرمة».

ورفض أبو حنيفة،فاستدعاه الخليفة يسأله عن سبب رفضه فقال له: «والله ما أنا بمأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟. ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو الحكم عليك لاخترت أن أغرق. ثم أن تلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك،فلا أصلح لذلك».

وكانت الحاشية كلها تحيط بالخليفة،وعلى رأسها وزيره الأول والفقيهان ابن أبي ليلي وابن شبرمة،فأبدوا التذمر،وبان عليهم استنكار ما يقوله الإمام أبو حنيفة،فقال الخليفة محنقا: كذبت. فقال أبو حنيفة في هدوء حكمت على نفسك. كيف يحل لك أن تولي قاضيا على أمتك وهو كاذب؟!.

حبس وتعذيب:

وسأله الخليفة عن سبب رفض هداياه،فقال له أبو حنيفة أنها من بيت مال

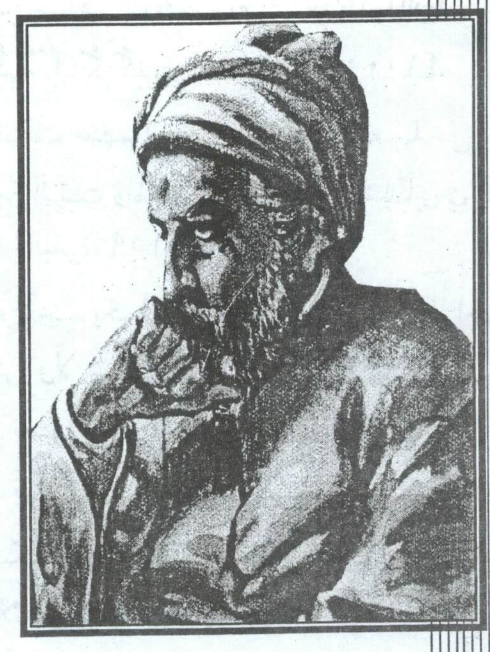
المسلمين ولا حق في بيت المال إلا للمقاتلين أو الفقراء أو العاملين في الدولة بأجر،وهو ليس واحدا من هؤلاء. فأمر الخليفة بحبسه وضربه بالسياط حتى يقبل منصب قاضي قضاة بغداد. ورغم الضرب وكثرة التعذيب ظل الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يرفض في إباء. وتدهورت صحته وأشرف على الهلاك.

وخشي معذبوه أن يخرج فيروي للناس ما قاسى في السجن فيثور الناس،وقرروا أن يتخلصوا منه فدسوا له السم،وأخرجوه وهو يعاني سكرات الموت. وحين شعر بأنها النهاية أوصى بأن يدفن في أرض طيبة لم يغتصبها الخليفة أو أحد رجاله.

وهكذا مات أبو حنيفة فارس الرأي الذي عُرف في السنوات الأخيرة من حياته باسم الإمام الأعظم. وشيعه خمسون ألفا من أهل العراق فى سنة ١٥٠هـ[*].



(*) عبد الرحمن الشرقاوى، «أئمة الفقه التسعة»، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. ص٧١.



سفيان الثوري

(٩٧-١٦١هـ)

أمة وحده

العلماء ورثة الأنبياء، عليهم أن يبينوا للناس أمور دينهم، وصلاح دنياهم وأخراهم حتى لا يكونوا ممن عناهم الله بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

فإن لم يؤدوا رسالتهم انتفت عنهم الخيرية التي أمتن الله بها على أمة محمد ﷺ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

فالعلماء ورثة الأنبياء لأنهم يكملون الرسالة ويدعون إلى الحق، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، مثلما يفعل بعض علماء هذه الأيام، الذين نسوا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾[البقرة: ١٧٤].

أين علماء اليوم الذين سكتوا عن الحق من علماء الأمس الذين اعتزوا بالعلم فأعزهم الله، ولم يبيعوا إخلاصهم بعرض زائل من أعراض الدنيا، ولم يقولوا كلمات النفاق حرصاً على منصب أو مال.

فلقد أغلى الله سعرهم، ورفع من قيمتهم، فلم يستطع أن يشتريهم أحد غير ربهم.

من هؤلاء العالم الفقيه التقى الورع، أمير المؤمنين في الحديث «سفيان بن سعيد الثوري» سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. والذى ولد بالكوفة عام ٩٧هـ. ونشأ بها، أراد الخليفة المنصور منه أن يتولى القضاء فأبى، فارتحل إلى المدينة، ثم سكن البصرة ومات بها عام ١٦١هـ. له من الكتب: الجامع الكبير، والجامع الصغير في الحديث.

لم يسكت على باطل:

هذا العالم لم يخش في الله لومة لائم، ولم يسكت على باطل رآه، ولم يكف عن توجيه النصح إلى الحكام قبل المحكومين. عندما تولى «الرشيد» الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا «سفيان الثوري»، فإنه لم يأت وكان بينهما صُحبة، فشق ذلك عليه، فكتب «الرشيد» إليه كتاباً قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله «هارون» أمير المؤمنين إلى أخيه في الله «سفيان بن سعيد الثوري».. أما بعد:

يا أخى فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين، وقد آخيتك في الله مؤاخاة لم أحرم فيها حبك، ولم أقطع منها ودك. وإنى منطو لك على أفضل المحبة، وأتم الإرادة.

ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى -يقصد الخلافة- لأتيتك ولو حبواً، لما أجد لك في قلبى من المحبة، وإنه لم يبق أحد من إخوانى وإخوانك إلا زارنى، وهنأنى بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت المال، وأعطيتهم من المواهب السنية ما فرحت به نفسى وقرت به عينى. وإنى استبطأتك فلم تأتنى، وقد كتبت إليك كتاباً منى إليك أعلمك بالشوق الشديد إليك.

وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته. فإذا ورد عليك كتابى فالعجل العجل..»

حرَّمت حبك:

فلما وصل الكتاب إلى سفيان وفرغ من قراءته قال: أقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يُجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يُصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا.

فقيل له: ما نكتب إليه..؟

قال : اكتبوا له: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من العبد الميت «سفيان» إلى العبد المغرور بالآمال «هارون» الذي سُلبَ حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن.

أما بعد:

فإنى كتبت إليك أعلمك أنى قد حرَّمت حبك، وقطعت ودك.

وإنك قد جعلتنى شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه. وأنفذته بغير حكمه. ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى، حتى كتبت إلي تشهدنى على نفسك..؟

فأما أنا فإنى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدى الشهادة غداً بين يدى الله الحكم العدل..؟

يا هارون.. هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟. أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم رضى بذلك خلف من رعيتك؟.

فشد يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً. واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل. فاتق الله في نفسك إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد، ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً.

كيف بك غدا؟

يا هارون قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب العالمين.. ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويحدون الشارب، ويزنون ويجلدون الزانى، ويسرقون ويقطعون يد السارق. ويقتلون ويقتلون القاتل. أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟(*)

فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]. أين الظلمة وأعوانهم؟ فتقدمت بين يدى الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك. والظالمون حولك، وأنت لهم سابق وإمام إلى النار.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٦].

(*) د. عبد الرحمن عميرة، مواقف العلماء أمام الحكام والولاة، دار العلم والثقافة، القاهرة،٢٠٠٢، ص٣١.

وكأنى بك يا هارون، وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك.. بلاء على بلاء، وظلمة، فوق ظلمة فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمد ﷺ في أمته. واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك.

وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزوده زاداً نفعه. ومنهم من خسر دنياه وآخرته.

فاحتفظ بوصيتى واتعظ بموعظتى التي وعظتك بها، واعلم أنى قد نصحتك، وما أبقيت في النصح غاية. والسلام».

فلما وصل الكتاب إلى «هارون الرشيد» أقبل يقرؤه والدموع تنحدر من عينه وهو يشهق. فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك «سفيان»، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد ووضعته في السجن، وجعلته عبرة لغيره.

فقال هارون: اتركوا سفيان وشأنه، يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه. والشقى والله حقاً من جالستموه. إنه سفيان أمة وحده.

..هذا ما فعله «سفيان الثوري» مع الخليفة «هارون الرشيد».. فهل يمكن أن يحدث ذلك في أيامنا هذه؟ هل نجد العالم الفقيه الذى يقول للحاكم: اتق الله؟

النهى عن الإسراف في أموال الأمة:

لم يكن هذا هو حال «سفيان» مع «هارون» وحده، ولكنه كان كذلك مع كل حاكم وسلطان لا يرعى الله في أمة محمد ﷺ. فقد تعلم «الثورى» أن الإسراف في أموال الأمة من أكبر الكبائر عند الله سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه لا يرضى للمرء أن يسرف في ماله الخاص، فكيف بأموال المسلمين.

قال سفيان الثوري: «لما حج الخليفة المهدى أرسل إلىّ من يأخذنى إليه ليلاً، فلما مثلت بين يديه أدنانى، ثم قال: لأى شئ لا تأتينا؟. فنستشيرك فى أمرنا، فما أمرتنا فى شيء صرنا إليه، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه، فقلت له: كم أنفقت في سفرك

هذا؟. قال: لا أدرى، لى أمناء ووكلاء، قلت: فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدى الله تعالى، فسألك عن ذلك، لكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما حج قال لغلامه: كم أنفقنا في سفرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً، قال: ويحك، أجحفنا بيت مال المسلمين.

كان «سفيان الثوري» من الرجال الذين اختصهم الله من بين العباد بقوة الإيمان وصدق العزيمة في مواجهة الباطل والوقوف بجانب الحق والدفاع عن مصالح الأمة.

دخل «الثورى» على «أبى جعفر المنصور»، فقال له «أبو جعفر»: ها هنا يا أبا عبد إليّ إليّ، ادن منى، فقال: إنى لا أطأ مالا أملك ولا تملك، فقال «أبو جعفر»: يا غلام: أدرج البساط، وارفع الوطاء، فتقدم «سفيان»، فصار بين يديه فقعد، ليس بينه وبين الأرض شئ، وهو يقول: «منها خلقناكم وإليها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى»، فدمعت عينا أبى جعفر، ثم تكلم سفيان، فوعظ وأمر ونهى وذكر، وأغلظ القول، فقال له الحاجب: أيها الرجل، أنت مقتول ، فقال «سفيان»: وإن كنت مقتولاً فالساعة، فسأله «أبو جعفر» عن مسألة فأجابه، ثم قال «سفيان»: فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد ﷺ بغير إذنهم؟

فعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه، له النار غداً» رواه البيهقى.

فقال أبو عبيدة الكاتب: أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا؟، فقال له «سفيان»: أسكت، فإنما أهلك فرعون هامان، وهامان فرعون، ثم خرج «سفيان»، فقال أبو عبيدة الكاتب للمنصور: ألا تأمر بقتل هذا الرجل، فو الله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه، فقال أبو جعفر أسكت، فو الله ما بقى على الأرض أحداً اليوم يستحيا منه غير هذا — يقصد سفيان، ومالك بن أنس.

الثورى يواجه المهدى:

أراد المهدى، الخليفة العباسى، أن يتولى «سفيان الثوري» قضاء الكوفة، ولكن

سفيان كان يأبى ذلك، ليس هربا من مسؤولية القضاء، ولكن لعدم رغبته في أن يكون أحد عمال المهدى الظالم. الذى كان منكراً لخلافته.

قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدى، وأتى بسفيان الثورى كبير علماء المسلمين في عصره، فلما دخل عليه سلم ولم يسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدى بوجه طلق، وقال له يا سفيان: تفر منا ها هنا وها هنا، تظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

قال «سفيان»: إن تحكم فيّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل، فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ آذن لي أن أضرب عنقه؟.

فقال له المهدى: اسكت، ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم. اكتبوا عهده على قضاء الكوفة، بحيث لا يعترض عليه في حكم، فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج، ورمى به في دجلة، وغاب عن أنظار الناس، فطلب في كل بلد، فلم يوجد.

من واجب العالم تبصير الناس بتحرى الحق في أعمالهم وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى لا يكونون عوناً للظالمين فى ظلمهم.

مر شيخ من الكوفيين كان كاتباً، بسفيان الثورى، فقال له سفيان: يا شيخ، ولي فلان فكتبت له ثم عُزل، وولي فلان فكتبت له ثم عُزل، وولي فلان فكتبت له. وأنت يوم القيامة أسوأهم حالاً، يدعى بالأول فيسأل، ويدعى بك فتسأل معه عما جرى على يدك له، ثم يذهب وتوقف أنت حتى يدعى بالأخر فيسأل وتسأل أنت عما جرى على يدك له، ثم يذهب وتوقف أنت حتى يدعى بالآخر، فأنت يوم القيامة أسوأ هم حالاً(*).

(*) أحمد رضوان أبو الخير، من مواقف العلماء، دار المنار، ١٩٩٧، ص٢٩٠.

فقال الشيخ: فكيف أصنع يا أبا عبد الله بعيالى؟ فقال سفيان: اسمعوا هذا، يقول: إذا عصى الله، رزق عياله، وإذا أطاع الله ضيع عياله، ثم قال سفيان: لا تقتدوا بصاحب عيال، فما كان عذر من عوتب إلا أن قال عيالى.

لا يبيع إخلاصه:

لم يقل «سفيان الثوري» كلمات النفاق حرصاً على منصب أو مال، فهو لا يبيع إخلاصه بعرض زائل من أعراض الدنيا، لقى أبو جعفر المنصور في الطواف ولم يكن سفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفنى؟ قال سفيان: لا، ولكنك قبضت عليّ قبضة جبار. قال أبو جعفر: عظنى أبا عبد الله، قال سفيان: وماذا عملت بما عُلمت؟. فأعظك فيما جهلت، قال أبو جعفر: فما يمنعك أن تأتينا؟. قال سفيان: فإن الله نهى عنكم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود، الآية ١١٣].

فمسح أبو جعفر بيده به، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحبَ إلى العلماء، فلقطوا إلا ما كان من سفيان، فلقد أعيانا فراراً.

كان «سفيان الثورى» في نصحه يعمل تبعاً للتوجيه الإلهى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] حتى تؤتى دعوته ثمارها. يقول سفيان: «دخلت على أبى جعفر المنصور بمنى، فقلت له: اتق الله، فإنما أنزلت هذه المنزلة، وصرت إلى هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً.

حج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فما أنفق إلا ثمانية عشر ديناراً، وكان ينزل تحت الشجر، فقال لي: إنما تريد أن أكون مثلك، فقلت: لا تكن مثلى، ولكن كن دون ما أنت فيه وفوق ما أنا فيه، فقال لى: أخرج.

فقلت له: إنى لأعلم مكان رجل واحد، لو صلح صلحت الأمة كلها قال: من هو؟ قلت: أنت يا أمير المؤمنين».



ابن السماك

(توفي سنة ١٨٣هـ)

يطالب هارون الرشيد بتقوى الله

يقول النبي ﷺ: **«من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لا يصبح ويمسي ناصحا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»**.

فالإسلام يريد من كل فرد في هذه الأمة أن يمد أشعة ما معه من الهدى والنور إلى المجتمع من حوله، وأن يقوم بالصلاح والإصلاح في المجتمع.

فلا يكفي أن يكون المسلم صالحا في نفسه سليم العقيدة، صحيح العبادة حسن المعاشرة، ثم يدع الحق مغلوبا، والباطل غالبا، والمعروف ضائعا والمنكر ظاهراً- قاهراً، وهو لا يحرك ساكنا، ولا يبذل جهدا، فالمؤمن الحق يعمل من أجل الحق والخير والفضائل.

وإن كان هذا واجب كل مسلم، فإن واجب العلماء نحو الأمة كبير، وقد عرف علماء السلف الصالح أهمية هذا الدور، فقاموا بواجب النصيحة والدعوة إلى الله في مختلف العصور، ولم يتهاونوا في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإعلاء كلمة الله، ورفع راية العدل، فاستقامت بهم الحياة وسعدت بهم الأمة، ومن هؤلاء العلماء «ابن السماك»، الذي قام بواجب النصيحة أيام أمير المؤمنين «هارون الرشيد».

وابن السماك هو: محمد بن صبيح بن السماك، من وعاظ أهل الكوفة، ذهب إلى بغداد ومكث بها مدة، ثم عاد إلى الكوفة، وتوفي فيها سنة ١٨٣هـ(*).

اتق الله:

تعلم ابن السماك ووعى ما قاله رسول الله ﷺ: **«والله ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»**، تعلمها وعمل بها، وأشفق على هارون الرشيد فعلمها له.

كان عند الرشيد يوما، فطلب منه النصيحة والموعظة فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له. واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما: جنة أو نار، فبكى هارون حتى ابتلت لحيته بالدموع ثم

(*) أحمد رضوان أبو الخير، «من مواقف العلماء»، دار المنار، ١٩٩٧، ص١٤٦.

طلب هارون ماء ليشرب، فلما وضع الماء على فيه ليشرب قال ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت عنك هذه الشربة فبكم كنت تشتريها؟

قال: بنصف ملكي، فقال له ابن السماك: اشرب هنأك الله، فلما شرب قال له: أسألك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشتريها؟

قال: بجميع ملكي، قال ابن السماك: إن ملكا قيمته شربة ماء، لجدير ألا ينافس فيه، فبكى هارون الرشيد حتى أشفق الحاضرون عليه.

كان «ابن السماك» من العلماء الذين يعيشون لله، ويعملون لله، ويتوكلون على الله في مواطن الفزع، ويقولون كلمة الحق وقلوبهم أثبت من الجبال؛ بعث هارون إلى السماك، فلما أخذه الحرس بغير رفق ورآه الرشيد قال: ارفقوا بالشيخ، فلما وقف بين يديه قال له: يا أمير المؤمنين، ما مربي يوم منذ ولدتني أمي أتعب فيه من يومي هذا، فاتق الله في خلقه واحفظ محمدا ﷺ في أمته، وانصح لنفسك في رعيتك، فإن لك مقاما بين يدي الله تعالى، أنت فيه أذل من مقامي هذا بين يديك.

فاتق الله واعلم أن من أخذ الله وسطوته على أهل المعصية..وراح «ابن السماك» يصف عقاب الله لأهل المعصية، فاضطرب الرشيد على فراشه متأثرا بوصف ابن السماك لما يلاقيه هؤلاء من عذاب الله، فقال ابن السماك له: يا أمير المؤمنين هذا ذل الصفة، فكيف لو رأيت ذل المعاينة، يقصد ما بالك لو كنت أنت منهم، فكادت نفس الرشيد تخرج من خشية الله.

السماك وابن الرشيد:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

من هذا المنطلق القرآني فهم «ابن السماك» الدنيا على حقيقتها، فحذر من الاغترار بها حتى لا تبعد الناس عن ربهم، وعما أعده لهم من خير في جنات النعيم،

لم ينصح بها العامة فقط، بل نصح بذلك أيضا ولي أمر المسلمين، وحاكمهم هارون الرشيد. الذي قال للسماك عظني.

فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك، فلا ترضى من نفسك إلا بما رضى الله به عنك، فإنك ابن عم رسول الله ﷺ، وأنت أولى الناس بذلك يا أمير المؤمنين، من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقاً أن يعتق نفسه، قبل أن يحين يوم لقاء ربه، يا أمير المؤمنين، من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها.

يا أمير المؤمنين، ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وقد دُعيت إليها وليس لك فيها نصيب.

يا أمير المؤمنين تموت وحدك وتُحاسب وحدك، وأنك لا تقدم إلا على نادم مشغول، ولا تخلف إلا مفتونا مغرورا، وإنك وإيانا في دار سفر وجيران مرتحلين.

كان «ابن السماك» يقدم النصيحة وهو يعرف أن من يستمع إليه هو خليفة المسلمين، ومع ذلك كان يسترسل في نصحه وإرشاده، لم يهتز له جفن، ولم تأخذه رهبة أو خوف، فالنصيحة واجبة، حتى ولو كانت للحاكم الذي يرهبه الجميع، حذر «ابن السماك» الرشيد من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، وطلب منه أن يتقي الله سبحانه وتعالى، وأن يعد العدة ليوم الحساب، يوم يلقى الله وحده، ويحاسب وحده، ولن ينفعه أحد من هؤلاء البطانة الذين لا يدلون إلى خير، ويدفعون الحاكم إلى الانشغال بدار الغرور.

كلما كانت النصيحة أكبر كان الشكر عليها أعظم، لذا يجب أن يكون الحاكم أكثر الناس شكرا لله تعالى، ومن أكثرهم طاعة لله سبحانه، وهذا ما ذكر به «ابن السماك» «هارون الرشيد».

***

طاعة الله:

هذا الخليفة الذي ظلمه الناس، كان يحرص على تحري طاعة الله، وأن تكون خطواته، وقراراته قدوة للمحكومين، فهو يعلم علم اليقين أن الناس علي دين ملوكهم، فإذا تحرى الحاكم الحلال والحرام، واتقى الله في كل أمر، صلحت الرعية، ولهذا كان حريصا على أن يكون علماء الدين الذين عرف عنهم قول الحق ومخافة الله وعدم نفاق الحاكم في صدر مجالسه، وكان من بين هؤلاء «ابن السماك».

في أحد هذه المجالس طلب هارون من ابن السماك» أن يعظه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن أولى الناس أن يرغب في نعيم الآخرة، من ذاق نعيم الدنيا، فبكى هارون فقد حقق ونال هذا النعيم الكثير، وقال: زدني يا «ابن السماك».

فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالى لم يرض لك أن يجعل فوقك في الأرض أحدا، فلا ترضى أن يكون في الأرض أحد أطوع لله منك. فعاود «هارون البكاء»، فقال وزيره الفضل: يا «ابن السماك»ارفق بأمير المؤمنين، ولكن هارون قال له: اتركه يفعل يا فضل فما أحوجنا إلى مثل ما يقول حتى لا تشغلنا الدنيا عن الآخرة، ثم قال: تكلم يا «ابن السماك» وادع الله أن يرحمنا.

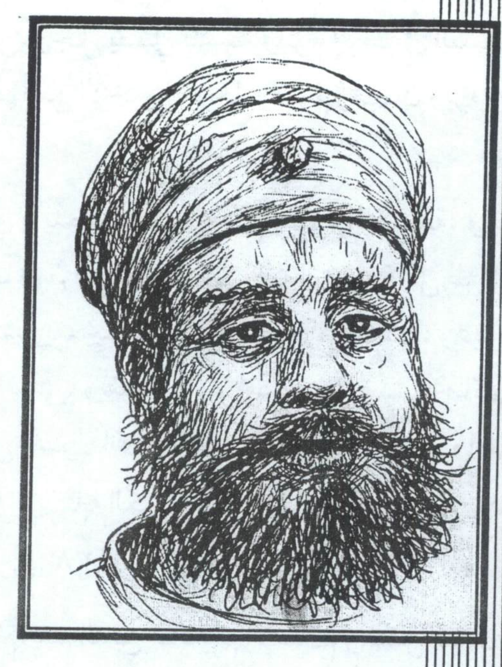
فقال «ابن السماك» وهو رافعا يده إلى السماء: اللهم إنك قلت: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]، أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين في مكان؟ فما زاد «هارون» إلا بكاء.

رجل الدين الحق:

هكذا كان علماء الدين، ولأنهم إذا صلحوا صلح الحاكم، فما أحوجنا إلى هذا الصنف من العلماء الذين لا يحركهم إلا تقوى الله ولا هدف لهم إلا تطبيق الشرع وإعلاء كلمة الحق، في وقت كثر فيه النفاق وتغلبت المصلحة الفردية، وتحول العلماء إلى تابعين للحكام يبررون كل ما يصدر عنهم حتى ولو كان مخالفا لشرع الله، إلا من رحم ربي.

وما أحوجنا إلى حاكم عادل يتقي الله في الرعية ولا يهدف إلا إلى صالح شعبه ونصرة دين الله، ولا تشغله الدنيا وجمع الأموال وتأليف قلوب المنافقين من حوله المنتفعين بوجوده واستمرار نفوذه، ما أحوجنا إلى حاكم لا تغضبه كلمة الحق ولا يأمر بسجن وتعذيب من يقول له اتق الله، وكأنه أصبح الحاكم بأمره وأنه غير محاسب على ما يفعله.





الفضيل بن عياض

(١٠٥-١٨٧هـ)

المستشار الحق

الحاكم في منطق الإسلام رجل من عامة المسلمين، رجل يؤمن بالله ويغرس الإيمان في نفوس الناس، رجل يصلي لنفسه ويؤم الأمة في الصلاة، رجل يُخرج الزكاة ويشرف على جمعها من الآخرين، رجل يصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر في أرجاء المجتمع.

هذا هو الحاكم الذي يريده الإسلام، حاكم يطلب النصيحة، ويسعي في طلبها، حتى لايكون من يقدمها في مركز الضعف،تأتي إليه النصيحة عن طريق القدوة والمثل، حاكم يحسن اختيار مستشاريه، يجمع حوله أهل الورع والتقى، وعيون العلماء، حتي يذكروه بالله والحق إذا نسى، ويقومون من مساره إذا ضل، حاكم يجعل الشورى أساس الحكم، كما فعل رسول الله ﷺ، فقد كان يقول: «أشيروا علينا أيها الناس» امتثالا لقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران : ١٥٩]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ﴾ [الشوري: ٣٨].

هذا النوع من الحكام، هم الذين ساد بهم الإسلام وانتشر العدل بين الناس.

هكذا كان الخلفاء الراشدون الأربعة، ثم كان من بعدهم «عمر بن عبدالعزيز»، الذي تخلص من بطانة السوء وحاشية المستفيدين، التي أحاطت بمن سبقوه من الحاكم، والتي جاءت بهم متطلبات الحكم والسياسة ولم يكونوا يرشدون ولي أمر المسلمين إلى طريق الحق والنجاة.

جاء «ابن عبد العزيز» وقرب منه العلماء الصالحين التقي والورع فأعاد العدل والأمن ورفع راية الحق، فلم يبق في بلاد المسلمين جائع أو محتاج، ولم تعد تُسمع صرخات المظلومين وإنما علت أصوات التكبير والحمد والشكر لله رب العالمين.

عالم صالح:

ومن العلماء الصالحين، الناصحين الذين تأثروا بسيرة هذا الخليفة العادل، وحاول أن يجعل خلفاء المسلمين يهتدون بهديه ويسيرون على خطاه، «الفضيل بن عياض»، المولود في سمرقند عام ١٠٥هـ، ثم جاء إلى الكوفة التي أصله منها، فعاش

بها فترة ثم سكن مكة، وتوفر على العلم، فكان من أكابر العباد الصالحين، وكان ثقة في الحديث، أخذ عنه العديد من علماء المسلمين، منهم الإمام الشافعي، وقد تولى مشيخة الحرم المكي، وتوفى بمكة عام ١٨٧ هـ.

دخل «الفضيل بن عياض» على أمير المؤمنين.. «هارون الرشيد»، فقال: أيكم هو؟ فأشاروا إلى أمير المؤسين، فقال الفضيل: أنت هو يا حسن الوجه، لقد كلفت أمرا عظيما، إني ما رأيت أحدا هو أحسن وجها منك، فإن قدرت أن لا تسود هذا الوجه بلفحة من النار فافعل يرحمك الله، فقال له هارون الرشيد: عظني، قال: بماذا أعظك؟ هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين، انظر ماذا عمل بمن أطاعه؟ وماذا عمل بمن عصاه؟

إني رأيت الناس يعرضون على النار عرضا شديدا، ويطلبونها طلبا شديدا حثيثا، أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها.

فقال هارون له عد إليَّ - أى عاود - الزيارة.

قال: لو لم تبعث إليَّ لم آتك، وإن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك.

كان «الفضيل بن عياض» يتباعد عن رجال الحكم، ذات مرة بعد أن فرغ الرشيد من مناسك الحج، -وقد كان الرشيد يحج مرة كل عامين- رغب أن يرى الفضيل الذي كان يقيم بمكة.

استطاع «عبدالله بن المبارك» الذي كان بصحبة الرشيد أن يجمع بينهما، حيث يستمع الرشيد من الفضيل للعديد من المواعظ والنصائح، وكان الفضيل من المؤمنين بمبدأ أهمية العلم للدين والدنيا، وقد آلمه أن ينصرف عنه الناس، فلما هم هارون بالانصراف، قال له الفضيل: يا أمير المؤمنين، إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع عندك؟ كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل، إنه ما قلت.

فلما عاد الرشيد إلى العراق، كان أول أمر كتب به إلى الأمصار كلها، وإلى أمراء الأجناد:

«انظروا من التزم الآذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن - أي حفظه وأقبل علي طلب العلم، وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم».

السابق للخيرات:

يقول «عبد الله بن المبارك»: فما رأيت عالما وقارئا للقرآن، ولا سابقا للخيرات، ولا حافظا للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة، أكثر من زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم ويروي الحديث، ويحفظ الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة.

كان «الفضيل» في عظاته ونصائحه للرشيد حكيما بليغا ذكيا، ينبهه إلى ما يريد بحكمه، ففي إحدى مجالسهما، قال الرشيد للفضيل: ما أزهدك؟

فرد على إعجابه بزهده قائلا: أنت أزهد مني يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذلك؟

قال: لأني زهدت في الفاني، وزهدت أنت في الباقي.

يريد أن يقول: أني زهدت في الدنيا، وزهدت أنت في الآخرة.

كان «الفضيل» بالنسبة «لهارون» مصباح الهدى الذي يضيء له الطريق، فلم يبخل عليه بنصح، وكان يعمل دائما على أن يكون له الناصح الأمين الناجي به عن طريق الضلال.

يقول «الفضل بن الربيع» وزير «هارون»: حج أمير المؤمنين هارون الرشيد - فأتاني، فخرجت إليه مسرعا. فقلت: أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك.

فقال: ويحك قدحاك في نفسى شيء فانظر لي رجلا أسأله.

قلت: هاهنا «سفيان» بن عيينه.. فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعنا الباب،

فقال: من ذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ لأتيتك.

فقال: خذ لما جئنا إليه رحمك الله، فحدثه ساعة، ثم قال: عليك دين؟

فقال: نعم، فقال: أبا العباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا.. انظر لي رجلا أسأله.

قلت: ها هنا الفضيل بن عياض.

قال: امض بنا إليه.. فأتيناه فإذا هو قائم يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال: اقرع الباب.. فقرعت الباب، فرد الفضيل: من هذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين.

قال: وماذا يريد أمير المؤمنين؟

فقال: الرشيد سبحان الله، ما عليك طاعة.

فقال: أليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه.

ثم نزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا نجول بأيدينا، فسبقت كف هارون قبلي إليه.

فقال: يا لها من كف.. ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل.

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقي.

فقال الرشيد: خذ لما جئناك له رحمك الله.

قال «الفضيل»: إن «عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا «سالم

ابن عبد الله» و«محمد بن كعب» و«رجاء بن حيوة».

فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ.

فقد عد «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة بلاء، وعددتها أنت يا هارون وأصحابك نعمة.

فقال له «سالم بن عبد الله»: إن أردت النجاة من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له «محمد بن كعب»: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المؤمنين عندك أبا، وأوسطهم أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له «رجاء بن حيوة» : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت.

الإمارة حسرة وندامة :

ثم أردف الفضيل قائلا: وإني أقول لك: إني أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله- مثل هذا، أومن يشير عليك مثل هذا؟

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا حتى غشي عليه.

فقلت له: ارفق يا أمير المؤمنين بنفسك، فقال للفضيل: زدني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين: إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام. فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة.

فقال النبي ﷺ: «**إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل**».

فبكى «هارون الرشيد» بكاء شديد ثم قال: زدني رحمك الله.

فقال «الفضيل»: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمس وفى قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: **«من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة»** رواه البخاري ومسلم.

فبكى «هارون الرشيد»، وقال له: أعليك دين؟

قال: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي.

قال «الرشيد»: إنما أعني من دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فقال «هارون»: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك.

سيد المسلمين:

فقال: سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت فلم يتكلم فخرجنا من عنده فلما صرنا إلى الباب قال «هارون الرشيد»: إذا دللتني على رجل، فدلني على مثل هذا، سيد المسلمين.

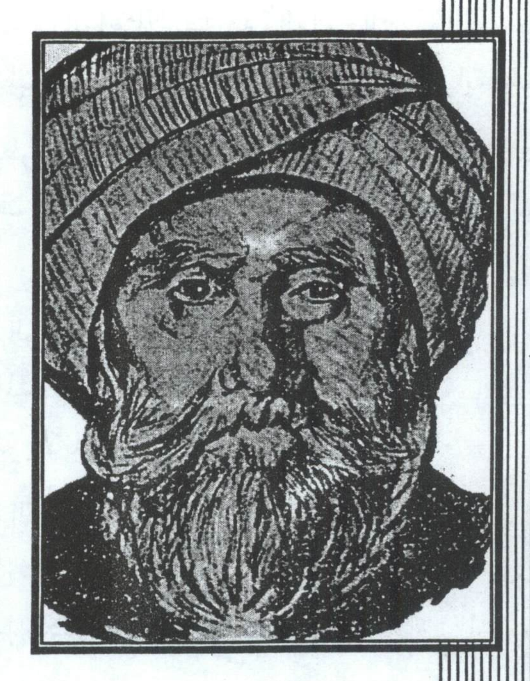
فلما انصرفنا دخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا شيخ قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر فروه أكلوا لحمه.

فلما سمع «هارون» هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال. فلما علم الفضيل، خرج فجلس على باب الغرفة في السطح، فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا

قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله. فانصرفنا.

فنعم العالم التقي الورع كان «الفضيل بن عياض»، ونعم الحاكم كان هارون الرشيد، الذي ظلمه البعض افتراء، وشتان بين هذا العالم وهذا الحاكم وبين مستشاري اليوم الذين يزينون للحاكم الباطل، وتناسوا رسالتهم وتحولوا إلى مضحكين للحكام يلقون إليهم بالنكات بدلا من أن يتوجهوا إليهم بالنصائح والعظات.





الطرطوشـــــــي
(٤٥١-٥٢٠هـ=١٠٥٩-١١٢٧م)

صلاح الراعي والرعية

تاريخنا الإسلامي والعربي مليء بعلماء الدين ومشايخه الذين كانوا علامات وضاءة في مسيرة الحضارة، وكانوا مثالا للنزاهة والعلم والتقى والورع والدفاع عن حقوق الناس والسعي لتطبيق العدالة والزود عن الشرع وإعلاء راية الحق.

من هؤلاء «أبو بكر الطرطوشي»، العالم الزاهد الجريء، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، والذي لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه. فقد كان أبي النفس قوالا للحق.

هو «أبو بكر بن محمد الوليد» بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهرى «الطرطوشى»، المشهور بابن أبي رندقة، وُلِدَ في ٢٦ من جمادى الأولى سنة ٤٥٠ هـ في مدينة طرطوشة بالأندلس.

وفي مسجد طرطوشة الكبير تلقى «أبو بكر محمد بن الوليد» علومه الأولى، ولما شب عن الطوق رحل إلى مدن الأندلس الكبيرة الأخرى يستزيد من العلم، فذهب إلى مدينة سرقسطة واتصل بكبير علمائها في ذلك الوقت.. القاضي أبي وليد الباجي، وسمع منه وأجاز له.

وكانت أسرة والدته من سرقسطة، وكان بعض أفراد هذه الأسرة من رجال الحرب الشجعان المبرزين. وكان والده الذي ينتهي نسبه إلى قريش من المشتغلين بالعلم، ولهذا وجه ابنه إلى تحصيل العلم. وكانت أسرته على شيء من الثراء، ومع ذلك كان يعمل حارسا للبساتين.

وعندما وصل إلى الخامسة والعشرين من عمره قرر أن يتجه إلى المشرق مواصلا تحصيل العلم في مكة والعراق والشام ومصر.

في سنة ٤٧٦ هـ غادر «الطرطوشى» وطنه، فوصل إلى مكة، واستقر بها قليلا بعد أداء فريضة الحج، يلقي بعض الدروس، ولكنه لم يمكث بمكة طويلا، بل استأنف رحلته واتجه إلى بغداد.

***

زاهد بغداد:

كانت بغداد في ذلك الوقت مركزا من أكبر مراكز العلم في العالم الإسلامي، وكانت محط رحال العلماء، يفدون إليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب، فكان لابد «لأبي بكر الطرطوشى» أن يرحل إليها ليستكمل دراسته، ويتصل بعلمائها الأعلام، ويتتلمذ عليهم ويأخذ منهم.

اندمج «الطرطوشى» في الحياة العلمية النشطة ببغداد، واستمع إلى نخبة العلماء الممتازة بها، أمثال «أبي العباس الجرجاني» و«أبي محمد التميمي» و«أبو بكر الشاشي» و«أبو نصر بن الصباغ»، وغيرهم من العلماء الأجلاء، وشارك في حلقاتهم. وهناك تأثر بفلسفة الزهد والعزوف عن اللذات والشهوات، والجرأة علي كل كبير في سبيل الحق واتخذها طريقة له، فهو ينظر إلى كل كبير بهذه النظرة التي لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره وأن أي سلطان لابد أن يكون هدفه تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى.

وهكذا ما أن غادر «الطرطوشى» العراق سنة ٤٨٠هـ، بعد ثلاثة أعوام قضاها في الدرس والتحصيل حتى اتخذ لنفسه أسلوب حياة الزهد والبعد عن مباهج الدنيا، فقد التزم الزهد فلسفة حياة.

نفس أبية:

دخل «أبو بكر الطرطوشي» الشام بعد أن أتم دراسته، وبعد أن حصل من العلوم ما حصل، وبعد أن بلغ من النضج الفكري درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه، وبعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد والسعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأقبل عليه الناس وأحبوه، وأفادوا من علمه، فعلا اسمه وبعد صيته.

ومع ذلك عاش هناك متقشفا عابدا زاهدا منقبضا عن الناس، إذا أكل أكل في شقف من الفخار، وكان أصحاب الحكم والسلطان يسعون إليه وإلى بره، ولكنه

كان ينصرف عنهم، ويشتد عليهم في القول وإسداء النصيحة.

كان هكذا دوما سواء بالشام أو في بيت المقدس،قيل أنه كان ببيت المقدس يطبخ في شقف، وكان مجانبا للسلطان معرضا عنه وعن أصحابه، شديدا عليهم مع مبالغتهم في بره.

ويبدو أن نفسه الأبية وصراحته والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الحاسدين من أهالي بيت المقدس، فسعوا به لدى حاكمها ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه، واستدعاه الحاكم إليه، فلم يأبه لدعوته ورفض أن يذهب إليه.

وطوف «الطرطوشي» في معظم مدن الشام، بيت المقدس وجبل لبنان، ودمشق وحلب وأنطاكية، التي كان بها في أواخر سنة ٤٩٠هـ. وعندما استولى الصليبيون على أنطاكية وسواحل الشام كلها وبيت المقدس في سنة ٤٩١هـ. اتجه إلى مصر وهو في الأربعين من عمره، وقد جاء إلى الشام وهو في الثلاثين، ولم يغادره إلا بعد أن أصبح له تلاميذ كثيرون ومعجبون به وبعلمه، ويتسابقون إلى حلقات دروسه(*).

مُعلم الإسكندرية:

وصل «أبو بكر الطرطوشي» إلى مصر برفقة صديقه الشيخ عبد الله السايح حيث نزلا برشيد وأقاما بها، وعندما استولى الوزير الأفضل شاهنشاه على الإسكندرية انتقم من أهلها الذين أيدوا نزار ابن الخليفة المستنصر وقام بقتل العديد من العلماء المالكيين فتعطلت الشعائر الدينيّة ولم تقم الجمعة في مساجدها، وسمع أهل الإسكندرية أن في رشيد فقيهًا كبيرًا فركبوا إليه يطلبون منه أن يتصدر حلقات الدرس في مساجدهم ليفقه الناس في أمور دينهم.

استقر بالطرطوشى المقام في الإسكندرية وبدأ يدرس وينشر العلم على مذهب مالك، وتقاطر الناس على حلقاته يأخذون عنه ويقرؤون عليه ويفيدون من علمه،

(*) جمال الدين الشيال، أبو بكر الطرطوشى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، سلسلة أعلام العرب.

وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه.

وتزوج بعد قليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده في أموالها وتحسنت أحواله، ووهبته دارا من أملاكها، جعل سكنه معها في الدور الأعلى واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقي فيها دروسه ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوافدين على الإسكندرية.

وكانت هذه السيدة الفاضلة تقية متدينة، من بيت من أكبر بيوت الإسكندرية وقتذاك فضلا وعلما وجاها وثروة، بيت «بني عوف» فهي خالة فقيه الإسكندرية وكبير علمائها «أبي الطاهر بن عوف»، تلميذ «الطرطوشى» وخليفته فيما بعد.

نصيحة العلماء:

وبعد أن استقرت الحياة «بالطرطوشى» في الإسكندرية خرج لزيارة القاهرة وهناك حرص على لقاء الوزير صاحب السلطان الأعلى وقتذاك «الأفضل شاهنشاه» بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه لا ليسأله منحة أو عطية، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين، وليعظه الموعظة الحسنة، وليطلب إليه الرفق بالرعية وإشاعة العدل بينهم وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم.

بعد أن حياه بتحية الإسلام قال له:

- أيها الملك: إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عاليا شامخا، وأنزلك منزلا شريفا باذخا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك.

وأن الله تعالى ألزم الورى طاعتك، فلا يكونن أحد أطوع لله منك، وأن الله تعالى أمر عباده بالشكر، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل والإحسان، قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

واعلم أن هذا الملك الذي أصبحت فيه إنما ثار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك.

فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وقال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

واعلم أيها الملك إن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود -عليهما السلام- فسخر له الإنس والجن والشياطين والوحوش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم دفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: ﴿ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩].

فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به، فقال: ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠].

فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ما قلدك، وجعلك كهفا للملهوف، وأمانا للخائف.

هكذا خاطب «الطرطوشى» العالم الزاهد الملك الأفضل ذا الحول والطول، وهو في أوج سلطانه وعظمته، والكل يأتمرون بأمره، فهز كيانه هزا وإن كان استنكره فيما بينه وبين نفسه.

وعاد «الطرطوشى» إلى الإسكندرية ليستأنف سيرته الأولى وليتفرغ للعلم والتعليم، وتكاثر طِلابه، وأقبلوا على دروسه وأحبوه، واصطنع هو لهم طريقة جديدة هي أقرب شيء إلى طرق التربية الحديثة، فلم يقصر اجتماعاته بهم على طرق الدرس، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم في معظم الأوقات في رحلات خارج

المدينة إلى البساتين والأماكن الخلوية، وهناك في الهواء الطلق يلقنهم دروسه فكثر طلابه وزاد عددهم.

مكيدة القاضي:

ولكن هذا الإقبال جر على «الطرطوشي» الوبال، فقد ضاق به قاضي الإسكندرية «ابن حديد» ضيقا شديدا، فقد انتظر «ابن حديد» من «الطرطوشي» عند نزوله بالمدينة أن يسعى إليه، وأن يمدحه وأن يكون من حاشيته، ولو أنه فعل هذا لأغدق «ابن حديد» عليه العطايا، وليسر عليه شؤون الحياة جميعا. ولكن «الطرطوشي» كان صنفاً آخر من الرجال،كان رجلا يعتد برجولته، وكان عالما يعتز بعلمه، وكان بعد هذا زاهدا، لا يحبذ هذا النوع من الحياة المترفة الباذخة التي كان يحياها «ابن حديد». وقد أخذ على «ابن حديد» بعض تصرفاته المالية وبعدها عن قواعد الشرع والإسلام، وأطلق لسانه يتحدث إلى الناس بهذه المآخذ المالية، ويعيد الحديث ويكرره في عنف وقسوة مما آلم «ابن حديد» وآذاه.

وكانت «للطرطوشي» إلى جانب هذا فتاوى كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التي تأخذ بها الدولة، كما كان ينتقد كثيرا من العادات السائدة في المجتمع، والتي تنافي الدين الإسلامي، إضافة إلى ذلك فقد جذب «الطرطوشي» إليه عددا ضخما من تلاميذ الإسكندرية وعلمائها، فصار إذا انتقل من مكان إلى مكان، أو إذا خرج إلى رحلاته خرج في موكب حافل مهيب، وفي هذا دون شك منافسة خطيرة لقاضي المدينة ورجلها «ابن حديد» وفيه خطورة محققة على مركز «ابن حديد» ومكانته.

كل ذلك جعل القاضي يرفع إلى الوزير «الأفضل» تقريرا يؤكد فيه خطورة «الطرطوشي» على الإسكندرية وأهلها، وأن هذا العالم الزاهد الثائر لو ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع وينتقد الحاكم، وينتقد القاضي وأحكامه، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة، وينادي بتحريم الجبنة الرومي وغيره من المأكولات

الواردة من أوروبا، فإنه سيسبب للدولة متاعب كثيرة وسينقص من مهابتها في أعين الشعب، وسيحرض الناس على مقاطعة التجارة الأجنبية، فتنقص إيرادات الدولة بنقصان الضرائب التي تؤخذ على هذه التجارة الواردة.

تحديد إقامة:

كل هذا دفع الأفضل إلى تحديد إقامة «الطرطوشى» في مسجد «الرصد» جنوبي الفسطاط، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه. وقد امتد هذا الاعتقال شهورا فضاق به هذا العالم الورع، ولما اشتد به الضيق أعلن امتناعه عن أكل شيء مما يأتيه به الأفضل، ثم اعتكف يصلي ويتعبد ويبتهل إلى الله، حتى قُتل الأفضل، وتولى الوزارة بعد الأفضل «المأمون البطائحي»، وكان يعلم ما بين الرجلين فأفرج عن الشيخ وأكرمه إكراما زائدا وقربه إليه.

وعاد «الطرطوشي» إلي الإسكندرية واستأنف بها حياته ونشاطه العلمي، ولم تنل منه الأيام ولم تفل من حدته، فقد كانت تشغله دائما الأمور التي كان يراها منافية للشرع والعدل، والتي سبق أن تقدم للأفضل يطلب تغييرها، فلم يستمع إليه وقد خشى «الطرطوشي» أن تأخذ الوزير الجديد عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه.

لهذا بدأ بعد عودته إلى الإسكندرية مباشرة يؤلف كتابا في السياسة وفن الحكم، وما يجب أن يكون عليه الراعي والرعية، وأتم الكتاب في سنة كاملة وسماه «سراج الملوك» وفي شوال سنة ٥١٦هـ حمل الكتاب، وسافر إلى القاهرة ليقدمه إلى الوزير الجديد، وليعيد الحديث معه في الأوضاع السقيمة القائمة في الدولة، والتي لا يقرها الشرع.

قضية الميراث:

ومن الأمور الظالمة التي كانت منافية للشرع أمر ميراث البنت، فقد كان القضاة في مصر على العصر الفاطمي يتبعون المذهب الشيعي الإسماعيلي، وهذا المذهب يقضي بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها إذا كانت وحيدة لا أخ لها ولا أخت، ويحرم

العصبة من المشاركة في الميراث.

وكانت النظم الوضعية المتبعة تقضي أيضا بأن يأخذ الموظفون القضائيون المشرفون على شؤون الميراث ربع العشر من أموال اليتامى عند توزيع التركة بمثابة أجر لهم.

وكان «الطرطوشى» يرى في الأمر الأول..ميراث البنت مخالفة للشرع في نظره، وكان يرى في الأمر الثاني ظلما فاحشا واغتصابا لحق الأيتام، ومن واجب الحكومة أن تحافظ على أموالهم وتصونها لا أن تقتطع جزءا منها لموظفيها.

وبعد نقاش طويل وافق «المأمون البطائحي» على حل وسط يرضي المذهب الرسمي للدولة ويرضي «الطرطوشى»، فقد وافق على إصدار أمر للقضاة بأن يتبع في الميراث مذهب الميت، فإن كان سنيا أتبع المذهب السني، وإن كان شيعياً أتبع المذهب الشيعي.

أما الأمر الثاني فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولى، وأمر بأن يُصرف للموظفين راتب من خزانة الدولة بدلا من المبالغ التي كانوا يقتطعونها من أموال اليتامى.

أديب بارع:

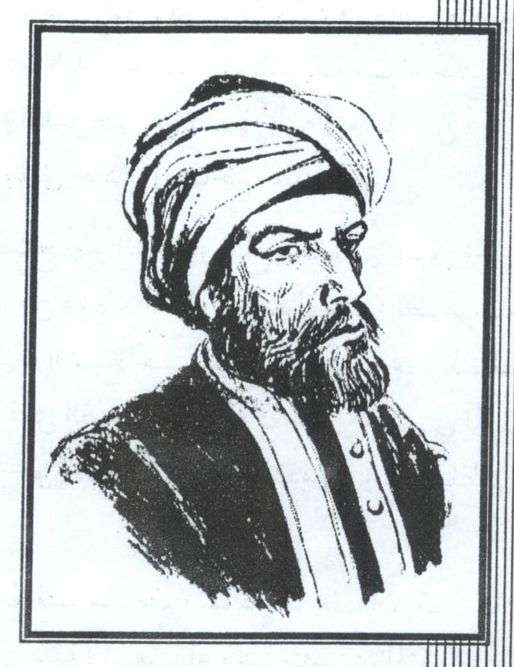
وبعد نحو شهرين من إقامته في القاهرة عاد «الطرطوشي» إلى الإسكندرية يُعلم الناس ويدعو إلى المعروف وينهي عن المنكر قاضيا أوقاته ما بين العبادة والتأليف، حتى توفاه الله في ٢٦ من جمادى الأولى ٥٢٠هـ، ٢٠ من يونيو ١١٢٧م.

ومن أشهر مؤلفاته «مختصر تفسير الثعالبي»، «الكتاب الكبير في مسائل الخلاف»، «شرح رسالة الشيخ أبي زيد القيرواني»، «كتاب الأسرار»، و«سراج الملوك» و«كتاب الحوادث والبدع»، و«بر الوالدين»، «رسالة تحريم الغناء واللهو على الصوفية في قصهم وسماعهم»، و«رسالة في تحريم جبن الروم»، و«كتاب الفتن»، و«نزهة الأخوان المتحابين»، و«كتاب الدعاء»، «نفائس النفوس»، وغيرها.

وكان «الطرطوشي» إلى جانب تضلعه في أمور الشريعة ومسائل الخلاف أديبا بارعاً ويظهر ذلك الأسلوب الرشيق الجميل في كتابه سراج الملوك، وكان شاعراً محسناً، وقد زود كتابه هذا بنماذج رائعة من شعره، ظلت أبياتاً منها تتردد على الألسنة حتى يومنا هذا، مثل قوله:

إن لله عباداً فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها، فلما علموا	أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سكناً





العز بن عبد السلام

(٥٧٧-٦٦٠هـ=١١٨١-١٢٦٢م)

بائع الأمراء

العالم التقي الورع، الذي تربى على مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، لا يرضى عن نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق بديلا، لا تخيفه قوة السلطان، ولا تستميله الهدايا أو العطايا والصلات، الناس عنده أمام الشريعة سواء حكام أم محكومين. مصلحة الأمة وفق أحكام الدين هي ما يسعى إليه ويعمل من أجله. رضاء الله وتطبيق الشرع مبتغاه. لا ينافق حاكم أو صاحب سلطان.

بأمثال هؤلاء العلماء صلُح أمر الناس وشاع العدل بينهم، واحترمت الدول والشعوب أمة الإسلام. ومن هؤلاء العلماء شيخ قال عنه «الظاهر بيبرس» حاكم مصر، بعد أن استقر جثمان الشيخ تحت سفح المقطم، وعاد السلطان «الظاهر بيبرس» إلى قصر ملكه وتنفس الصعداء قال: الآن استقر أمري في الملك، لأن هذا الشيخ لو قال للناس: اخرجوا عليه لا نتزعوا الملك مني. إنه «سلطان العلماء العز ابن عبدالسلام».

حياة هذا الشيخ كلها مواقف مشرفة، ونموذج لما يجب أن يكون عليه عالم الدين المسلم. سواء وهو يعلم في حلقة الدرس، أو وهو يتصدى للإفتاء، أو الخطابة، أو عندما يقضي بين الناس، وُلِدَ في دمشق عام ٥٧٧هـ. الموافق ١١٨١م وتوفي بالقاهرة عام ٦٦٠هـ. الموافق ١٢٦٢م. ودُفن بسفح جبل المقطم.

أطلق عليه أبوه اسم «العز عز الدين عبدالعزيز»، ولكنه عندما كبر اشتهر باسم عزالدين وباسم العز.

كان أبوه عبدالسلام فقيرا، وحين شب الطفل صحب والده ليساعده في بعض الأعمال الشاقة كإصلاح الطرق وحمل الأمتعة وتنظيف ما أمام محلات التجار، وإذا حان وقت الصلاة صحب والده إلى الجامع الأموي.

من الصغر:

عندما توفى والده التحق بالجامع الأموي يساعد الكبار في أعمال النظافة، وحراسة نعال المصلين وأهل الحلقات، وكان يقضي الليل نائما على الرخام في زاوية

بأحد دهاليز الجامع، وكان يتناهى إلى سمعه وهو على باب المسجد يحرس النعال، كلام يثير خياله، ويلهب أشواقه إلى دنيا أخرى لا يجوع فيها ولا يعرى. وتسلل إلى إحدى الحلقات ذات يوم، ورآه شيخ الحلقة فنهره، وسأله كيف يسمح لنفسه أن يجلس بثوب ممزق في مجلس علم ينبغي على الطالب فيه أن يأخذ زينته؟!

جرى الصبى إلى باب المسجد، وتكور على نفسه يبكي، رآه الشيخ «الفخر بن عساكر» صاحب حلقة الفقه الشافعي، وسأله عما يبكيه، ووعده أن يتعهده ويعلمه. وفي صباح اليوم التالي ألحقه بالكتاب الملحق بالمسجد، وأوصى بأن يتعلم القراءة والكتابة والخط وأن يحفظ القرآن على نفقة «ابن عساكر».

شغف عظيم بالعلم:

أقبل «العز» على حفظ القرآن في شغف عظيم، وأتقن القراءة والكتابة والخط الحسن، وعوض ما فاته من سنوات الدرس. ومرت أعوام، واطمأن الشيخ «فخر الدين» إلى أن الصبي قد أتقن حفظ القرآن وجوده، وأنه يحذق القراءة والكتابة بخط جميل، فقرر أن يضمه إلى الطلاب الذين يحضرون حلقته.

لزم «عز الدين» شيخه «ابن عساكر»، وتعلم عليه الفقه الشافعي، وكان الشيخ زاهدا ورعا واسع المعرفة كثير الصدقات، خطيبا لاذعا، وهو في الوقت نفسه شديد الحياء، وكان مرحا متألق الظرف، فتأثر به تلميذه «عز الدين» ونقل عنه كثيرا من خصاله وسجاياه.

ولم يكد ينتهي الشاب من الدراسة على شيخه «الفخر بن عساكر» وغيره من الشيوخ في الجامع الأموي حتى أجازوه للتدريس، وعُين مدرسا بدمشق، يقرئ صغار الطلاب القرآن، ويعلمهم القراءة والكتابة، ثم نُقل إلى مدرسة أعلى يعلم الطلاب الفقه وأصوله على المذهب الشافعي. وكان يتردد على مكتبة الجامع الأموي، يقرأ فيها كل ما يقع عليه من معارف، واستوعب كل ما تركه السلف في علم الكلام.

دقة وتفكير:

جذب «عز الدين» إليه العديد من الطلاب، أحبوا دروسه التي كان يرصعها بما حفظ من طرائف الحكمة وروائع الشعر، مما كان ييسر على الطلاب صعوبة الفقه. وقصده الناس يستفتونه، ولم يعد يتقيد بالمذهب الشافعي، بل كان يبحث في كل المذاهب عن إجابات لما يرد إليه من أسئلة، فإن لم يجد حاول أن يجتهد برأيه. تميز «العز» بالدقة في فتياه، يفكر طويلا قبل الإجابة، ويظل يفكر بعدها وينقب حتى يطمئن أنه على الصواب. أصدر فتيا ذات مرة، ثم طفق يفكر بعدها فيما قال، وعاد إلى كتب السلف عسى أن يجد فيها ما يسانده، فاكتشف أنه أخطأ، ولم يكن يعرف صاحب المسألة الذي استفتاه، فأطلق عددا من تلاميذه في الأسواق والطرقات والمساجد ينادون في الناس: من صدرت له فتيا بالأمس من «العز عزالدين بن عبدالسلام» فلا يعمل بها فهي خطأ. فهل يفعل ذلك أحد من فقهاء اليوم؟.

ولم يهتم «عزالدين» بالتدريس والفتيا فقط، ولكنه كان يتحرك في الأسواق يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر في رحمة وحكمة وموعظة حسنة. ويشدد النكير على الظالمين من التجار الذين يبخسون الناس أشياءهم، وعلى جباة الضرائب، والمرتشين الجائرين ممن يلون أمرا من أمور المسلمين.

أحب الناس «ابن عبدالسلام»: المظلومون والفقراء خاصة، وطلاب العلم الذين يجاهدون من أجل مستوى أفضل، وخافه الجائرون من الحكام، أما العادلون منهم فقد حاولوا أن يقربوه، ولكنه كان بطبعه لا يحب الاقتراب من السلطان. وضاق به بعض الفقهاء المقلدون ممن ينافقون الحكام، فقد كان لا يتورع عن مهاجمة ونقد الجامدين والمرتشين والمرتزقة الفقهاء بألسنة حداد، ويطالب المسلمين ألا يتبعوهم حتى لا يفسدوا عليهم دينهم.

السكوت عن المنكر منكر:

وفي أحد الدروس وجه أحد الطلاب إلى الشيخ «عزالدين» سؤالا عن حكم

الدين في العلماء الذين يسكتون عن الظلم، وهم بعد ذلك يتصدرون بعض الحلقات في الجامع الأموي يعلمون ويفتون؟!

فأفتى الشيخ «عزالدين» بأن السكوت عن المنكر منكر، وعلماء المسلمين هم أولى الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن تخلوا فما أطاعوا الله والرسول، وإن كان سكوتهم طمعا في الأموال والهدايا والمناصب أو حرصا فإثمهم مضاعف. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وهؤلاء هم العلماء، فإن لم يفعلوا فهم العصاة والعياذ بالله. وهؤلاء لا طاعة لهم.

هذه الفتوى أغضبت وأهاجت هؤلاء النفر من العلماء ووجدوا فيها تحريضا للطلاب وللعامة عليهم وعلى السلطان نفسه، فدسوا له عند السلطان وطالبوا بمنع «عزالدين» عن الفتيا والتدريس والمشي في الأسواق. ولكن السلطان بتوجيه من أخيه «الملك الكامل» حاكم مصر عينه شيخ حلقة في الجامع الأموي، وهو أكبر منصب علمي في دمشق.

ومضي الشيخ في طريقه، يقرأ ويدرس ويفتي، وقد اطمأنت به الحياة فالراتب الذي يأخذه من المسجد الأموي راتب كبير يكفيه لحياة موفورة.

ولكنه ظل كما هو العالم التقي الورع، طالبته زوجته أن يغير سكنه الضيق بعد أن كثر الأولاد، فوعدها خيرا، ولكنه لم يغيره. فقد كان ينفق عن سعة على أهل بيته، ويحسن إكرام ضيوفه، ويتصدق بما بقى، ولا يدخر شيئا على الإطلاق.

وعندما أعطته زوجته مصاغها ليبيعه ويشتري لهم بيتا واسعا، باعه وتصدق بثمنه. فلما عاد إلى زوجته استقبلته فرحة:

- هل اشتريت لنا بستانا؟

- نعم بستانا في الجنة. إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمن المصاغ.

- جزاك الله خيرا.

منارات العدل:

ومرة أخرى يحاول أهل النفاق من العلماء أن يوقعوا بين الملك الأشرف وبين الشيخ «العز بن عبدالسلام..»، وعندما تأزم الموقف بين العز وبين حاكم دمشق تدخل أخوه الكامل مرة أخرى وأشار عليه أن يعين عزالدين قاضيا للقضاة ليصلح له أمور الرعية، وأمر أخاه ألا يثق بأحد من العلماء إلا هؤلاء الذين يأخذون الكتاب بقوة، الأشداء الأتقياء الورعين الذين لا يخافون في الله لومة لائم، لأن هؤلاء هم أعمدة الأمة ومنارات العدل، وهم أحرى بأن يجعلوا السلطان قويا وفاضلا ومحبوبا عند الرعية، وهم على أية حال خير من الفقهاء والعلماء الضعاف المستخزين المنافقين،طلاب المنافع الذين يذهبون بجلال الملك ويزدرون بهيبة الدين.

وكان على الشيخ أن يضع على رأسه أكبر عمامة في الدولة، عمامة قاضي القضاة، صاحب أكبر منصب ونفوذ، الرجل الذي يلزم بأحكامه كل أولياء الأمر حتى السلطان نفسه. ولكنه وضع على رأسه طاقية من لباد مصر، وهي غطاء الرأس الذي لا يستعمله إلا فقراء الناس في مصر والشام، وكان من قبل عندما عُين خطيبا للجامع الأموي، قد طرح الرداء الأسود الذي كان يرتديه خطباء الجامع الأموي.

وظل الشيخ «عزالدين» يعمل على إماتة البدع، وإحياء السنن في كل ما يصدر من أحكام، وما يلقي من دروس وخطب، وما ينشئ من فتاوى وكان يقول: طوبى لمن ولي أمرا من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع وإحياء السنن.

خيانة السلطان:

وعندما تحالف «الصالح إسماعيل» سلطان دمشق مع الصليبيين، وتنازل لهم عن صيدا وقلعة الشقيف وبعض مدن فلسطين واقتسم معهم مدنا أخرى، أعلن الشيخ «عزالدين» في خطبة الجمعة خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام. وأفتى أن بيع السلاح للفرنجة حرام، وكل بيع لهم حرام. فمن ارتكب من ذلك شيئا فقد

خان الله والرسول ولا ذمة ولا عهد له، ودمه مهدر وماله مباح. وأصدر السلطان أمرا بسجن الشيخ عزالدين والشيخ ابن الحاجب الذي أيد فتواه. لكنه اضطر إلى الإفراج عنهما خشية ثورة الناس.

ورأى الشيخ ابن عبدالسلام أن يهاجر إلى مصر عملا: بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وكان يوم وصوله إلى القاهرة كأيام الأعياد، فقد احتشد الناس في أبهى ملابسهم لاستقباله، وأمر السلطان أمراءه وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد، وخرج في أبهته على رأسهم يستقبلون الشيخ. وقد أعدوا له الخيل المطهمة ليمتطيها هو وأهله وأبناؤه. وسكن دار فسيحة وسط حديقة غناء، اشتراها أهل مصر عرفانا بمكانة.. «عز الدين بن عبدالسلام».

وأصدر السلطان الملك «الصالح نجم الدين أيوب» أمره بتعيين الشيخ إماما وخطيبا لجامع عمرو، الذي أصبح منذ عهد صلاح الدين الأيوبي بديلا للأزهر وتنازل الشيخ المنذري مفتي مصر عن الإفتاء للشيخ عزالدين قائلا: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عزالدين وأما بعد حضوره فالفقه متعين فيه ولا يفتي أحد وهو بيننا. ثم عينه الملك الصالح قاضيا لقضاة مصر.

وبدأ القاضي العادل بتطبيق أحكام الشريعة على أمراء المماليك، فقد رأى أنهم ليسوا من أهل مصر، وليسوا أحرارا على الإطلاق، بل هم مجلوبون، اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين، وفنون الفروسية والحرب والرياضيات، وعندما شبوا عينوا في مناصبهم، فهم أمراء مماليك أرقاء إذن. وليس لهم حقوق الأحرار، ولهذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر النساء، وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا، إلا كما يتصرف العبيد.

وبهت الملك لمعاملة «العز» للأمراء المماليك معاملة العبيد في أحكامه، وذهب إليه يسأله أن يعدل عما أخذ فيه، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء، فليس هذا

للسلطان. فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقيل نفسه. فاحتار السلطان ماذا يفعل؟.

لقد أبطل الشيخ كل أمر أبرمه المماليك من عقود بيع وإجارة، وحتى عقود الزواج، فاضطرب أمر المماليك; فالزوجات يهجرن فراش الزوجية، ويعاملن أزواجهن كالغرباء، والتجار يعودون في الصفقات، والصبية يطاردون الأمراء المماليك يعيرونهم بأنهم عبيد. بعد أن كان الناس يخشون هؤلاء الأمراء الذين أذاقوهم الأهوال. فتعطلت مصالح هؤلاء الأمراء، ومنهم نائب السلطنة.

بيع الأمراء:

غضب الأمراء وهاجوا، ولكن الشيخ لم يتراجع، فلاحل إلا أن نعقد لكم مجلسا وننادي عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين هكذا قال لهم الشيخ، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يتراجع رغم أنه أخبره -على لسان رسوله- أنه لن يسمح ببيع الأمراء، وأن أمر السلطان واجب، وهو فوق قضاء الشيخ عزالدين وليس للشيخ أن يتدخل في أمور الدولة فشؤون الأمراء لا صلة له بها، بل بالسلطان وحده، ورفض الشيخ أن يتدخل السلطان في القضاء. وقام من فوره فجمع أمتعته ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى، وساق الحمير ماشيا، فقد قرر أن يخرج من مصر، مادام السلطان فيها يعتدي على القضاء.

تجمع الناس حوله وهم يتوسلون باكين ألا يتركهم، فقد عرفوا في قضائه قوة الانتصار للمظلوم، وهيبة العدالة، خلال تلك الأشهر القلائل التي ولي فيها المنصب.

ولكن الشيخ صمم على قراره وسار في طريقه خارج القاهرة والناس من خلفه، يرجون ملحين ساخطين، حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء، إذ لم يتخلف عن اللحاق به امرأة ولا صبي ولا رجل ولاسيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم. وعلم السلطان بما يجري، وقال له أحد ناصحيه: تدارك ملكك وإلا ذهب بذهاب الشيخ.

فأسرع السلطان خلف الشيخ، وتقدم متلطفا معتذرا إليه، وقال له: لا تفارقنا، عد يا إمام واصنع ما بدا لك. وجمع السلطان كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ، ثم عُرضوا في مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى في ثمنهم. حتى إذا امتنع الحاضرون عن المزايدة في الثمن لارتفاعه الفاحش، تقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من بيت المال، حتى اشترى جميع الأمراء المماليك وأعتقهم لوجه الله، فأصبحوا أحرارا. وصحح الشيخ عقودهم، بما فيها عقود الزواج. ووزع الشيخ ثمنهم على الفقراء والمحتاجين، وخاصة أهل العلم وطلابه، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة.

مصلحة الأمة:

واستمر الشيخ في القضاء حاسما حازما لا يخشى إلا الله، ولا يأبه إلا بالحق، ولا يراعي إلا مصلحة الأمة، تأتيه الدعوى من أحد الأفراد على أحد خواص السلطان، فيسوي بينهما في المجلس، ويتحرى العدل وحده.

ووجد بعض الأقوياء الظالمين يغتصبون حقوق المستضعفين، فأفتى أن من واجب المستضعفين أن ينتزعوا ما اغتُصبَ منهم، ولا عقاب عليهم، فهذا حقهم الشرعي. فإن هم وجدوا السلطان عاجزا عن رد أموالهم المغتصبة، فعليهم استردادها بأنفسهم، وإلا أثموا شرعا، أثارت هذه الفتيا عددا من الأمراء الذين ألفوا أن يستضعفوا بعض التجار والصناع والحرف ويغتصبون منهم خفية البضائع والأجور.

وغضب السلطان من الشيخ عندما هدم طبلخانة استادار، الذي يتولي شؤون مساكن السلطان وسائر حوائجه الخاصة، والتي أقامها فوق سطح أحد المساجد، فتنازل العز عن منصب قاضي القضاة، وتفرغ للتأليف والكتابة.

ما حجتك عند الله؟

لكنه لم يغمض عينيه عن أخطاء السلطان، فقد ذهب إلى السلطان في يوم عيد

بالقلعة، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة معقود، وقد خرج السلطان على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه:

«يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك أهب لك ملك مصر، ثم تبيع الخمور؟» فقال السلطان: هل جرى ذلك؟.

قال: نعم الحانة (...) تبيع الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة.

فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عملته. هذا من زمان أبي.

فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢].

فأمر السلطان بإغلاق الحانة. وبعد أن انصرف الشيخ سأله أحد تلاميذه عما فعله؟

فقال الشيخ: رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لكيلا تكبر نفسه فتؤذى.

فقال التلميذ: - أما خفته؟. قال الشيخ.. والله يا بني لقد استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان أمامي كالقط.

وعندما اتجه الصليبيون إلى دمياط بقيادة لويس التاسع، هب الشيخ ليدعو كل أفراد الأمة إلى الجهاد. وانتصر المصريون على الصليبيين، ثم روعت الدنيا باستيلاء التتار على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية.

ومن جديد يطلق الشيخ عزالدين صيحته إلى الملوك والأمراء العرب والمسلمين أن يتفقوا، فما استباح التتار أرضهم وأعراضهم في الطرق إلا لأنهم تفرقوا.

لا للضرائب الجديدة:

وكان السلطان «قطز» على عرش مصر، فجمع الأمراء والأعيان والعلماء

ليتشاوروا في أمر التهديد التتري، ورأى «قطز» أن الحرب تقتضي مالا كثيرا وخزانة الدولة خاوية، فلابد من فرض ضرائب جديدة على الرعية لتجهيز جيش قوي يصد زحف التتار. ووافق الأمراء المماليك على فرض ضرائب جديدة، لكن «العز بن عبدالسلام» قال: لا للضرائب الجديدة، فإذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم. وجاز ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والمزركشات، وأن تبيعوا مالكم من الحوائص «أحزمة الخيل» الذهبية والآلات الفضية ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه ويتساوى معهم العامة.. وأما أخذ الأموال من العامة مع إبقاء الأموال والآلات الفاخرة في أيدي الجند، فلا..

واقتنع السلطان بهذا الكلام، فكان الأمر كما قال الشيخ، ولم يقرر السلطان ضرائب جديدة، وبيعت الأشياء الثمينة التي يمتلكها الأمراء والجند المماليك وجَهِّز بثمنها جيشا ضخما قاده قطز وهزم التتار في عين جالوت.

عاش الشيخ قابضا على دينه لا يخاف في الله لومة لائم حتى بلغ الثالثة والثمانين من العمر فوافته المنية في خلافة الظاهر بيبرس، وشيعته مصر كلها برجالها وأطفالها ونسائها. وحمل الأمراء ومنهم السلطان نعش الشيخ [*].



(*) عبد الرحمن الشرقاوي، أئمة الفقه التسعة، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٠١هـ - ١٩٨١م. ص٣٣٧.



الـــــــــديروطي

توفي (٩٢١هـ=١٥١٥م)

يعطي الحاكم درساً في الجهاد والكرامة

لا يخفى على أحد حالة الهوان والضعف التي وصلت إليها الأمة العربية والإسلامية، وماحل بالمسلمين في هذا العصر من انكسارات وهزائم في معاركهم الحربية والسياسية والفكرية: ومهما قيل عن أسباب هذا الهوان، فإن هناك سببا أساسيا وجوهريا، وهو فقر المجتمعات الإسلامية وخلوها من علماء الدين والرجال الذين لا يخافون إلا الله ولا يهابون قول الحق، أولئك الرجال الذين يعلمون أن الحكم في الإسلام عقد بين متعاقدين، بين الحاكم من جهة وبين الرعية من جهة أخرى، وهو من قبيل التعاون على البر والتقوى.

فالحاكم -كما يراه الإسلام- ليس شخصا مقدسا حاكما بأمره، وليس وارثا للملك ولا مهيمناً على عقائد الناس وقلوبهم، إنه طرف في عقد ليقوم بأعمال الوكالة باسم المجموع.. فهو عقد موثق بالإيمان يجعل على الفريقين التزاما دقيقا يجب عليه تنفيذه والقيام بحقه، ويُلزم الحاكم بإقامة كتاب الله وسنة رسوله، ويلزم الأمة بالسمع والطاعة في المنشط والمكره ما لم يكن عصيانا لأمر الله ونهيه، فإن كان عصيانا فلا سمع ولا طاعة.

وقد نظم القرآن الكريم هذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الآيتين [٥٨, ٥٩ من سورة النساء]، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

نقد الحكام:

يقول الإمام «ابن تيمية»: أن الآية الأولى نزلت في ولاة الأمور -الحكام- عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، فإن خانوا الأمانة سلبت منهم الولاية - أي عزلوا من الحكم.

ونزلت الآية الثانية في الرعية، عليهم أن يؤدوا أمانة الطاعة، إلا أن يؤمروا

بمعصية، فإذا أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والفيصل الحكم والميزان القسط بين الحاكم والرعية، هو كتاب الله تعالى، وسنة رسوله الكريم، فإذا اختلف بين طرفي الأمانة، ردوا الخلاف إلى الكتاب والسنة ليفصلا بينهما.

وبناء على ذلك فإن من حق المحكومين نقد الحكام إذا أخطؤوا، ومناصحتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتاريخ دولة الإسلام في مجدها كان خير دليل على هذا العقد، فلم يغضب الحاكم العادل من مسائلة الرعية له فهو يؤمن أن هذا من حقهم بل ومن واجبهم، وتعتبر الأمة آثمة إن قصرت في هذا الحق، ولم يتغاف المحكومون عن شيء يرونه تقصير من قبل الحاكم.

وهذه الحادثة تؤكد دور العلماء في الرقابة على الحكام، حدثت في عهد السلطان قنصوة الغوري، طرفاها الشيخ «الديروطي» والسلطان الغوري.

والشيخ هو «شمس الدين الديروطي» من علماء الأزهر، واعظ زاهد، وكان جريئا في الحق، يتعفف عن عطاء السلطان، وكان يعيش من تجارته، توفي بدمياط سنة ٩٢١هـ، له كتاب القاموس في الفقه، وشرح منهاج النووي.

بين الديروطى والسلطان:

أما السلطان فهو «قنصوة بن عبد الله الطاهري الغوري»، سيف الدين الملقب باسم الملك الأشرف، سلطان مصر، بويع بالسلطنة بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٩٠٥هـ، وظل يحكم مصر حتى هزمه السلطان العثماني «سليم الأول» في موقعة مرج دابق، ومات سنة ٩٢٢هـ.

دخل «الشيخ الديروطي» في أحد الأيام مجلس السلطان الغوري، وبادر بإلقاء تحية الإسلام على السلطان، ولم يرد السلطان التحية، هذا الموقف أغضب «الشيخ

الديروطي » الذي تربى في مدرسة الإسلام، فقرر أن يلقن هذا السلطان المتعجرف الذي لم يرد التحية درسا في آداب الإسلام يكون عبرة له ولغيره. قال الديروطي للسلطان: إن لم ترد السلام، فسقت وعزلت.

فقال السلطان: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أضاف: يا شيخ ديروطي، لماذا تهاجمنا على ترك الجهاد، ومقاتلة الأعداء وليس لنا مراكب نجاهد المعتدين عليها؟

فقال الشيخ: هذه حجة واهية، فأنت لديك من المال الكثير، الذي يمكن أن تجهزها به، فلماذا لم تفعل؟ وطال بينهما النقاش، فقال الشيخ: لقد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك، وباعوك من يد إلي يد، ثم مَن الله عليك بالحرية والإسلام، ورقاك إلى أن صرت سلطانا علي الناس؟

وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجح فيه طبيب، ثم تموت، وتكفن، ويحفرون لك قبرا مظلما، ثم يدسون أنفك هذا في التراب، ثم تُبعث عريانا عطشانا جوعانا، ثم توقف بين يدي الحاكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ثم ينادي المنادي:

من كان له حق على الغوري فليحضر، فيحضر خلائق لا يعلم عددها إلا الله.

فتغير وجه السلطان من وقع هذا الكلام عليه وكتم غضبه وغيظه، ولم يجد أمامه من حيلة سوى أن يحاول إسكات الشيخ بالمال والهدايا، اعتقادا منه أن هذا الشيخ يشترى بالمال.

عرض عليه مبلغا من المال هو عشرة آلاف دينار يشتري بها سكوته وصمته على مخازيه، وسلبه حرية الشعب وأمواله، وجبنه عن مواجهة الأعداء.

ولكن هذا الشيخ الذي يجابه السلطان بكلمة حق، محال أن تخدعه عروض الدنيا، أو يغريه بريق الذهب، فردها عليه قائلا: أنا رجل ذو مال، ولا أحتاج إلى

مساعدة أحد، ولكن إن كنت أنت محتاجا لأجل الجهاد، ولأجل تجهيز الجيش للدفاع عن الإسلام، أقرضتك وصبرت عليك.

فبهت السلطان، ولم يدر بما يقول، وهكذا أعز الله الشيخ بالحق، وأذل السلطان المتكبر الذي قهره الديروطي بتقواه وتعففه.

ويغزو السلطان العثماني البلاد، ويستولى على مصر، ويذهب الغوري إلى قاع التاريخ غير مأسوف عليه، ويبقى الشيخ بورعه وزهده وتمسكه بالحق يجهر به دائما فى وجه كل سلطان، فهو لا يخاف إلا الله سبحانه وتعالى.

مكانة العلماء:

يدخل السلطان «سليم الأول» مزهوا بانتصاره إلى القاهرة، ذهب إلى القلعة مقر الحاكم، وجلس هناك مغرورا، طلب القائد المنتصر من أعيان الأمة وعلمائها وقوادها أن يأتوا إلى القلعة لتقديم فروض الطاعة والولاء.

هرع الكثيرون إليه يتزلفون، ينافقون، يقدمون الولاء والطاعة كما يفعلون مع أي حاكم، ولكن «الديروطي» لم يفعل فعلهم، فقد تربى في مدرسة القرآن، وتشرب روح الإسلام ونهل من ينابيع الإيمان الحق، امتنع عن تلبية طلب السلطان، أرسل إليه «سليم الأول» أحد قواده مع مجموعة من الجنود، علّ الشيخ يخاف ويأتي معهم، ولكن الرجل الرباني يرفض ويصر على الرفض، فالعلماء لا يذهبون إلى الحكام، وهم يؤتى إليهم ولا يأتون.

اندهش السلطان من موقف هذا الشيخ، الذي يتحدى أوامره، فقرر أن يذهب إليه ليرى مدى قوته، جاء سليم الأول وسط حاشيته وأركان حربه، وكأنه ذاهب إلى معركة حربية.

وصل إلى دار «الديروطي»، فلم يجد حراسًا أو أحدا في انتظاره، أعلموا الشيخ بوصوله، فلم يخرج إليه، ولم ترهبه أبهة الملك وجلال السلطان، دخل سليم عليه داره، فسلم ورد الشيخ التحية، وسأله السلطان: لما لم تأت إلينا يا ديروطي؟

بهدوء يقول الرجل المؤمن: لم نتعود الخروج إلى أحد، بعد صمت يقول سليم الأول: ولكنني أنا السلطان، فيقول الشيخ: إنما الملك لله سبحانه وتعالى ونحن العلماء ورثة الأنبياء، يأتي إلينا الحاكم ولا نذهب إليه!

ويطول الصمت ويشعر السلطان سليم الأول بضآلته أمام هذا الشيخ الذي ظل ثابتا ساكنا لم يرهبه شيء.

فيقول السلطان: يا سيدي.. ألك حاجة نقضيها لك، قبل أن نذهب إلى تركيا؟

ويرد الديروطي بكرامة وعزة وإباء: لسنا في حاجة إلا إلى الله سبحانه وتعالى.

لقد أعزه الإيمان، وأمدته الثقة بالله بالقوة والشجاعة، فلم يفكر فيما يمكن أن يتعرض له من بطش هذا القائد المنتشي بالنصر.

فلا يملك السلطان إلا أن يسلم ويذهب إلي دار الحكم ومن خلفه حاشيته لا يصدقون أن يكون في مصر مثل هذا العالم الذي تحدي السلطان سليم الأول قاهر الجيوش والممالك.

وقبل أن يعود سليم الأول إلى تركيا يوصي واليه علي مصر أن يذهب إلي «الشيخ الديروطي» من حين لآخر يتفقد شؤونه ويحقق مطالبه.

وفي إحدى هذه الزيارات، وكان الوالي يستعد لزيارة السلطان في تركيا، يذهب الوالي إلى دار العالم الجليل ويقول له: إننا أزمعنا الرحيل إلى تركيا، ونحن مقربون إلى السلطان، فهل من حاجة نقضيها لك من سلطان البلاد؟.

ورغم تقدم سنه، فلم يزل الديروطي على تقاه وورعه وتمسكه بالحق يقول: إننا مقربون إلى الله أكثر فهل لك أنت حاجة!!

ما أجمل القول، وما أعظم الحجة..





الشيخ الدرديري

(١١٢٧-١٢٠١هـ=١٧١٥-١٧٨٦م)

صوت الحق ونصير المظلومين

على مدار تاريخنا العربي والإسلامي، كان علماء الدين ومشايخ الأزهر هم رموز الأمة المدافعين عن حريتها والزائدين عن حقوق الناس، كان هؤلاء المشايخ ملاذ أبناء الشعب كلما تجبر الولاة، واشتدت قسوة الحكام وتعنتوا وبطشوا.

يسجل التاريخ بمداد من نور مواقف بطولية رائعة ومشرفة لعلماء الدين والمشايخ الذين قاوموا كل مستعمر وحاكم مستبد، وأعادوا الحقوق إلى أصحابها. ولا عجب فالعلماء ورثة الأنبياء، وهم ملح الأمة الذي يصلح كل فساد.

هؤلاء العلماء كانوا أطوع الناس لله، وأحرصهم على رضاه سبحانه وتعالى، وأنصحهم للراعي والرعية، ترى فيهم القدوة الطيبة، والخلق الفاضل، والسلوك القويم، والتمسك بهدى القرآن، وتعاليم رسولهم الكريم ﷺ.

في مختلف العصور قاموا بالنصيحة، وحاربوا ووقفوا إلى جانب الحق، لا يخشون إلا الله، ولا يرجون سوى وجه ربهم القدير. بأمثال هؤلاء العلماء والمشايخ صلُح حال المسلمين، وسادوا العالم وكانت دولتهم عزيزة قوية مُهابة، ولن يعود للعرب والمسلمين مجدهم إلا إذا وُجِدَ من جديد في أمتنا أمثال هؤلاء الرجال.

تربى معظم هؤلاء الرجال الذين يفخر بهم التاريخ في رحاب الأزهر الشريف، الذي كان منذ إنشائه قلعة لحماية الدين، يلجأ إليها عامة الشعب وخاصته، حيث كانوا يعتبرون علماء الأزهر حكامهم الروحيين، وأصحاب السلطان والحق عليهم، حتى لقد اعتاد الناس إذا حل بهم مكروه، أو وقع عليهم ظلم، هرعوا إلى الأزهر يستنجدون بعلمائه.

ضد الطغيان:

ومن هؤلاء العلماء الذين وقفوا إلى جانب الناس ضد طغيان واستبداد الولاة «الشيخ أحمد الدرديرى». وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي المالكي الأزهري الخلوتي، الشهير بالدردير، المولود ببني عدي مركز منفلوط، محافظة أسيوط، سنة ١١٢٧هـ- ١٧١٥م. وفد على الجامع الأزهر وهو شاب بعد أن جود

القرآن الكريم، فأخذ عن كثير من الشيوخ، وبخاصة عن الشيخين علي الصعيدى والحفني، وتأثر بالحفني روحيا، فتصوف على يديه، وتلقى منه الذكر، وطريق الخلوتية، وصار من أكبر خلفائه. وقد أفتى في حياة شيوخه، مع كمال الصيانة والزهد والعفة والديانة.

وكان يُضرب به المثل في عفته، كما كان مهذب النفس كريم الأخلاق، ومما يروى عنه في ذلك أن «مولاي محمد» سلطان المغرب كان يرسل كل عام بعض الهدايا والأموال إلى علماء القاهرة. وكان ابن هذا السلطان قد وفد إلى هذه المدينة وهو في طريقه إلى مكة المكرمة للحج، فتخلف بها فترة، ونفد ما معه من المال، وتصادف في ذلك الوقت أن حضر رسول سلطان المغرب بالعطايا والأموال إلى العلماء، فرفض «الشيخ الدرديرى» أن يتسلم نصيبه منها، وقال: والله هذا لا يجوز، وكيف نأخذ مال الرجل، ونحن أجانب، وولده يتلظى من العدم؟! هو أولى مني وأحق فأعطوه نصيبي.

ولما توفي «الشيخ علي الصعيدي»، تم اختيار تلميذه «أحمد الدرديرى» شيخا على المالكية، ومفتيا وناظرا على وقف الصعايدة، وشيخا على رواقهم بالأزهر، بل شيخا على أهل مصر بأسرها في وقته. فقد كان رحمه الله يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويصدع بالحق، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله في السعي على الخير يد بيضاء.

وللشيخ الدرديرى عدة مؤلفات ومن بينها:

أقرب المسالك لمذهب مالك.

تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان.

رسالة في المعاني والبيان.

رسالة في طريقة حفص في القراءات.

رسالة في متشابهات القرآن.

الشيخ الشاعر:

ولا يزال خلفاؤه من السادة السباعية الخلوتية يترنمون في أذكارهم حتى اليوم بقصيدته المعروفة باسم الخريدة السنية في التوحيد، ومطلعها: حمدا لمولانا وشكرا لربنا، وللشيخ الدرديرى شعرا كثير أغلبه في التصوف والعقائد، ومن ذلك أرجوزته المسماة المزيدة البهية.

وفي السادس من ربيع الأول سنة ١٢٠١هـ- ٢٧ ديسمبر ١٧٨٦م. توفي الإمام العالم العلامة أوحد وقته. في الفنون العقلية والنقلية، شيخ الإسلام «الشيخ الدرديرى» بعد حياة حافلة بمجالس التدريس بالجامع الأزهر، وتقوى الله ومجاهدة النفس والدفاع عن الحق والعمل على نصرة الشعب ضد كل ظالم.

ومن مواقف هذا الشيخ الجليل دفاعا عن الحق ضد الظلم والاستبداد أنه عندما اقتسم الطاغيتان إبراهيم ومراد بك السلطة في مصر، توالت حوادث الاغتصاب والسلب والنهب وأصبح الناس مهددين في أموالهم وأرواحهم، ولم يجدوا من يدافع عنهم وعن حقوقهم غير مشايخ وعلماء الأزهر.

ملاذ الشعب:

في هذه الأيام العصيبة، نشب خلاف بين أحد البكوات من المماليك ورجل من عامة الشعب، وقف من الأمير موقف الخصم العنيد، فاستمسك بحقه وأبى أن يفرط في شيء منه. ولجأ إلى القضاء(*).

ثار المملوك المدلل، وأرغى وأزبد، وقد أغضبه أن يقف منه موقف الخصم أحد العامة، كان المملوك يعتقد أنه مادام صاحب الجاه والقوة والمركز الخطير، فالحق في جانبه والشريعة في صفه وإن كان على غير الحق. وقالت الشريعة التي لا تحابي كلمتها في النزاع، وأعطت الحق للفلاح، وأراد الرجل المظلوم أن ينفذ حكم

(*) محمد عبد الله ماضى، الأزهر في ١٢ عاما. ص٢١.

الشريعة، ولكن هيبة الأمير وقفت حائلا دونه، وحار الرجل في أمره، وأصبح الحكم معلقا، وكأنه لم يصدر.

لجأ الرجل إلى الأزهر ملاذ الشعب، ومناط آماله، مستنجدا بالعلماء، طالبا الانتصاف له، ولكافة الشعب، الذي إن استنام رجال الدين عن حقه ونصرته، ضاعت هيبة الشريعة أمام أمير من الأمراء وتعطل حكمها.

وطالب العلماء الأزهريون، وعلى رأسهم الدردير بأن تأخذ العدالة مجراها، وأن على الأمير أن يحني رأسه لها صاغرا معتذرا.

وأبى الأمير المعتز بمكانته، وظن أن رفضه سيجعل العلماء يتراجعون عن الاستمساك بمطالبهم، ولكنهم ازدادوا بها استمساكا وأبوا إلا أن يصل الحق إلى صاحبه رجل الشعب، ولو كان في ذلك هزيمة مملوك خطير.

وتطور الأمر، واهتز الأزهر، وخرج العلماء إلى ديوان الوالي يطالبون بالمساواة التي فرضتها الشريعة وأقرها القانون.

وعلا صوت الشعب مؤيدا علمائه وأغلق الناس حوانيتهم، وتوقف دولاب العمل، وتعطلت حركة البيع والشراء.

وسارت الأحوال في اتجاه بالغ الخطورة، وفطن القوم من عقلاء المماليك، فأرغموا صاحبهم على الخضوع للشريعة، ورضخ المملوك الأمير وسلم بأحقية خصمه. ولكن «الشيخ الدرديري» لم يكتف بذلك، بل طلب ومعه إخوانه من علماء الأزهر أن تحرر بما حدث وثيقة رسمية تكون بمثابة صلح وتراض وإقرار بما تم الاتفاق عليه، يستند إليه كل صاحب حق، وتكون مستندا دامغاً يلزم الطغاة بعد ذلك بالاعتراف بحقوق الغير، ولو كانوا من عامة الشعب ضد الأمراء الطغاة.

مع الحق:

ومرة أخرى يعلو صوت الشيخ الدرديرى مدويا مؤيدا للحق ضد الطغاة، فقد تجاسر «حسين بشفت» أحد رجال إبراهيم بك، على فرض ضرائب جديدة على حي

الحسينية، فلما امتنع الأهالي ذهب إليهم على رأس جنده لإرغامهم على التسديد.

وهجم بجنده على بيت «أحمد سالم الجزار» نقيب الطريقة البيومية وشيخ دراويشها، فنهبوا الدار وما فيها من متاع وفرش وحلي، وكل ما وجدوه أمامهم، وثار أهل الحي وتجمعوا سائرين إلى الأزهر مسلحين بالهراوات والسكاكين، وصعدوا إلى المنارات يدقون منها الطبول، وكأنهم يعلنون الحرب ويحفزون الهمم للقتال.

ووجد رجال الأزهر أنهم أمام جريمة جديدة من جرائم المماليك ضد الشعب، وارتفع صوت «الشيخ الدرديرى» فأصغى إليه الجميع وهو ينصحهم بالتكتل والتجمع في الغد من شتى البقاع ليهجموا بأسلحتهم علي بيوت المماليك، فينهبوها بدورهم جزاء وفاقا، فإن انتصروا أرهبوا المماليك اللصوص، وإن ماتوا كانوا في الشهداء.

وتسامع عقلاء بكوات المماليك بما حدث، وروعهم أمر التكتل الشعبي المرتقب الذي يمكن أن يدمرهم جميعا لو تم، فهرعوا إلى «إبراهيم بك» الذي طلب من حسين بشفت أن يمتنع عن ذلك، فقد وجد أن الحكمة تقتضي العمل على تهدئة خواطر العامة، قبل أن يستفحل الأمر.

وأرسل إبراهيم عند المساء كتخداه محمد الحلفي وسليم أغا إلى حي الغورية حيث قابلا «الشيخ الدرديرى» واتفقا معه بوصفه زعيما دينيا لا يعصي الشعب له أمرا أن يعمل علي تهدئة الخواطر الثائرة ويُطفئ نار الفتنة الموشكة علي الهبوب، في مقابل تعهدهما بإرضاء أهالي حي الحسينية بصفة عامة و«الشيخ سالم الجزار» بصفة خاصة فيرد إليه كل ما سُلب منه، وفوقه الاعتذار الذي يرضيه. ومبالغة من إبراهيم في إظهار حسن نيته أصدر أمرا بعزل حسين بشفت من منصبه.

مكانة كبيرة:

وكان أمراء المماليك يعرفون «للشيخ الدرديرى» مكانته بين أفراد الشعب،

ولذلك كانوا يقصدونه للاستعانة به كلما خافوا ثورة الشعب ضدهم، ومن ذلك ما حدث في الثالث من شوال سنة ١٢٠٠هـ، عندما خشي المماليك من قيام الشعب ضدهم ومساعدته للحملة البحرية التي أرسلها السلطان العثماني للضرب على أيدي المماليك الذين عاثوا في الأرض فسادا، إذ ركب إبراهيم بك الكبير وذهب إلى الشيخ البكري وعيد عليه، ثم إلى الشيخ العروسي، والشيخ الدرديرى وصار يتودد إليهم، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن الشغب أو أى حركة في مثل هذا الوقت، لأنه كان يخاف ذلك جدا.

ولأن «الشيخ الدرديري» كانت له مكانة كبيرة عند أبناء الشعب المصري لوقوفه إلى جانبهم ضد جور وتعسف الحكام، بلغ من حبهم لهذا الشيخ أن أقاموا له بعد وفاته مقاما يُزار في حي الأزهر كأحد الأولياء إلى الآن، ويقيمون له كل عام مولد يحتفلون بذكراه فيه.

وهذه هي عادة وطريقة المصريين في تحويل من يقود صراعهم ومن يدافع ويتبنى قضاياهم، إلى ولي بعد وفاته وتخليده.





الشيخ الشرقاوي
(١١٥٠-١٢٢٧هـ=١٨١٢م)

يقاوم طغيان المماليك ويعزل الوالي

تاريخ الأزهر الشريف هو صفوة تاريخ مصر، وتاريخ مصر هو صفوة تاريخ الأمة العربية والشعوب الإسلامية. مصر هي التي صدت جحافل التتار بعد أن اجتاحت جيوشهم عاصمة الخلافة في بغداد، وهي من قبل التي أعادت بيت المقدس إلى المسلمين بقيادة صلاح الدين الذي دمر الصليبيين في حطين.

وفي كل هذه المعارك كان لعلماء الأزهر الشريف دور بارز، لم يكتفوا بالقيادة الروحية للأمة، بل كانوا يقودون الشعب في كل معاركه.

كانوا يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا، ويزلزلون عروشهم إذا جنحوا للظلم، وكان المصريون يفزعون إلى علماء الأزهر في أوقات المحن للدفاع عن حقوقهم والوقوف في وجه استبداد الحكام وطغيانهم.

ومن العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر، وكان لهم دورهم المؤثر في الحركة الوطنية وإعلاء كلمة الحق، والوقوف إلى جانب أبناء الشعب ضد جور وظلم الحكام الشيخ عبدالله الشرقاوي، الإمام الثاني عشر للأزهر الشريف. وهو «عبدالله ابن حجازي بن إبراهيم الشافعي»، وُلد بقرية الطويلة من ضواحي بلبيس محافظة الشرقية، سنة ١١٥٠هـ، ومن هنا أطلق عليه لقب الشرقاوي.

حفظ القرآن الكريم في قرية القرين، ثم رحل إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، حيث درس على مشاهير علمائه مثل الشهاب الملوي،.. الشهاب الصعيدي، الشيخ الجوهري، والإمام الدمنهوري.

ميل إلى التصوف:

ومال الشرقاوي بفطرته إلى التصوف، واتصل بالصوفي الشهير في ذلك الوقت «الشيخ الكردي» فلازمه وأخذ عنه. وعاش في القاهرة تتقلب به الأيام بين مرارة الفقر وحلاوة اليسر، وعاش مغمورا فترة طويلة، ثم رفعته الأقدار إلى مصاف العلماء الكبار، لما عُرف عنه من جد واجتهاد.

وقد اشتهر بالزهد والتقشف في مأكله وملبسه، حتى بعد أن أقبلت عليه الدنيا

وتولى مشيخة الأزهر، بعد وفاة الشيخ العروسي سنة ١٢١٨هـ. وعُرف بعمامته الكبيرة. وطوال فترة السنوات التسع التي قضاها شيخا للأزهر، شهدت مصر أحداثا هامة، كان للشيخ دوره المؤثر فيها.

كان الشعب كلما تعرض لظلم لا يستطيع دفعه، يلجأ إلى علماء الأزهر، فهم أصحاب السلطان الروحي، وهم وحدهم القادرون على مواجهة استبداد الحكام الطغاة. ومن المواقف التي رفعت الإمام الشرقاوي إلى مرتبة الزعامة الشعبية مقاومته لطغيان محمد بك الألفي.

فقد حضر بعض أهالي بلبيس إلى الشيخ الإمام الشرقاوي، وشكوا إليه من طغيان محمد بك الألفي، الذي أرسل أتباعه إليهم، يطلبون ما يطلبون من أموال.

غضب الشيخ لغضبهم وما ينزل بهم من ظلم، ووعدهم بالتصدي لهذا الطاغية، فحضر إلى الأزهر الشريف ودعا كبار العلماء لعقد اجتماع في الأزهر لتدبر الأمر، واستقر رأي العلماء على خوض المعركة ضد أمراء المماليك وأفزع اجتماع المشايخ وغضبهم مراد بك وإبراهيم بك والوالي، فحاولوا تدارك الأمر، ودعوا العلماء الغاضبين إلى منزل إبراهيم بك، فحضر من العلماء الشيخ الشرقاوى والشيخ السادات، والشيخ البكري، والشيخ الأمير والسيد عمر مكرم.

إضراب عام:

وقد سبق ذلك الاجتماع إغلاق الأزهر، وأمر الشرقاوي الناس بإغلاق الحوانيت فيما يشبه الإضراب العام، بلغة هذه الأيام.

في الاجتماع سأل إبراهيم بك الشيخ الشرقاوي: لماذا أغلقت المسجد وأمرت الناس بإغلاق الحوانيت؟.

فقال الشيخ: نريد العدل، ورفع الظلم وإقامة الشرع وإبطال المكوس «الضرائب»، والذي دفعنا إلى ذلك ظلم الألفي وتعديه هو ورجاله على أهالي بلبيس.

ودافع بقية العلماء عن حقوق الشعب دفاعا حميدا مجيدا، وأصروا على إجابة مطالبهم.

فقال إبراهيم بك: لا يمكن الاستجابة لهذا كله، فإننا إن فعلنا هذا ضاقت علينا المعايش والنفقات. فقالوا له: ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس، والأمير يكون أميرا بالإعطاء، لا بأخذ الأموال من الناس، ووعدهم إبراهيم ومراد بك بالنظر في الأمر، ولم ينفذا شيئا.

وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر، واجتمعت حولهم جماهير الشعب وباتوا بالأزهر، مزمعين على الثورة. ففزع الوالي والأميرين، واستدعوا المشايخ مرة أخرى، وتمسك العلماء برأيهم وأصروا على تنفيذ مطالب الشعب. فوافق الأمراء مذعنين.

وهنا صمم «الشيخ الشرقاوي» أن تكون الاستجابة كتابة يوقع عليها أمراء المماليك حتى لا يعودوا إلى فعلتهم مرة أخرى. وتم تحرير الوثيقة التي عُرفت بالشرطة وكان من بنودها:

* لا تفرض ضريبة جديدة إلا إذا أقرها الشعب.

* أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم.. أي ينفذوها.

* ألا تمتد يد ذوي السلطان إلى أفراد الشعب إلا بالحق والشرع.

وقد وقع الوالي على هذه الوثيقة، ثم ختمها مراد بك، وكانت هذه الوثيقة أشبه ما تكون بإعلان حقوق الإنسان، وقد هلل الشعب لهذا الظفر، وهتف من الأعماق: لا مظالم ولا حوادث - اعتداءات على الناس - ولا مكوس - ضرائب - وكأنهم بذلك يقولون أن الأمة مصدر السلطات، والعلماء حراس الأمة[*].

(*) سنية قراعة، تاريخ الأزهر، مكتب الصحافة الدولى، ١٩٨٦، ص٢١٢.

عضو الديوان:

ولما أنشأ نابليون بعد احتلاله مصر، الديوان الوطنى ضم إليه عشرة من العلماء على رأسهم «الشيخ الشرقاوي»، وأمر نابليون أن تؤدى للعلماء التحية العسكرية إجلالاً لهم، وكان يستقبلهم عند المقر الخارجي لقيادته، وخصص لكل منهم جوادا ككبار رجال الدولة، وشارك في الأعياد الدينية، وأمر جنوده بإطلاق المدافع في هذه المناسبات.

لكن «الشيخ الشرقاوي» بحسه الوطني وفطرته السليمة أدرك أن ما يفعله نابليون مجرد مظاهر لتأليف العلماء واستمالتهم نحوه، ولم ير فى نابليون إلا غازيا معتديا، لكنه رأى مهادنته حتى تنتظم صفوف الشعب ويصبح قادرا على الثورة والانقضاض على المحتل.

واستغل الشيخ علاقته الطيبة بالفرنسيين، فكان يشفع للأهالي في رد المظالم، ومنع جنود الحملة من العبث والخروج على التقاليد الإسلامية. وكان نابليون يلبي طلباته إلى أن أحس واكتشف عداوة الشرقاوي للحملة، فقبض عليه وسجنه في القلعة مع زعماء الجهاد، لكنه سرعان ما أفرج عنه لمكانته وخوفا من أن يؤدي استمرار اعتقاله إلى زيادة الغليان في صفوف الشعب.

وكان نابليون ينصح رجاله، ويقول لهم: إذا كسبتم ثقة العلماء، وخاصة هذا الشيخ -يقصد الشرقاوي- فستكسبون الرأي العام في مصر كلها. لأنه كان يعرف قوة سلطان العلماء الروحي لدي الشعب. ومكانة الأزهر في نفوسهم.

سعة أفق:

ولم يكن «الشيخ الشرقاوي»من العلماء الجامدين أعداء كل جديد، وإنما كان متفتح الذهن واسع الأفق، تنبه إلى المدنية الحديثة والعلوم المتطورة التي جاءت بها الحملة الفرنسية، وكان يقارنها بحالة التخلف الذي كانت عليه مصر وكل الولايات الخاضعة للحكم العثماني.

ولما علم نابليون أن «الشيخ الشرقاوي» يتلقى رسائل سرية من الخليفة العثماني، أثر ذلك في نفسه، ولكنه لم يستطع إثبات ذلك ولا إلى وسيلة تسللها إلى البلاد، فلم يفعل للشيخ شيئا. إلى أن غادر نابليون مصر، وهو يتوجس من «الشرقاوي» خيفة فوراء هدوء هذا الشيخ ومهادنته تكمن بوادر ثورة وأشياء لا يمكن التنبأ بكنهها.

وعندما قُتل كليبر على يد الطالب الأزهرى «سليمان الحلبي»، قُبض على «الشيخ الشرقاوي» و«الشيخ العريشي».. بوصفهما المحرضان على عملية الاغتيال، وأنهما ساعدا «الحلبي» وحفزاه لهذه العملية. ولكن قادة الحملة سرعان ما أفرجوا عن الشيخين خوفا من هياج الشعب، في مرحلة كانوا ينشدون فيها تهدئة الأهالي.

التغيير من أجل الأفضل:

وبعد أن خرجت الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١م، استمر دور الشيخ «عبدالله الشرقاوي» في تزكية النفوس ودفعها للثورة والتغيير من أجل الأفضل. بعد رحيل الحملة عانت البلاد من ظلم وطغيان الفرق الأجنبية والقوى المتعددة سواء العسكر العثمانيين وفرق الإنكشارية وفرقة الأرناؤود، وفريق الدلاة، وهم الأكراد الذين استجلبهم «خورشيد باشا» لضرب الفرق الأخرى، وأخذوا جميعا ينهبون ويستبيحون الحرمات، فضج الناس بالشكوى، ولجؤوا «للشيخ الشرقاوي»، فقاد مجموعة العلماء وآلاف المواطنين وذهب إلى الوالي، فكتب إلى رؤساء الفرق للكف عن النهب والسلب، لكنهم لم يسمعوا إليه، فأعلن العلماء وعلى رأسهم «الشيخ الشرقاوي» عزل خورشيد وتولية «محمد علي»، ورفض خورشيد العزل، لكن السلطان العثماني أقر ما فعله العلماء، وأكد أن موافقته جاءت تلبية لمطالب العلماء والرعية. فكانت هذه فاتحة للشعب ليقرر مصيره وليختار زعامته.

وبينما كان محمد علي يطارد المماليك في الصعيد، جاءت حملة «فريزر ١٨٠٧م» واحتلت القوات الإنجليزية الإسكندرية، وزحفت إلى رشيد، فهب العلماء وعلى رأسهم الشيخ الشرقاوي يحمسون الناس على الجهاد والمقاومة، وانتصر الشعب

ورحل الإنجليز بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. فتأكدت زعامة الشرقاوي وعمر مكرم للشعب، واضطر الوالي الجديد محمد علي إلى مهادنتهما.

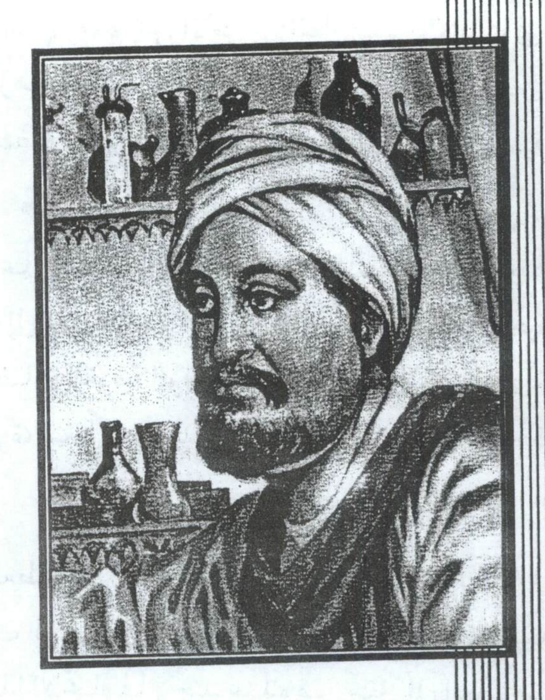
خاتمة عهد:

ومات «الشرقاوي» بعد حياة حافلة بالجهاد والثورات سنة ١٢٢٧هـ (١٨١٢م). وكان موته خاتمة عهد، وبداية عهد جديد، عهد تخلصت فيه مصر من أدران المفاسد والمظالم واستطاعت بقوة شعبها وشدة بأسه، وعزة تماسكه في فرض سلطانها، وأن تسدل على الماضي ستارا داكنا، وأن تفتح يديها مرحبة لتستقبل عهد جديد.

وترك الشيخ الشرقاوي - رحمه الله - كثيرا من الرسائل والكتب القيمة منها:

* التحفة البهية في الطبقات الشافعية.
* العقائد المشرقية في التوحيد.
* الجواهر السنية على العقائد المشرقية.
* تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين.
* شرح على حكم ابن عطاء الله السكندري.
* ربيع الفؤاد في آداب الطريق وترتيب الأوراد.





حسن العطار

(١٧٧٦-١٨٣٥م=١١٨٠-١٢٥٠هـ)

الشيخ العالم

فى الوقت الذى خيم فيه الظلام والجهل والضعف والتأخر على بلاد المسلمين قرب نهايات الخلافة العثمانية، لم يخل الأمر من نقطة ضوء، تمثلت فى بعض العلماء المسلمين من أبناء الأزهر الشريف، الذين كانوا فى طليعة العاملين على التجديد والتحديث وبعث النهضة الفكرية، والأخذ بأسباب الحضارة والمدنية الحديثة.

ومن هؤلاء العلماء «الشيخ حسن العطار»، الذى يُعد بحق من أعمدة المدرسة الثورية التى ثارت على أسس الحياة السائدة فى المجتمع المصرى فى بداية القرن التاسع عشر، ودعت إلى تغييرها على الأسس الروحية والدينية الرحبة للإسلام، مع الأخذ بمنجزات الحضارة الغربية الوافدة، وإبراز قيمة الإنسان فى الحياة، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، سعياً للتجديد فى فكرنا الحديث، وبنياننا الحضارى.

مغربى مصرى:

والشيخ «حسن العطار» من مواليد القاهرة سنة ١٧٧٦م-١١٨٠هـ. وترجع أصوله إلى بلاد المغرب العربى، وكان والده عطاراً وله إلمام بالعديد من العلوم، وشجع ابنه على هذا الاتجاه لما وجد عنده من ميل إلى العلوم، وساعده على الالتحاق بالأزهر، حيث زامل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى وإسماعيل الخشاب فى حلقات الدراسة، فقرؤوا معاً على الشيخ محمد الصبان، وعلى الشيخ مرتضى الزبيدى والشيخ محمد الأمير النحو وفقه اللغة. ونشأت بينهم صداقة حميمة على الرغم من تباين اتجاهاتهم وتكويناتهم الفكرية. وكانوا جميعاً فيما بعد من أبرز الدعاة وأكبر الرواد فى الدعوة إلى النهضة الفكرية الحديثة والمنادين بضرورة الأخذ بالعلوم العقلية والوضعية.

الثورة على القديم:

وهذا الميل إلى العلم والموضوعية والعقلانية فى التفكير، دفعه إلى الثورة على القديم، وعلى ثقافة عصره التقليدية الجامدة، ويرفض مناهج مدارس الشرح على المتون والحواشى والتقارير، والنقل من كتب السابقين.

وفى هذا يقول: «فإن قصارى جهدنا النقل عنهم، بدون أن نخترع شيئاً من عند أنفسنا، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة، بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة نكررها طوال العمر، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها، حتى كأن العلم انحصر فى هذه الكتب».

وقد وصل «الشيخ العطار» إلى هذه الرؤية بعد أن درس العلوم العصرية من طبيعة وهندسة ومنطق وفلك وعلوم ورياضة.

ولمّا دخل الفرنسيون مصر، فوجئ الأزهرى الشاب بمجيء الحملة فخاف وفر فيمن فر من العلماء إلى الشام، فلما هدأت الأمور عاد إلى مصر، ولم يقصر فى الاتصال بعلمائهم كما قصر أهل الأزهر، ولم يقعد عن البحث فى سر نهضتهم وقوتهم كما قعد أهل الأزهر، فعرف من سر نهضتهم ما لم يعرفوه، واطلع على بعض علومهم، وشاهد بعض ابتكاراتهم العلمية والصناعية وأبدى إعجابه به، وتمنى أن تكون لبلاده مثل هذه النهضة.

وكان يداوم على الذهاب إلى المجمع العلمى المصرى، حيث يستمع إلى ما يُلقى فيه من محاضرات، ويطلع فى مكتبته على ألوان مختلفة من العلوم والآداب والفنون العصرية.

إضافة إلى كثرة أسفاره، فقد أخذ نفسه بالسياحة فى الأقطار الإسلامية من الشام وغيرها، فلقى كثيراً من العلماء فى تلك السياحة، ونقّب فيها عن كثير من كتب المتقدمين التى أهملها علماء عصره، فاستفاد كثيراً من سياحته، وارتفع بها عن أهل الأزهر بعد أن عاد إليهم. وكان يؤمن بأهمية الاطلاع والنظر فى كتب غير أهل الإسلام.

فى حاشيته على شرح جمع الجوامع فى أصول الفقه، يستطرد فى بعض المواضع إلى لوم أهل الأزهر على إعراضهم عن كتب المتقدمين فيقول: «إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية، لهم اطلاع عظيم على

غيرها من العلوم، والكتب التى أُلِّفَتْ فيها، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع. وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية، ثم هم مع ذلك ما أخلُّوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار، ولطائف المحاضرات، ومن نظر فى ذلك وفيما انتهى إليه الحال فى زمن وقعنا فيه، علم أننا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا».

القرب من الوالى:

وعندما تولى «محمد على باشا» عرش مصر، قرب إليه الشيخ «حسن العطار»، الذى تأثر بما كان يبذله من تلك الجهود الجبارة فى النهوض بمصر فى العلم والصناعة والزراعة والتجارة. وكان الشيخ أثيراً ومقرباً من الوالى الجديد الذى كان يقدر حبه للعلوم والمعارف، ويقدر له مكانته بين علماء الأزهر، فقد كان يجمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، ويجيد عدة لغات منها التركية والفرنسية والألبانية. إضافة إلى كونه شاعراً مجيداً وكاتباً عميقاً، وكان يدعو إلى إدخال العلوم الحديثة وجلاء التراث العربى وتنقيته مما لحق به من عوامل التخلف. لكل هذه الأسباب اختاره «محمد على» ليتولى منصب مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م).

وأثناء توليه مشيخة الأزهر كان يُحزن نفسه غفلة أهل الأزهر عن الأخذ بأسباب النهوض، وركودهم عن مسايرة ركب الإصلاح، فكان يرى الدنيا تسير بجوارهم وهم ساكنون، ويرى الأحوال تتغير فى مصر وهم لا يتغيرون.

وكان شعار الشيخ العطار: «أن بلادنا يجب أن تتغير أحوالها وتتجدد بها المعارف» وانطلاقاً من هذا الشعار وجه تلميذه «رفاعة الطهطاوى» عندما كان مسافراً مشرفًا على البعثة العلمية التى أرسلها محمد على إلى فرنسا، لتسجيل كل ما تقع عليه عينه فى فرنسا، وأن يستجلب معه كل ما تقع عليه يده من دفاتر وكتب، وهو الذى شجعه على الترجمة، وتأسيس مدرسة الألسن».

وقد اهتم «الشيخ العطار» اهتماماً كبيراً بعلم الجغرافيا واهتم بالخرائط، واستفاد من خبرة علماء الحملة الفرنسية، وانكب على عيون الكتب المهجورة وبسطها لطلابه، وبدأ أول خطوة فى فن الفهرسة؛ بحيث يعود الطلاب إلى المراجع القديمة بسهولة.

الاهتمام بالعلوم:

وكان الشيخ موفور النشاط دائب الحركة، يدرس ويصنف المؤلفات، ويشرح الكتب، ودفع طلابه إلى الخروج عن التراكيب اللغوية العقيمة، وتحرير الكتابة من قيود الصنعة التى شاعت فى عصور الانحطاط.

ورغم ميل «محمد على» إلى الطغيان والاستبداد، إلا أنه كان يجلُ «الشيخ العطار» ويستشيره، وأطلق يده فى النهضة العلمية، ففتح الأبواب للعلوم الحديثة، وأشرف على إنشاء المدارس المتعددة. وكان توليه منصب مشيخة الأزهر، إيذانا بتصاعد قوة تيار التقدم والتطور المستمر فى مواجهة قوى الجمود والتخلف فى الحياة العامة المصرية، وإن كان البعض يقول أن «الشيخ العطار» كان بإمكانه أن يحدث ثورة فكرية ضخمة، ولكنه لم يكن على شجاعة الحاكم «محمد على» الذى شمر عن ساعده عندما أدرك حاجة مصر إلى الإصلاح، وأخذ يعمل فيه بكل حزم وعزم. فى الوقت الذى وقف فيه «الشيخ حسن العطار» من إصلاح الأزهر موقفاً ضعيفاً، واكتفى بذلك الصوت الخافت الذى أرسله فى مواضع يصعب العثور عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع، وأنه كان يجب عليه أن يجهر بهذا الصوت بين جنبات الأزهر.

رائد نهضة:

ولكن هذا الرأى لا يقلل أبداً من جهد هذا الشيخ الذى مهد الطريق إلى نهضة فكرية جديدة، فمن عباءة هذا الرائد العظيم خرج الطهطاوى، ليحدث ثورته الفكرية من خلال كتابى «تخليص الإبريز» و«مناهج الألباب» ودوره فى إرساء معالم مدرسة الفكر الحديث من أجل العلم والديمقراطية وسيادة العقل.

كما أنه كان مجدداً فى الشعر العربى، وفتح الطريق أمام شعراء النهضة كالبارودى

وشوقى وحافظ[*].

وقد عُرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة، كما عُرف بأسلوبه الأدبى وعباراته الإنشائية الأنيقة، وله أشعار رقيقة، أما ميله إلى الطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية، فيدل عليه كتبه ورسائله فى كيفية عمل الإسطرلاب، والطب والتشريح، وأشكال التأسيس فى علم الهندسة، بالإضافة إلى إتقانه رسم المزاول الليلية والنهارية بيديه.

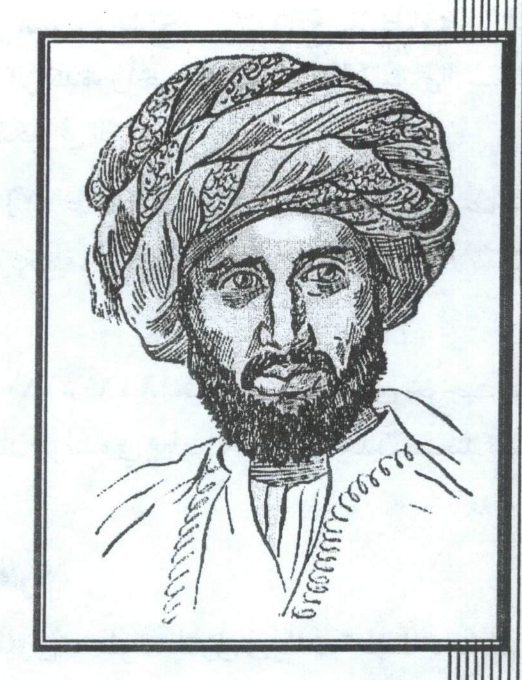
وظل الشيخ حسن العطار على ما كان عليه من نشاط وجمع بين التدريس بالأزهر ومهام المشيخة إلى أن توفى سنة ١٨٣٥م (١٢٥٠هـ).

ثروة علمية:

وقد ترك فضيلة الإمام الشيخ حسن العطار ثروة علمية كبيرة تربو عن العشرين مصنفاً منها: حاشية العطار على الجواهر المنتظمات فى عقود المقولات، حاشية العطار على التهذيب للإمام الخضيبى، حاشية العطار على شرح نموذجى فى المنطق، حاشية العطار على شرح العصام على الرسالة، حاشية العطار على كتاب نيل العادات فى علم المقولات، حاشية العطار على جمع الجوامع فى أصول الفقه، رسالة فى علم الكلام، حاشية العطار على كتاب «موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب»، حاشية على شرح الأجرومية، منظومة العطار فى علم النحو، إنشاء العطار فى المراسلات، رسالة فى كيفية العمل بالإسطرلاب، نبذة فى علم الجراحة، مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، شرح كتاب الكامل للمبرد. كما ترك ديوان شعرى يحتوى على مئات القصائد.

وهكذا جمع الشيخ العطار بين علوم الدين والدنيا، وكان بحق رائد من رواد نهضتنا الفكرية، ومن الممهدين الطريق لعصر جديد من العلم والفكر. وفتح باب الأمل فى عودة الروح إلى الشعب المصرى الذى حاولوا تغييبه وراء ستائر الظلام والتخلف.

(*) صلاح عبد الصبور، قصة الضمير المصري الحديث، كتاب الإذاعة والتليفزيون، ١٩٧٢، ص٢٠.



رفاعة الطهطاوي

(١٨٠١-١٨٧٣م=١٢١٦-١٢٩٠هـ)

الأزهري الثائر

تقاس عظمة الرجال بقدر ما يحدثونه من تحولات في ظروف وتاريخ مجتمعاتهم. وهذا ما فعله رائد عصر التنوير، الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى حرك مياه الفكر المصرى والعربى الراكدة، وأخرجها من أسر التقليد والتسجيل، إلى رحابة الحركة والتحديث والتفكير في الغد.

عاش «الطهطاوى» [٧٢ عاماً]، أنار خلالها ظلام خمسمائة عام سبقته، ومهد بأفكاره لنهضة علمية وفكرية، وأسس مدرسة تنويرية أمدت الأمة بمفكرين وثوار ومصلحين عظام.

ولد «رفاعة» عام ١٨٠١م-١٢١٦هـ، وهو العام الذى خرجت فيه فلول الحملة الفرنسية من مصر، وكان مولده في «طهطا» إحدى مدن صعيد مصر الصغيرة في محافظة سوهاج.

من طهطا إلى الأزهر:

تلقى «رفاعة الطهطاوى»، علومه الأولى في بلدته «طهطا»، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وحفظ القرآن الكريم، ثم جاء إلى القاهرة، بعد وفاة والده، للدراسة في الأزهر، وباعت والدته بعض حليها وعقارها لتوفر لابنها نفقات دراسته، التي استمرت سبع سنوات، من عام ١٨١٧ إلى ١٨٢٤م. وفي القاهرة يركز رفاعة كل جهده لتحصيل العلم، على أيدى مشايخ الأزهر، وفي مقدمتهم الشيخ حسن العطار، الذى أعجب بهذا التلميذ النجيب، فقربه منه، واستقبله في بيته، وشجعه على محاولة اكتساب المعارف العصرية، التي كان الشيخ العطار مولعاً بها.

وكان رفاعة، بعد أن أتم تعليمه الأزهرى في سن الحادية والعشرين، أصغر وأنبغ من عهد إليهم بالتدريس في تلك الجامعة العريقة.

وعندما فكر «محمد على»، حاكم مصر في ذلك الوقت، في تأصيل الجانب الدينى عند جنود الجيش المصرى، عين في الجيش مجموعة من الوعاظ، كان منهم «رفاعة

الطهطاوى».

إمام البعثة:

كان «رفاعة» في الخامسة والعشرين من عمره، سنة ١٨٢٦م، عندما خاض محمد علي، غمار فكرة ثورية، تمثل نقلة حضارية كبيرة في تاريخ مصر والشرق العربى، بقراره إرسال بعض الشباب إلى باريس ليتلقوا العلم هناك، ثم يعودون لتنتفع بهم بلادهم.

وأراد أن يختار للبعثة إماماً وواعظاً، وطلب من الشيخ «حسن العطار» أن يرشح له أحد علماء الأزهر، فاختار العطار تلميذه «رفاعة» وأوصاه أن يسجل ما يراه في هذه الرحلة في كتاب.

كانت مهمة «رفاعة» أن يؤدى بأعضاء البعثة شرائع الدين، ولم يكن مطلوباً منه أن يدرس أو يتعلم، وكان من أفراد هذه البعثة بعض النابهين من الشباب المصريين، بينهم: محمد أفندى بيومى من دهشور، وأحمد دقلة بك، من بسيون غربية، وأحمد طائل أفندى من بلتان قليوبية مركز طوخ، ومحمد علي البقلى بك من زاوية البقلى في المنوفية، وإبراهيم بك النبراوى من نبروه - دقهلية، وحماد عبد العاطى بك من أبو تيج، وعبد الله بك السيد، من الفيوم، وآخرون.

مع البعثة:

أبحر «رفاعة» مع البعثة إلى باريس، وركب السفينة الحربية «لاترويت» من الإسكندرية، ومن ذلك الحين أصابته دهشة متواصلة مدة ست سنوات، هى سنوات رحلته وإقامته في فرنسا، وسجل يوميات دهشته في كتابه العظيم «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»(*).

كان عليه أن يثبت الدور الحقيقي للتدين والدين في حياة المسلم، وأن يبذل

(*) صلاح عبد الصبور، «قصة الضمير المصرى الحديث»، كتاب الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢٧.

لذلك، جهداً فوق العادة، فهو لم يكتف أن يكون واعظاً وإماماً للبعثة، وإنما أظهر إرادة قوية ليشبع شوقه إلى العلم، وليكون جديراً بثقة الشيخ العطار به.

لم يكن مجرد رجل جاء ليؤم طلاب البعثة في الصلاة، وإنما تحول إلى إمام لتحصيل العلم والمعرفة، وكان يقضي وقته متنقلاً بين غرفة الدرس والمحاضرات ينهل من العلوم كلها، ويتقن الفرنسية، ويتبحر في آدابها وفنونها، وكل ما أبدعه الفرنسيون في شتى المجالات.

عاش «رفاعة» في باريس، مفتوح العينين، ومفتوح القلب والعقل والوجدان أيضا، ولم يقنع بأن تحمله قدماه إلى مسارحها ومقاهيها وحدائقها وطرقاتها، بل حمله طموحه إلى لب ثقافتها وعلمها وفكرها. وتنقل بين العلوم التطبيقية والإنسانية، وتأثر بأفكار مونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو، الثلاثة الذين شغلوا الناس في القرن الثامن عشر، «عصر العقل الأوروبي».

واستوعب الطهطاوى نظرية «سيادة القانون» التى جاء بها مونتسكيو، ودعت إلى أن يكون لكل أمة دستور يعطى لكل ذى حق حقه، ويفصل فيما قد ينشب بين الأمة وحكامها من نزاع، ويقوم على مبدأ الفصل بين السلطات. وآمن بما نادى به فولتير، بأنه لا حجة ولا حكم إلا للعقل، وألا تخضع إرادتنا وتصرفاتنا إلى الأفكار الجاهزة أو التقاليد المسيطرة.

وأدرك أهمية نظرية «العقد الاجتماعي» التي أتى بها جان جاك روسو. على أن يرعى الحكام مصالح المحكومين، لكي ينهض المجتمع ويتقدم ركب الحياة البشرية.

أكثر من مهمة:

عاد «رفاعة» سنة ١٨٣١م إلى وطنه مصر بعد تلك السنوات الست، من الدهشة، والتعليم، وإعمال الفكر، متنقلاً بين الجغرافيا والتاريخ والفلك والهندسة وغيرها من العلوم الحديثة، والأفكار الثورية الإصلاحية، ليعيد صياغة أشياء كثيرة، وليغير مسار تاريخ أمته.

وظل في حركة دائبة، حتى وفاته عام ١٨٧٣م، ولم يهدأ طوال أربعين عاماً. ولم يكتف بنجاح حققه، بل كانت إرادته تدفعه ليتبع النجاح بالنجاح.

وبلغ محمد علي ما أظهره «رفاعة»، من النباهة والرغبة في العلم من تلقاء نفسه، فسر به سروراً عظيماً، واستبشر بطالعه، وما أن عاد إلى أرض الوطن حتى ولاه مسؤولية الترجمة في المدرسة الطبية التي كان أنشأها سنة ١٨٢٦م في قرية «أبى زعبل» قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الفرنساوى، وبمساعى «الطهطاوى» وبمساعدته تم إنشاء أول جريدة عربية في المشرق، وهى جريدة «الوقائع المصرية»، التي مازالت تصدر منذ سنة ١٨٣٢م، وانتقل سنة ١٨٣٢م من المدرسة الطبية في أبى زعبل إلى مدرسة الطوبجية «المدفعية» في طرة، لترجمة الكتب الهندسية والفنون العسكرية، وعندما افتتح «محمد علي» مدرسة الألسن الأجنبية سنة ١٨٣٥م، عهد بإدارتها إلى «رفاعة الطهطاوى»، وكانت تدعى عند فتحها «مدرسة الترجمة»، وأدار الشيخ رفاعة المدرسة باقتدار، واختار لها تلاميذ من سائر جهات القطر المصرى، ثم عُهد إليه بعد ذلك بإدارة المدرسة التجهيزية للطب في الأزبكية مع مدرسة الألسن، ومدارس أخرى فرعية، منها مدرسة للفقه والشريعة، وأخرى للمحاسبة، وأخرى للإدارة والأحكام الإفرنجية.

وتألف «قلم الترجمة» سنة ١٨٤٢م، من أول فرقة تخرجت في مدرسة الألسن، برئاسة رفاعة، وبعد سنة ونصف السنة، نال الطهطاوى رتبة قائم مقام، ثم أميرالاى، فصار يدعى «رفاعة بك»، وكان رفاعة مازال ناظراً لمدرسة الألسن، حتى أغلقت في عهد الخديوى عباس الأول، الذى أمر بإرساله إلى السودان لنظارة مدرسة الخرطوم، وعاد رفاعة إلى القاهرة بعد موت الخديوى عباس، وتولى وكالة مدرسة الحربية، ثم أصبح ناظرها مع نظارة قلم الترجمة، وتولى إدارة جريدة «روضة المدارس»، مع مثابرته على التأليف. وظل قائما بهذه المهام حتى توفاه الله سنة ١٨٧٣م – ١٢٩٠هـ(*).

(*) جورجى زيدان، «بناة النهضة العربية»، دار الهلال، القاهرة، ص١٢٨.

تعليم المرأة:

كان «الطهطاوى» رائداً في ميدان التعليم عامة، واهتم بصفة خاصة بتعليم وتربية المرأة، حيث دعا إلى إعادة النظر في كل القيم التقليدية بالنسبة إلى المرأة، وبشر بالحرية والمساواة والإخاء بين الجنسين كوسيلة لتقدم الوطن، ووضع الأساس القوى لتحرير المرأة، وحقها في العلم والعمل، وسبق بذلك دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة، بخمسين عاماً، فقد كان صاحب أول دعوة لتعليم وتربية البنات، وفتح أول مدرسة نسائية، وهى «المدرسة السنية»، ودعا إلى وجوب السماح للمرأة بالعمل، وتحصيل العلم، وكان ذلك موضوع كتابه المهم «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين». وفى ميدان حقوق المرأة، كان الطهطاوى، صاحب رؤية متقدمة على زمانه، فهو أول رجل يتعهد في وثيقة زواجه من كريمة الأنصارى، بأنه لن يتزوج عليها بامرأة أخرى.

الديمقراطى الثورى:

كان رفاعة، إماماً للتجديد، وحاول في كل كتبه أن يحث المسلمين ويدفعهم إلى البحث في العلوم العصرية، وأن يتعلموا الفنون والصنائع المختلفة، التى سبقنا إليها العالم المتقدم، ولا يعنى هذا أنه تخلى عن قيمه ومبادئه، والاهتمام بعلوم الدين.

فقد كان يرى أن هناك نوعين من العلوم: علوم «جوانية» تعنى بالروح الإنسانية، كعلوم الدين والفقه، وعلوم «برانية»، وهى العلوم التي لم تكن تعرفها مصر في ذلك الوقت، وهى علوم تعنى بتجربة الإنسان، وحياته على الأرض، وتيسر له أموره ومسعاه، وتنظم له مسيرته وخطاه، وهى علوم الهندسة والكيمياء والمساحة والطب والفلك والصيدلة، وهى ما حاول رفاعة، الثائر، أزهرى النشأة، أن يستنبتها في تربة مصر.

كان رفاعة الطهطاوى، ديمقراطى التفكير، مؤمناً بأن وظيفة الحاكم هى العمل لمصلحة الشعب، وكان جريئاً في طرح أفكاره، التي تدعو إلى أن يكون هناك دستور

ينظم علاقة الأمة بحكامها، وهو أول من أرسى فكرة الوطن والوطنية خلال حياته العلمية والتعليمية.

أشاد رفاعة بالحرية التي يعيش في ظلها الفرنسيون، وبرر تمتعهم بها، بأن في بلادهم قانوناً مكتوباً يوضح حق الحاكم والمحكوم، ويتراضى عليه الفريقان، وهو الدستور.

وقد بلغ من ولع رفاعة بهذا الدستور، أن ترجم فصوله الرئيسية كاملة في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز». ولم يكتف بذلك، بل عرض للمعارك التي دارت في فرنسا، من أجل الدستور وتعديله، مشيراً إلى ثلاثة أنواع متصارعة من الحكم هي: الملكية المطلقة، والملكية المقيدة، والجمهورية «التي ترد لأول مرة بهذا المعنى في اللغة العربية».

وأشار الطهطاوى إلى قول جان جاك روسو، «بأن الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة، ويجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم»، ووصلت به الاستنارة إلى القول: «إن شريعة الإسلام، التي عليها مدار الحكومة الإسلامية، تشمل الأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها».

أهم مؤلفات رفاعة الطهطاوى:

«تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، ويصور فيه رحلته إلى فرنسا.

«التعريفات الشافية لمريد الجغرافية».

«جغرافية ملطبرون».

«قلائد المفاخر في غريب عوائق الأوائل والأواخر».

«المرشد الأمين في تربية البنات والبنين».

«التحفة المكتبية في النحو».

«مواقع الأفلاك في أخبار تليماك».

«مناهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية».

«مختصر معاهد التنصيص».

«المذاهب الأربعة».

«شرح لامية العرب».

«القانون المدنى الإفرنجى».

«توفيق الجليل وتوثيق بنى إسماعيل».

«هندسة ساسير».

«نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز».

«جمال الأجرومية».





عبد القادر الجزائري

(١٨٠٧-١٨٨٣م=١٢٢٣-١٣٠٠هـ)

الفقيه المجاهد

كان ظلام القرنين التاسع عشر والعشرين، حالكا فى عالمنا العربي والإسلامي. ففى أولهما انحدرت الدولة العثمانية إلى أدنى درك، وتفتتت فى مطلع الثانى، ورزح العالمان العربى والإسلامى تحت نير الاستعمار الغربى.

وما «عبد القادر الجزائرى»، سوى نجم سطع ولمع وتألق فى سماء ذلك الزمن الحالك السواد.

وبيئتنا العربية غنية بالشخصيات الفذة التى طبعت عصرها، وكان لها تأثيرها فى معاصريها وفى الأجيال اللاحقة، بما قامت به من أعمال وما سجلته من مواقف، وما أسهمت به من منجزات، مما جعلها قبسات مضيئة فى ذاكرة الشعوب العربية والإسلامية، وحافزا متجدداً لذوى النفوس الأبية الرافضة للاستعباد، وأصبحت مع تعاقب السنين نموذجا يقتدى به كل من يعمل لصالح وطنه وشعبه، ومن هذه الشخصيات رجل ارتبط اسمه بالجزائر، وهو يعرف بالجزائر، والجزائر المعاصرة تبدأ به، وتستمر من خلاله، هو الأمير البطل «عبد القادر الجزائرى».

حياة هذا الأمير بما تمثله من قيم هى تاريخ الجزائر المعاصرة، فبالأمير يبدأ العصر الحديث فى الجزائر، وبه يرتفع التاريخ ارتفاع الساق والأغصان والأوراق من الجذر.

لقد عبر الأمير «محمد عبد القادر» عن موقف الشعب الجزائرى الرافض للهيمنة الأجنبية، كما استجاب لتطلعاته فى إنشاء دولة حديثة فى إطار قيمة العربية ومبادئه الإسلامية، فكان بحق ابن بيئته البار، ونتاج ثقافته الأصيلة، ولسان عصره الصادق.

لم يسع عبد القادر الجزائرى إلى الإمارة، بل هى التى سعت إليه، عندما بحثت الجزائر عن شخص يقودها وهى تواجه خطر محو هويتها وكيانها، فى هذه اللحظات الحاسمة يفتش الوطن عن الشخص الأمة الذى يستطيع أن يستوعب الأمة فى كيانه ويجسدها بأقواله وأفعاله، وكان الاختيار موفقاً، وحتى يُعطى الأمير الشرعية

لاختيار وجهاء الوطن له أصر على البيعة الشرعية التقليدية، فكانت البيعة الخاصة ثم العامة. وهذا أول درس يعطيه الأمير لكل المتطلعين إلى السلطة فى وطننا العربى، فالسلطة هى اختيار شعبى بإرادة حرة وبإجماع وطنى، وليست كنزاً يستأثر به أصحاب الشوكة.

رمز المقاومة الوطنية :

ولم تغير السلطة شيئاً من نمط حياة الأمير، لم يغير الجاه والثروة والقوة من طبيعته ولم تفصله عن الإنسان العادى، ظل بين شعبه لا يفصله عنه أى فاصل، أى أنه تجاوز قرون الظلام وعاد إلى شفافية السلطة فى زمن الخلفاء الراشدين، حين لم يكن بإمكان أحد أن يميز الخليفة عن باقى أفراد الشعب.

وخلال خمسة عشر عاما تولى فيها الأمير السلطة لم يكن ينفرد بالقرارات المصيرية، بل كان يستشير العلماء ورؤساء القبائل، وأخذ فتاوى رجال الدين فى مواقفه، ليؤكد أن الحاكم ليس صاحب القرار الوحيد، وإنما القرار هو مسؤولية الشعب من خلال ممثليه المعترف بهم.

وحين وجد الأمير أبواب المقاومة قد أُغلقت أمامه، ولم يعد قادرا على الوفاء بأمانة السلطة، وهى حمل راية الجهاد لإنقاذ الوطن، فضل بعد أن استشار رفاقه أن يتخلى عن السلطة ويستسلم للعدو مرفوع الرأس، ولم يرض -كما رضى غيره- أن يحتفظ بمظاهر السلطة تحت حراب الأجنبي، فهو يرى أن السلطة أمانة ورسالة، وعندما يعجز عن تحملها، فإن التمسك بها يصبح خيانة وتحويلا لها من التكليف إلى التشريف. وكانت هزيمته فى المعركة انتصاراً حقيقياً لشخصه، وتحويل اسمه إلى رمز خالد للمقاومة الوطنية.

سيرة حياة وجهاد :

عاش الأمير «عبد القادر» ثلاث مراحل متميزة بخصوصيتها وأحداثها ودلالاتها، الأولى قضاها فى طلب العلم، وتعرف فيها على أوضاع البلاد العربية من

خلال رحلته لأداء فريضة الحج، وقضى الثانية فى الجهاد ومقاومة العدو، وكانت الثالثة مرحلة غربة، حيث عاش أسيراً فى فرنسا، ومجاهدا محتبسا فى بورصة بتركيا ثم دمشق.

وُلِدَ الأمير «عبد القادر» فى (١من رجب سنة ١٢٢٢هـ/ ٦ سبتمبر ١٨٠٧م) بمقر أسرته بالقيطنة، الواقعة على سفح جبل إستانبول على الجانب الأيسر لوادى الحمام، وعلى بعد حوالى ٢٠كيلومترا عن مدينة معسكر. وكان رابع إخوته.

ونشأ فى رعاية والده الأمير «محيي الدين الحسينى» الذى يتصل نسبه بالإمام الحسين، وكان والده مقدم الطريقة القادرية وشيخ زاوية [القيطنة]، وتلقى تعليمه الأولى فى كُتاب الزاوية عن أبيه وبعض شيوخها، فأجاد حفظ القرآن، واستوعب مبادئ العلوم الدينية واللغوية، ثم ارتحل إلى (آرزيو) وهو فى الخامسة عشرة من العمر ليدرس على يد قاضيها الشيخ «أحمد بن الطاهر»، وانتقل منها إلى مدينة (وهران) لينتسب إلى مدرسة [أحمد بن خوجة] المخصصة لأبناء الأعيان، حيث أمضى فيها ما يقرب من سنة انكب خلالها على توسيع معارفه اللغوية ومعلوماته الفقهية، وصقل ملكاته الأدبية والشعرية.

واشتهر فى السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية، حتى كان يُشار إليه بالبنان بين الفرسان، لمهارته فى ركوب الخيل.

وفى سنة (١٨٢٣م) زوجه والده من ابنة عمه «لالاخيرة»، وصحبه فى (نوفمبر سنة ١٨٢٥م)، إلى الديار الحجازية، لأداء فريضة الحج والزيارة، ومرا فى رحلتهما بالإسكندرية وزارا القاهرة، فى عهد «محمد على» باشا الذى أكرمهما وحاشيتهما ثم واصلا رحلتهما إلى الحجاز عن طريق السويس، وعرجا بعد الحج على دمشق فأمضيا فيها زمناً، ثم سارا منها إلى بغداد لزيارة مقام سيدى عبد القادر الكيلانى (مؤسس الطريقة القادرية)، وغادرا بغداد نحو دمشق ومنها الى المدينة المنورة ومكة لتأدية مناسك الحج والعمرة، ثم عادا إلى وطنهما فى أوائل سنة (١٨٢٨م).

وازداد «عبد القادر» بعد هذا السفر شغفاً بالعلم، فاعتزل لتحصيله، ولزم الخلوة، حيث عكف على مطالعة كتب العلم والفلسفة، ودرس رسائل أفلاطون وفيثاغورس وأرسطاطاليس، وتعمق فى درس الفقه والحديث والجغرافيا والفلك والتاريخ، وكتب العقاقير.

مبايعة الأمير عبد القادر:

استولى الفرنسيون على الجزائر سنة ١٨٣٠م ووزعوا منشورات أعلنوا فيها امتلاكهم للبلاد، وإخراجها من أيدي العثمانيين، ورغم مقاومة القبائل سيطر الفرنسيون بقيادة (برمونت) على جبال الأطلس ومدينة (وهران)، وكان من نتيجة الاحتلال الفرنسى لتلك البلاد أن اختلت الأحوال فيها وسادت الفوضى، فاجتمع المرابطون ورؤساء القبائل، وفى مقدمتهم الأمير محيي الدين، وتشاوروا فى الأمر، فاستقر الرأي على الانضمام إلى سلطان مراكش «مولاى عبد الرحمن»، فدخلت الجزائر فى سلطانه، مما أدى إلى غضب الفرنسيين، وبعثوا إلى سلطان مراكش مهددين بالحرب إذا لم يسحب جنوده من الجزائر، فآثر الانسحاب.

واجتمع كبار الجزائريين إثر ذلك للتشاور فى الأمر، واستقر رأيهم على إقامة الأمير محيى الدين سلطانا على البلاد، وذهبوا إليه فى بلدته [القيطنة] حيث عرضوا عليه الأمر وأرادوا مبايعته، ولما أمسك عن الإجابة هددوا بقتله إن لم يقبل فاستجاب لرغبتهم، على أن تكون السلطة لولده عبد القادر، فقبلوا ذلك راضين مرضيين.

كان الأمير «عبد القادر» فى ذلك الوقت يحارب الفرنسيين فى حصن (فيليب) فبعثوا إليه وبايعوه، وسنه إذ ذاك ٢٥ سنة، تمت له البيعة على الجهاد عند شجرة الدردارة بسهل غريس فى (رجب ١٢٤٨هـ/ ٢٧ من نوفمبر ١٨٣٢م) وحصلت له البيعة العامة بمعسكر فى (١٧ رمضان ١٢٤٨هـ/ ٤ فبراير ١٨٣٣م) وعلى إثر مبايعته قصد إلى المسجد الجامع حيث صلى بالناس وخطب حاثا إياهم على الطاعة،

والعمل بمقتضى الشرع الشريف، والاقتداء بالخلفاء الراشدين (*).

وجمع كلمة القبائل، وضم بعضها إلى بعض لكى تقوى على مقاومة الفرنسيين وإخراجهم من البلاد. وخاض عدة وقائع فاز فيها عليهم، ولاسيما موقعة (وهران) التى انتصر فيها انتصارا كبيراً، فهابه الفرنسيون، وأخذوا يخشون بطشه منذ ذلك الحين. وعقد قائدهم «ديمشيل» معه معاهدة صلح سنة (١٨٣٤م).

كرٌ .. وفرٌ:

ولما هدأت الأحوال، تفرغ الأمير «عبد القادر» لإصلاح الشؤون الداخلية فى بلاده، وواصل فى الوقت نفسه إعداد العدة لمواجهة الحرب، فأنشأ مصانع للأسلحة وصب المدافع وإنتاج البارود، ونظم الجيش مما أتاح له النصر فى عدة مواقع منها معركة المقطع فى (١٨ يونيو ١٨٣٥م) التى أرغم خلالها القوات الفرنسية على الرجوع إلى [وهران]. وبعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة هاجم الفرنسيون مدن الأمير عبد القادر الرئيسية فاستولوا على (معسكر) ثم (تلمسان)، لكن ذلك كان دافعا ليواصل الأمير ضغطه على القوات الفرنسية وتكبيدها خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد، مما اضطر الفرنسيين للصلح معه، لما تأكدوا من بسالته وقوة احتماله، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة (التافنة) فى (٣٠ مايو ١٨٣٧م) التى تقضى بتبادلهما التمثيل القنصلى، وبألا يسلم الأمير أى ساحل من سواحل بلاده لدولة أجنبية إلا بعد مشاورة فرنسا.

اهتمام بالشؤون الداخلية:

وجه الأمير عنايته بعد ذلك إلى إصلاح الشئون الداخلية لبلاده وبناء مؤسساتها، كما واصل الاستعداد العسكرى كعادته لمواجهة الطوارئ، وأنشأ مدينة تجارية سماها (تقدمة)، كما أنشأ كثيرا من المعاقل واستعان بقواد أوربيين لتنظيم جيشه، وأنشأ

(*) الدكتور ناصر الدين سعيدونى، «عصر الأمير عبد القادر الجزائرى»، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى، الكويت، ٢٠٠٠، ص٢٠٤.

مصانع لإنتاج المدافع ومختلف الأسلحة فى تلمسان وغيرها، وعمل لاستخراج المعادن، وتنشيط الصناعة والزراعة والتجارة، ونشر التعليم بالإكثار من المدارس، واعتزم إنشاء جامعة كبيرة فى (تقدمة) تجمع بين العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الحديثة، وضرب نقوداً فضية ونحاسية.

معارك وانتصارات:

وكان شديد التيقظ، دائم السهر على مصلحة بلاده، حريصاً على تفقدها بنفسه، ولكن الظروف لم تسمح باستقرار الأمن فى الجزائر، إذ طمع الفرنسيون بعد استيلائهم على (قسنطينة) فى مد سلطانهم على المناطق المجاورة لها، برغم وقوعها فى حدود سلطة الأمير بمقتضى معاهدة (التافنه)، وعبثاً حاول الأمير حمل حكومة باريس على احترام المعاهدة، فأخذ فى تحصين المناطق المختلف عليها والاستعداد للدفاع عنها، وعندما نشبت الحرب تمكن الأمير من دحر القوات الفرنسية وطردها إلى السواحل.

وعُظم الأمر على الحكومة الفرنسية، وأرسلت إلى قواتها المندحرة فى الجزائر نجدة كبيرة، فاستأنفت الهجوم على الأمير ورجاله، ودارت بين الفريقين معركة شديدة بالقرب من جبال الأطلس، فتغلب الفرنسيون أول الأمر، لكن الأمير سرعان ما تدارك الموقف، وأعاد تنظيم رجاله ثم كرَّ على القوات الفرنسية، فما لبث أن هزمها واضطرها إلى الانسحاب.

وتوالت المعارك بعد ذلك طيلة ست سنوات، واضطرت فرنسا فى نهايتها إلى تغيير قائد قواتها فى الجزائر بقائدها القديم الجنرال (بوجيه)، وبعثت معه بإمدادات كثيرة من الجند والأسلحة، ولكنه لم يثبت فى هذه المرة أيضا أمام الأمير المغوار.

ولما رأى الأمير أن البلاد أصبحت كلها ميدانا للحرب، أنشأ مدينة متنقلة سماها (الزمالة)، وهى مؤلفة من خيام تُقام على نظام شوارع المدن وتتبع الجيش فى حله وترحاله بحيث يعمل فيها الصناع، ويُحتفظ بالأسرى ويلجأ إليها المتعبون من

الجند، كما يقيم بها النساء والأطفال، وتعد الأسلحة للجنود العاملين. وقد انتفع الأمير بهذا النظام إلى حد كبير، حمل الفرنسيين على توجيه الجانب الأكبر من نشاطهم إلى حرمانه من تلك المدينة واستطاعوا الوصول إليها بواسطة بعض الخونة فأحرقوها، كما أحرقوا قبل ذلك مدينة (تقدمة) ونهبوا يوم ١٦ مارس ١٨٨٣م ما كان فى (الزمالة) من مؤن ومعدات، كما قتلوا عدداً كبيراً ممن كانوا بها.

حرب العصابات:

ولم يحقق الفرنسيون النصر النهائى على الجزائريين باستيلائهم على العاصمة المتنقلة (الزمالة)، وهذا ما أكده الأمير «عبد القادر» بنفسه فى رسالته إلى المارشال بيجو بقوله: «إن الضرر الذى اعتقدت أنك ألحقته بنا لم يكن سوى بمثابة أخذ كأس ماء من بحر، وإن عملكم لا يتجاوز الأثر الذى يتركه الطائر عندما يلامس بجناحيه موجة من أمواج البحر».

واضطر الأمير «عبد القادر» بعد سقوط عاصمته المتنقلة (الزمالة) وتناقص عدد جيشه إلى ألفى فارس وعشرة آلاف من المشاة، إلى اتباع أسلوب الكر والفر، فكان يتنقل سريعا من مكان إلى آخر، ويباغت العدو على حين غرة، ثم يتراجع بعيداً، فأرسى بذلك أول تجربة كبرى فى حرب العصابات فى التاريخ الجزائرى المعاصر، واجه أثناءها مطاردة ثمانى عشرة فرقة عسكرية فرنسية طوال خريف وشتاء عامى (١٨٤٥ و ١٨٤٦م)، كما فُرض عليه الانتقال على ظهر جواده وبصحبة فرسانه آلاف الكيلومترات، تجول فيها من بلاد القبائل إلى جهات الريف بالمغرب الأقصى، ومن نواحى تلمسان إلى تخوم الصحراء بالعقيق والأغواط.

ومع استمرار الضغط الفرنسى عليه، طلب الأمير «عبد القادر» من أسرته التوجه إلى المغرب الأقصى، وكان يأمل أن يقف السلطان المغربى إلى جانبه فلم ينجده، فى حين تلقى الفرنسيون نجدات كبيرة وتمكنوا من حمل سلطان مراكش على معاونتهم ضده. لكن هذا كله لم يثن عزمه عن مواصلة الجهاد، فظل يقاتل بشجاعة

فى مختلف ميادين القتال التى شملت الجزائر كلها، حتى نهاية (سنة ١٨٤٦م).

وحاول الأمير أن يثنى سلطان مراكش عن محاربته مذكرا إياه بصداقتهما القديمة، وبما بين بلديهما من علاقات وروابط دينية ولغوية وتاريخية، ولكنه لم يستجب له وخيره بين التسليم، أو الرحيل إلى برارى الجزائر.

وعندما توجهت القوات المغربية لمحاصرته بنواحى ملوية، دخل معها فى ثلاثة اشتباكات دامية نواحى قلعة سلوان فى شهر [محرم ١٢٦٤هـ/ ديسمبر ١٨٤٧]. وعندما صمم المغاربة على مواجهته والقضاء عليه تنفيذا لمعاهدتهم مع الفرنسيين «للا مغنية» (١٨ مارس ١٨٤٥). عقد الأمير آخر اجتماع لمستشاريه.

حكمة قرار التسليم:

جمع الأمير «عبد القادر» رجاله على ظهور الخيل وفى ظلمة الليل حتى لا يفطن إليهم المغاربة أو ينتبه لأمرهم الفرنسيون الذين كانوا يراقبون تحركاتهم من بعيد. وخطب فيهم مصرحاً بحقيقة الخطر المزدوج المحيق بهم، قال فى صوت كله إيمان وصبر: «لم نجد مستنداً نستند إليه إلا الله.. وصرنا نتأمل ونتيقن بعد المشورة أن المصير إلى جند الفرنسيين أولى إلى التولى للمغاربة، لأنهم لا عقد عندهم ولا قانون يضبطون به أحوالهم مع أصدقائهم أو مع عدوهم، الفرنسيون يعرفون قدر الرجال الأبطال، فيعطونهم قدرهم من التعظيم والحرمة ولو كانوا أعداء، فالميل إليهم أولى وأفضل من هؤلاء المتبدين (البدو) الذين لا يعرفون قدراً ولا يفرقون بين سليم وسقيم، ولقد وفيتم بما بايعتمونى عليه، وبذلتم جهدكم فى معاضدتى. أما وحالتنا الآن تقتضى التسليم، فأرى أن التسليم للفرنسيين خير لنا من التسليم للمراكشيين، والرأى لكم فى الحالين»، فأجابوا بأنهم على رأيه.

وحُددت ليلة ٢١ ديسمبر سنة (١٨٤٧) للتوقيع على شروط التسليم، وفى مقدمتها أن يغادر الأمير وحاشيته البلاد إلى الإسكندرية أو مدينة بورصة التركية للإقامة بها، وكانت ليلة ممطرة، شديدة العواصف، فأناب الأمير رجلين من

خاصته وحملها خاتمة للتوقيع على الشروط فى معسكر الفرنسيين، وما أن علم القائد الفرنسى برغبة الأمير فى التسليم طبقا لهذه الشروط حتى وافق فوراً. ولما ذهب الأمير بعد ذلك إلى المعسكر الفرنسى قوبل بالتكريم والاحترام.

ولم يكن توقف الأمير «عبد القادر» والمجاهدين معه عن مقاومة العدو صادراً عن خوف أو تخاذل أو تخل عن أداء الواجب، وإنما كان بفعل تفوق العدو عدة وعدداً، وعداء الصديق وتخاذل الحليف، وتحول الأهل والقريب.

بداية رحلة الاغتراب:

وأبحر الأمير فى ٢٥ من ديسمبر، ومعه حاشيته البالغة ثمانين فرداً على سفينة حربية، أقلتهم إلى طولون، حيث قوبل الأمير بترحاب، وعرض عليه أن يقيم بفرنسا ضيفا مكرماً على حكومتها هو ومن معه، ولكنه لم يقبل، وأثناء ذلك وقع الانقلاب فى فرنسا وتحولت من ملكية إلى جمهورية، فطال الأخذ والرد بين الأمير والمسؤولين الفرنسيين الجدد، ثم وافقوا على مغادرته فرنسا إلى حيث شاء، على أن يتعهد هو ورجاله كتابة بعدم رجوعهم إلى الجزائر، وكتب هذا العهد فى مارس (١٨٤٨م).

وكان الأمير يستعد للرحيل هو ورجاله عندما صدرت الأوامر من الجمهورية الفرنسية الجديدة باعتباره أسيراً، ثم زج به وبرجاله إلى السجن فى «أيبس»، فلبثوا فيه حتى أكتوبر (سنة ١٨٥٢)، حيث عكف الأمير على الكتابة والتأليف. وبعد أن زاره «نابليون» في معتقله ببضعة أيام، صدرت الأوامر بإطلاق سراح الأمير «عبد القادر» ورجاله، وأقام له «نابليون» مأدبة كبيرة في قصره، وأهدى إليه جواداً عربياً أصيلا، وفي ٢١من ديسمبر (١٨٥٢م)، غادر الأمير فرنسا مودعا باحتفال كبير قاصداً مدينة بورصة في تركيا للإقامة بها حتى سنة (١٨٥٥م)، حيث انتقل في هذا العام للإقامة بدمشق، حيث قوبل بترحيب شعبى كبير، وأقام فيها بمبنى يدعى «العمارة» حيث تفرغ للقراءة ومراجعة كتب الفقه والتصوف والتفسير والحديث،

مقسماً وقته بين العبادة والمطالعة والتأليف ومجالسه العلماء والفضلاء.

موقف إنسانى نبيل:

ومن المواقف الإنسانية المشرفة للأمير في أثناء إقامته بدمشق، حمايته للمسيحيين عندما اشتعلت الفتنة الطائفية ضدهم في لبنان عامة ودمشق خاصة سنة (١٨٥٦م)، لم يتردد الأمير في حماية أهل الذمة حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ففتح مقر إقامته وإقامة أتباعه لاستقبال النصارى المهددين في حياتهم، ويرجع إليه الفضل في إنقاذ حوالي ١٥ ألفاً منهم، وفي أثناء ذلك تصدى للفتنة، وذهب به إقدامه إلى حد التوجه سراً إلى زحلة حيث التقى بقائد الجند الفرنسى الذي نزل جبل لبنان، وأقنعه بالعودة إلى قواعده وعدم التقدم إلى دمشق ريثما تحل الدولة العثمانية مشاكلها الداخلية بنفسها. فحال دون حدوث مذبحة كبيرة في دمشق، وكانت وساطته خيراً للجميع.

كان موقف الأمير «عبد القادر» هذا مثار تقدير السلطان العثمانى، وإكبار وإجلال ملوك أوروبا وحكوماتها، فمنحه العديد من ملوك ورؤساء الدول الأوسمة والنياشين، اعترافا بموقفه الإنساني النبيل.

كان الأمير مدة إقامته بدمشق يميل إلى التأمل والدراسة والذكر، وكان من حين إلى آخر يشد الرحال للقيام بزيارة أو سفر، حيث زار بيت المقدس والخليل، (١٨٥٧م)، وسافر إلى حمص وحماة (١٨٦٠م)، ثم سافر إلى الإسكندرية (١٨٦٢م) ومنها إلى السويس، ثم جده، وأدى مناسك الحج وزار الطائف والمدينة، وقضى هناك سنة ونصفا في العبادة والذكر والتأمل، وفي ربيع سنة (١٨٦٥م) توجه إلى استانبول للتوسط لدى السلطان عبد العزيز للتخفيف عن المتورطين بالفتنة الطائفية بالشام، ثم سافر إلى باريس ولندن.

أصبح الأمير «عبد القادر» شخصية عالمية تحظى بالتقدير والاحترام في كل مكان تحل به، وقد لقى كل حفاوة وتكريم عندما دعاه خديوي مصر لحضور احتفال

افتتاح قناة السويس سنة(١٨٦٩).

تفرغ الأمير بعد ذلك للعبادة وعمل الخير، والتأليف، والإطلاع، وعُرف بين الناس بعلمه وتقواه وورعه ومعيشته البسيطة، فعاش ما تبقى له من حياته بدمشق معظماً مكرماً من الجميع، حتى اعتبره الصوفيون من أهل الكشف وأنزلوه منزلة ابن عربي والنابلسى.

وفي منتصف ليلة السبت (١٩ من رجب ١٣٠٠هـ/ ٢٦ من مايو ١٨٨٣م) توفى الأمير «عبد القادر الجزائرى» عن عمر يناهز ستا وسبعين سنة، قضاها في العلم والعبادة والجهاد في سبيل الله والوطن.

أخلاق العالم وتصرفات البطل:

كان الأمير «عبد القادر» مربوع القامة، معتدل الجسم، أبيض اللون، أسود الشعر، كث اللحية، أقنى الأنف، أشهل العينين، أضبط، يستعمل بيساره ما يمكن أن يؤديه بيمينه، متواضعاً متئداً في مشيته، جهورى الصوت، قوى اللهجة، أجش النغم، وهو مع ذلك كان يتصف بالبشاشة والتأدب ولين الطبع، ويفضل الابتعاد عن مظاهر التكلف والفخامة والأبهة، ويميل إلى حياة التقشف والبداوة.

وقد عُرف عنه أنه يكره الجشع والإسراف ويميل إلى التقشف ويقلل من الأكل، وقد يقنع بشيء من الحليب والسويق (الدقيق المطهى مع شيء من الماء والملح) وقد يكتفي في بعض الأحيان بما يصطاده من طريدة، وهذا ما ساعده على اعتدال مزاجه والمحافظة على صحته وقواه العقلية والجسمية إلى آخر عمره. أما لباسه فيقتصر على قميصين أحدهما من القطن والآخر من الصوف، مع عمامة ولحاف من الوبر يغطى رأسه ويلف رقبته، وقد يضع عند الحاجة برنسا أبيض.

أما فيما يختص بسلوكه وتصرفاته، فقد جمع فيها بين أخلاق العالم، وتصرفات البطل، وسلوك زعيم الجماعة وشيخ الطريقة عن سجية، وفي تواضع وبدون تكلف كان متمسكاً بتقاليد أسرته، ودوداً لأهله، معروفا بطاعته لوالديه.

وتتميز نظرة الأمير «عبد القادر» إلى الحياة بتأثره بالعواطف النبيلة، فهو يقدر عاطفة الحب، كما يعجب بالطبيعة، وقد عبر عن كل ذلك في شعر رقيق جميل.

والجانب اللافت للنظر في شخصية الأمير «عبد القادر» هو فروسيته وما يتصل بها من شجاعة وإقدام وحنكة، فقد ولع الأمير منذ شبابه بركوب الخيل، ومارس منذ صغره الصيد، فكان يقضي ساعات طوالا من يومه على ظهر فرسه الذي كان أعز شيء عنده، ولم يكن يشغله عن هواية الفروسية سوى قراءة الكتب والانزواء للعبادة والذكر.

ومن الملامح المميزة لشخصيته تصوفه، وخاصة في دار هجرته، وإن كان قد تشربه منذ طفولته في زاوية أبيه باليقطنة، وتعمقت هذه النزعة في نفسه أثناء سجنه بفرنسا وبعد إقامته بالحجاز مدة سنة ونصف.

سر عبقرية الأمير:

لقد كانت حركة الأمير «عبد القادر» الجهادية ومحاولته بناء دولة حديثة استجابة موفقة لتجاوز العجز الذاتى الذى عاشه العرب والمسلمون لعدة قرون بعد أن تحطمت قدراتهم الذاتية. فالمحلل لمعطيات التاريخ الجهادى للأمير «عبد القادر» يرى أن هذه التجربة كانت موفقة إلى أقصى حد، بالرغم من قصر مدتها، لأن الأمير استطاع أن يحقق تلاحم العوامل الدينية والثقافية والعسكرية في وضع التصور وتنفيذ القرار. جمع الأمير هذه الأبعاد الثلاثة في سلوكه وثقافته وتصرفاته، حقق بذلك تكامل القوة العسكرية مع نظرة الإنسان المثقف ومع الدافع الديني، فسر عبقرية الأمير عبد القادر يكمن في أنه استطاع أن يكون قائداً عسكريا محنكاً قادراً علي جمع الكلمة، وفقيهاً عارفاً بأحكام الشرع وملتزما بتطبيق الشريعة، وعالما واسع الفكر متسامحاً مع الآخر ومنفتحا علي واقع مجتمعه ومقتضيات عصره.

إن ملحمة الأمير «عبد القادر» الجهادية بالرغم من قصر مدتها الزمنية ونجاح الفرنسيين في وضع نهاية مأساوية لها، إلا أنها في مجال الذاكرة التاريخية للأجيال

العربية كانت وستظل تجربة رائدة للإسهام العربى في صنع الأحداث وتغيير الواقع.

فقد جمعت بين مواجهة العدو وبناء الذات في آن واحد، ووافقت بين القيم الحضارية والأحكام الدينية، ومتطلبات المجتمع وحاجاته، بحيث يتكامل عمل الفقيه في المدينة مع نشاط المرابط في الريف، وتتلاحم مهمة موظف الإدارة في المدينة والجندى في ثكنته، مع طبيعة عمل المشتغل في الحرف والقائم على فلاحة الأرض، وهذا أساس نجاح الأمم وسر تقدم الشعوب.

رب السيف والقلم:

لقد كان الأمير «عبد القادر» فارساً بالسيف والقلم، سطر بسيفه الأحداث الوطنية والمعارك العسكرية، وخط بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية.

تربى منذ نعومة أظفاره على الأدب العربي القديم وتأثر بشعرهم، وقال الشعر في أغراضه المختلفة من فخر وحماسة وعاطفة نبيلة، يعبر عن عاطفة المحبة والإخلاص التي يكنها لزوجته من خلال هذه الأبيات:

جفانى من أم البنين خيالُ ... فقلبى جريح والدموع سجالُ
وما هى إلا الروح، بل إن فقدتها ... فإن بقائى دونها لمحالُ
فقولوا لها إن كنت ترضين عيشتى ... فجودى بطيف إن يعز وصالُ

كما قال شعراً في جمال الطبيعة وتأثيرها على النفوس، وقال القصائد الكثيرة في وصف الأماكن التي زارها أو أقام بها، كما سجل معاركه مع الفرنسيين في أبيات شعر تنطق ببطولة وفداء، ومن جميل شعره في الفروسية قوله:

فخيلنا دائما للحرب مسرجة ... من استغاث بنا نبشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً ... وأى عيش لمن قد بات في خفر

***

وله العديد من القصائد في التصوف منها هذه الأبيات:

أنــا حــق، أنــا خلــقُ   أنــا رب، أنــا عبــدُ
كــل كــون ذاك كــونى   أنــا وحــدى أنــا فــردُ
أنا الحب والمحبوب والحب جملة   أنا العاشق المعشوق سراً وإعلاناً

وللأمير «عبد القادر» بعض المؤلفات في التصوف والعقيدة والأخلاق ومن مؤلفاته:

«المقراض الحاد لقطع لسان الطاعنين في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد».

«ذكرى العاقل في تنبيه الغافل».

«المواقف في التصوف» ويتضمن مقدمة وثلاثة أجزاء.

إضافة إلى ديوان شعر صدر فيما بعد بعنوان: ديوان الأمير عبد القادر شرح وتحقيق ممدوح حقى.

وعموماً يمكن القول إن الأمير عبد القادر كان ابن الحضارة الإسلامية التي ظل إسهامها الفكرى ونزعتها الصوفية تتميز بالرقى الروحى والجسدى والعقلى.

عودة البطل:

بعد أن تحررت الجزائر من الاستعمار الفرنسى، وتحقق الأمل الذى ناضل وجاهد من أجله البطل الأمير «عبد القادر الجزائرى»، وباعتباره رمز للنضال وبطل الكفاح، ونظراً لأن ثورته تعد تجربة تاريخية تؤكد استمرارية الدولة الجزائرية، بادرت حكومة الجزائر المستقلة سنة ١٩٦٦م إلى نقل رفاته، من دمشق إلى الجزائر، في جو من الاحتفالات الوطنية المدوية والمهرجانات الشعبية الصاخبة، ليعود المجاهد إلى الأرض التي شهدت جهاده وكفاحه لأكثر من خمسة عشر عاماً، لترقد روحه في أمن وسلام في ثرى البلد الذي عاش ومات يناضل من أجله.

***

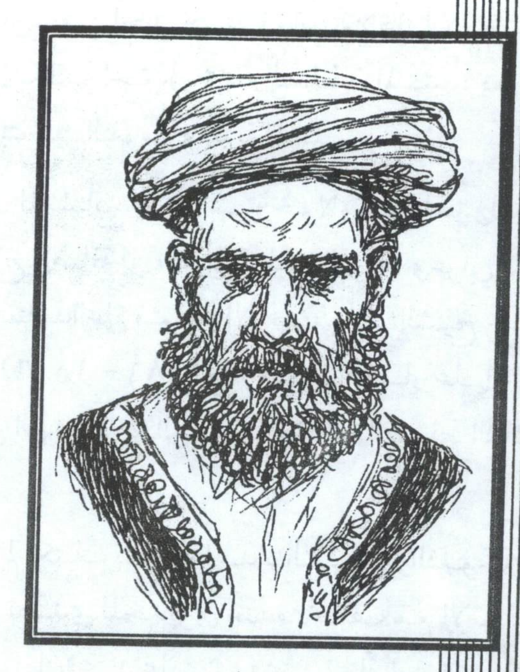
عشرة أولاد وست بنات:

تزوج الشيخ «محيى الدين الحسينى» من أربع نساء هن: وريدة ولدت له محمد العبد ومصطفى، والزهراء ولدت له عبد القادر «الأمير» وخديجة، وفاطمة ولدت له الحسين، وخيرة ولدت له المرتضى.

أما الأمير «عبد القادر» فقد ارتبط في أول الأمر و «للا خيرة» التي أشار إليها في شعره بـ (أم البنين) وعندما استقر بالشام كان له أربع زوجات، وكان مجمل أولاده من بنين وبنات ستة عشر، منهم عشرة ذكور، وهم: محمد، محيى الدين، الهاشمي، إبراهيم، أحمد، عبد الله، علي، عمر، عبد الملك وعبد الرازق، بالإضافة إلى ست إناث(*).



(*) د. إسماعيل إبراهيم، «شخصيات صنعت التاريخ، فى البطولة والفداء والنهضة الفكرية»، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص١٢٦.



الشـــيخ العـــدوي

(١٢٢١-١٣٠٢هـ=١٨٠٦-١٨٨٦م)

يعزل الخديوي توفيق

كان علماء الدين المدركون لحقيقة دورهم، المعتصمون بالله، دائما في قلب كل معركة خاضتها الشعوب من أجل حريتها واستقلالها، إن لم يشاركوا بالحرب والقتال فهم يشاركون بكلمة الحق في وجه السلطان المستبد، يدعمون جبهات القتال بالعلم الديني وبتحفيز النفوس وتقوية الهمم.

في ثورة عرابي، كان للمشايخ صولاتهم وجولاتهم، جاهدوا بالكلمة والقلم والفتوى وحملوا السلاح. إضافة إلى النديم خطيب الثورة، وعرابي قائدها، والاثنان نهلا من علوم الدين - تتلمذا على مشايخ الأزهر، يأتي «الشيخ حسن العدوي»، (١٢٢١ - ١٣٠٣هـ) (١٨٠٦ - ١٨٨٦م) وهو من كبار علماء الأزهر، ومن أقطاب المؤتمر الوطني الذي أقامه الوطنيون لمساندة الضباط الثائرين على ظلم الخديوي.

هذا العالم الكبير لم يكتف بمهمة إعداد النفوس والقلوب لرفض الظلم والاستبداد فقط، وإنما تصدى للخديوي عندما تحالف مع الإنجليز ضد عرابي ورفاقه،فأفتى هو والشيخان«محمد عليش» و«محمد الخلفاوي» بعزل «توفيق» عن حكم البلاد.

وطنى غيور:

هذا الموقف لم يكن جديدا على الشيخ «حسن العدوي»، ذلك الرجل الوطني الغيور الذي استمد منهجه من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران، آية ١٠١]، فهم الشيخ هذه الآية حق الفهم فجعلها منهجا له، فأعزه الله بعزته، فلم يكن يخشى في الله لومة لائم، لا يقول، لسانه إلا الحق وقول الصدق، حتى ولو كان مراً.

وقر في قلب وعقل الشيخ منذ أن أخذ العهد على أيدي شيوخه ومعلميه أن العلماء ورثة الأنبياء ماداموا على الحق وماداموا يعملون به ويدعون الناس إليه، ولم يكن يؤمن بذلك قولا فقط، وإنما كان يبدأ بنفسه، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر.

في عهد الخديوي إسماعيل، الذي أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا، ورغم نياته الحسنة، لف الأوربيون حبل الديون حول رقبته فغرق وأغرق مصر معه، في هذا العهد، زار السلطان العثماني «عبدالعزيز» مصر. وكان «إسماعيل» حفيا بهذه الزيارة، لأنها كانت جزء من برنامجه لتأكيد سلطانه وتوكيد صلته بأولي الأمر في تركيا، وزاد في الحفاوة والتكريم أملا منه في الحصول على لقب خديوي، إضافة إلى غيرها من الامتيازات التي كان يطمع في الحصول عليها من السلطان لتمكن له الاستقرار في حكم مصر.

المقابلة السنية:

وحتى يبين «إسماعيل» للسلطان «عبدالعزيز» أنه يستحق أن ينعم عليه بكل مايريده، لأن الشعب بكل طبقاته يدين بالولاء ويحب «إسماعيل»، حتى طبقة العلماء، التي كان يخشى جانبها دائما. من أجل ذلك تضمن برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السرايا.

ولما كانت للمقابلة السنية تقاليد لابد أن يراعيها الجميع بين يدي السلطان، منها أن ينحني الداخل إلى الأرض، وغير ذلك من التقاليد المنافية لروح الإسلام الحنيف، التي تجعل السجود والركوع لله سبحانه وتعالى فقط. فلا انحناء إلا لواهب الموت والحياة.

وكان رجال السرايا يدربون العلماء قبل هذه المقابلة بعدة أيام، كي لا يخطؤوا في حضرة السلطان،حتى لا يغضبوه ويكون في حالة مزاجية ونشوة وسرور تجعله ينعم على حاكم البلاد باللقب الذي يطمح ويطمع في الحصول عليه.

وعندما حان الموعد، دخل السادة العلماء الأجلاء على السلطان، كان منهم من نسى دينه، واشترى به دنياه، طمعاً في رضاء السلطان وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات التي تقلل من قدر أى إنسان، فما بالك بورثة الأنبياء.

***

مرفوع الرأس:

وبعد اللقاء خرج هؤلاء بظهورهم موجهين وجوههم إلى الخليفة العثماني، كما أمرهم رجال التشريفات، إلا عالما واحدا، هو الشيخ «حسن العدوي»، ذكر دينه ونسى دنياه، واستحضر في قلبه أنه لا عزة إلا لله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. دخل الشيخ مرفوع الرأس في كرامة وإباء، كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار، وواجه الخليفة بتحية الإسلام: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. فرد عليه الخليفة التحية.

ولم يفوت عالم الدين الفرصة، فربما لا يتمكن من رؤية الخليفة مرة أخرى، وهو يعلم أنه الرأس المدبر لكل ما يدور في السلطنة، ووراء كل ما يحدث للمسلمين، ورسالته كعالم دين توجب عليه أن يؤدي واجبه تجاه هذا الحاكم، وتجاه رعيته.

ابتدر الخليفة بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالم الحاكم، دعاه إلى تقوى الله والخوف من عذابه، والعدل والرحمة بين رعاياه، فلما انتهي سلم وخرج مرفوع الرأس، معطيا ظهره للخليفة وإسماعيل وحاشيته(*).

ما فعله الشيخ أصاب الخديوي ورجال السرايا بالخوف والفزع من رد فعل «السلطان عبد العزيز»، بعد هذا التصرف المرفوض - من وجهة نظرهم - من جانب «الشيخ العدوي» الذي لم يلتزم بطريقة المقابلة التي رتبتها السرايا. وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم، وأن السلطان لابد غاضب، وضائعة تلك الجهود التي بذلوا والآمال التي نسجوا.

الكلمة المؤمنة:

ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سدى، والكرامة لا تأتي أبداً إلا بالخير، فالكلمة المؤمنة لابد أن تصدع القلوب قوية حارة كما تنبعث من مكمنها قوية

(*) د. عبد الرحمن عميرة، «مواقف العلماء أمام الحكام والولاة»، دار العلم والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٤٨.

حارة، وهكذا كان. فقد أكبر السلطان هذا السلوك الحميد من «الشيخ العدوي» الذي لم يهن دينه ولم تهن كرامته، وقام بواجبه، وقال السلطان موجهاً حديثه إلى «إسماعيل»: ليس عندكم إلا هذا العالم التقي الورع، العارف لوظيفة العلماء وواجبهم تجاه السلطان والرعية، ولم يخلع السلطان أية خلعة هدية إلا على «الشيخ العدوى».

وتمضي الأيام ويخلف الخديوي توفيق والده «إسماعيل»، الذي عزله السلطان، وإن كان توفيق قد بدأ عهده ببعض الإصلاحات التي أراد من خلالها أن يخفف المعاناة عن الشعب، ويجمع حوله النخبة منه، فإن موقفه من التدخل الإنجليزي في شئون البلاد وترك أمور الجيش في أيدي الشراكسة، وقصر الترقي عليهم أغضب العسكريين المصريين ومعهم الوطنيين الغيورين على بلدهم، وكان في مقدمتهم العالم الكبير «حسن العدوي». الذي كان رغم تقدم العمر به، ما يزال على العهد والاقتناع الكامل بأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر - كما قال الرسول ﷺ فلما أن قدم الضباط المصريونشكواهم إلى الخديوي توفيق بتحسين أحوال الجيش، حتي دب الخلاف بينهم. وبين الخديوي، الذي رغم إذعانه لطلباتهم، وفتح باب الترقيات أمامهم وتكوين مجلس نواب، وتشكيل وزارة وطنية برئاسة «محمود سامي البارودي» كان عرابي وزيرا للحربية فيها، إلا أنه وبمشورة الإنجليز انقلب ضد الضباط، وجرت محاولة لتصفية «عرابي» وأتباعه، ثم تطورت الأمور إلى نزول الإنجليز بالإسكندرية.

عزل الخديوى:

في هذه الأوقات العصيبة من تاريخ الوطن تُعرف أقدار الرجال، وهنا هب «الشيخ العدوي» مشاركاً في صفوف الثائرين يجمع الكلمة ويوحد الرأي المؤيد للقوي الوطنية.

وعندما غالى الخديوي في مواقفه الموالية للإنجليز والمحبطة للوطنيين والثوار لم

يتوان «الشيخ العدوي» عن الإفتاء بأن الخديوي بتصرفاته هذه يكون خارجاً عن الإسلام، وبالتالي لا بد من عزله من حكم البلاد. وذيل هذه الفتوى هو والشيخين «محمد عليش» و«محمد الخلفاوي» من علماء الأزهر. وأصر الثلاثة على نشر وإذاعة هذه الفتوى بين الناس، رغم ما فيها من تحد القوى المؤيدة للخديوي، دون خوف أو رهبة.

فلما حلت الهزيمة وقُبض على «عرابي» والعرابيين، كان «العدوي» واحداً من الذين قدموا للمحاكمة. كانت المحكمة مؤلفة من لفيف من الباشوات ومن رجال الخديوي وعدداً من الإنجليز، أمام المحكمة وقف «الشيخ العدوي» الذي قارب سن الثمانين في مهابة وإجلال، لم يتطرق الخوف إلى قلبه، كان ثابت الجنان، فقد أقدم على ما أقدم عليه وهو لا يبغي إلا نصرة الحق مهما كانت النتائج.

الشيخ الشجاع:

سأله رئيس المحكمة «إسماعيل باشا أيوب» بصوت غليظ جاف: هل وقعت باسمك أو ختم بخاتمك قراراً يقضي أن أفندينا المعظم سمو الخديوي توفيق باشا يستحق العزل لأنه مارق عن الدين ويتعاون مع الإنجليز أعداء البلاد؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السن يستعيد حمية الشباب وحماسته، فنظر إلى أيوب باشا نظرة حادة ثابتة وهو يتكئ بذراعيه على منضدة أمامه وقال: أيها الباشا، إنني قد وقعتها، ولكنني أقول لك ما يأتي:

إنه إذا أحضرت لي الآن ورقة تحتوي علي مثل هذا المعنى الذي ذكرته، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي، وأختمها بخاتمي في حضورك الآن أيها الباشا.

ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلا: إذا كنتم مسلمين فهل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا قد خان بلاده وذهب إلي الإنجليز وانضم إليهم، ولم يعد جديرا بأن يكون حاكما لنا؟.

واصفر وجه الباشا رئيس المحكمة الذي كان يظن أنه يخيف المحكومين، وأن

الشيخ رهبة من العقاب الذي ينتظره ويمكن أن يتراجع أو يُنكر ما حدث منه، ولكنه أمام شجاعة الشيخ المسن لم ينطق بكلمة واحدة يرد بها على هذا العالم الشجاع الجريء، وأومأ إلى حراس المحكمة أن يأخذوه ويخرجوا به من قاعة المحكمة، ثم نقلوه إلى قريته واعتقلوه فيها(*).

هكذا كان شيوخ الأمس، فهم ملح الأمة، وشتان بينهم وبين شيوخ اليوم الذي قال فيهم الشاعر:

يا علماء الأمة يا ملح البلد ... ماذا يصلح الملح إذا الملح فسد



(*) د . سمير محمد طه: «أحمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية» الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٨٨٦م.



جمال الدين الأفغاني

(١٨٣٩-١٨٩٧م=١٢٥٤-١٣١٥هـ)

داعية توحد
في وجه العدو

عندما طاف المصلح «جمال الدين الأفغانى»، عدداً من مناطق العالم الإسلامى، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وجد فيها أحوالاً تثير الحزن والخوف، وتصعب على كل ذى ضمير.

فقد كان المسلمون والعرب نهباً للاستعمار وغارقين في الجهل والتخلف والفقر. وكتب الأفغانى في وصف دائهم والدواء اللازم، ما يكشف عن عبقرية متميزة.

ولم تستجب دعوة الأفغانى، وكأننا مازلنا اليوم كما كنا في زمنه، مع إضافة صفة جديدة إلى أوضاعنا، وهى تهمة «الإرهاب» وشراسة تكالب الآخرين علينا.

وفي وسط هذا النفق المظلم الذى تسير فيه الأمة العربية والإسلامية، وتلك الأوضاع المأساوية التى جعلت الأعداء ينقضون عليها من كل صوب، ويتداعون عليها يقتلون الأبرياء المدافعين عن حقوقهم في فلسطين، ويحاصرون الأطفال والنساء في العراق، ويرفعون عصا التهديد في وجه كل من يحاول الذود عن الكرامة العربية الجريحة. في هذه الأوقات العصيبة، يطل علينا وجه من أبطال التاريخ الإسلامي، يصرخ فينا شعوباً وحكاماً يطالبنا بنبذ الخلاف والتوحد في مواجهة العدو.

حدد جمال الدين الأفغانى رسالته وهدفه بقوله: «لقد جمعت ما تفرق من الفكر ولممت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفنى الأفغان، وهى أول أرض مس جسمى ترابها، ثم الهند وفيها تثقف عقلى، فإيران بحكم الجوار والروابط، فجزيرة العرب، من حجاز هى مهبط الوحى، ومن يمن وتابعتها، ونجد، والعراق، وبغداد، وهارونها ومأمونها، والشام ودهاة الأمويين فيها، والأندلس وحمراؤها وما آل إليه أمرهم، فالشرق.. الشرق، فخصصت دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه، فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله، وتشتت أدائهم واختلافهم علي الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم».

نظرة للحياة:

يُعتبر «جمال الدين الأسد آبادي الأفغانى»، من أعلام النهضة الفكرية الحديثة، في النصف الثانى من القرن التاسع عشر، واجتمع له من الصفات العقلية، والعلمية، والأخلاقية، النادرة، والزهد في الدنيا والقوة في طلب الحق لكل مظلوم، فرداً كان أم جماعة أم دولة، ما جعله محط الأنظار شرقا وغربا. وهو الذى قال حين طُلب منه أن يكتب سيرته الذاتية، وأى نفع لمن يذكر أنى ولدت سنة ١٢٥٤هـ، ١٨٣٩م، وعمرت أكثر من نصف عصر، واضطررت إلى ترك بلادى الأفغان مضطربة، تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأُكرهت علي مبارحة الهند، وأُجبرت على الابتعاد عن مصر، أو إن شئت، قل: «نُفيت منها ومن الأستانة»، مقر الخلافة العثمانية وقتها، ومن أكثر عواصم الأرض، كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرنى، وليس فيها أدنى فائدة للقوم. أما القول إنها لا تسرنى لا بمعنى أنى نفيت من البلاد أو سجنت، كلاً. لأنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العُتاة «رياضة». والنفى في سبيل ذلك السبيل «سياحة»، والقتل «شهادة»، وهى أسمى المراتب، فأنا عن نفسى غير راض، ذلك لأن الخمول قد قعد بى، فلم يوصلنى إلى أسمى مرتبة وهى «مرتبة الشهداء» وحطنى في مصاف المنفيين من أرض إلى أرض، فما أبعدنى في كل ذلك عن أولى الهمم، ومن قاموا بالأعمال الخطيرة، أو المطلب الجلل».

كان «جمال الدين الأفغانى»، مثالاً للمناضل، مثالاً من أجل بعث إسلامى جديد، وحركة إسلامية ناهضة تستعيد للمسلمين مجدهم السالف، وعزهم الغابر، متمسكين بالجذور الأصيلة للإسلام في مواجهة الهجمة الغربية الاستعمارية الشرسة. وكان يرى أن تحقيق هذا الهدف يتطلب قيام جامعة إسلامية، تضم كل المسلمين في وحدة سياسية للعالم الإسلامى، حيث ترتبط دولة ببعضها بعضاً، بروابط سياسية، واقتصادية محكمة، إمامها القرآن والشورى، ولا تتخلى عن الأخذ بأسباب التقدم العلمي الذى برع فيه الغرب.

***

من سلالة الحسين:

وَلِدَ «جمال الدين الأسد أبادى الأفغانى» سنة ١٨٣٩ للميلاد، في قرية «أسعد آباد» من قرى منطقة كنر القريبة من كابول، العاصمة الأفغانية، لأسرة تنحدر من أصول عربية حجازية، يرجع بها النسب إلى الإمام الحسين بن علي بن أبى طالب، مروراً براوى الحديث المشهور الإمام «الترمذى». وكانت أسرته ذات نفوذ سياسى وإدارى في منطقتها.

انتقل في الثامنة من عمره، مع الأسرة إلى العاصمة كابول، عندما خشى دوست محمد خان، حاكم البلاد وقتها، من نفوذ أسرة «جمال الدين»، فسلبهم أرضهم وإمارتهم وأرسلهم إلى العاصمة، حتى يكونوا بين يديه وتحت عينيه. وأخذ والده «صفتر»، يشرف على برنامج تعليمه في تلك السن.

وبلغ الثامنة عشرة، وكان قد درس مبادئ العلوم العربية، وعلوم الشريعة من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وكلام، وتصوف، ومنطق وأخلاق، وسياسة، وسافر إلى الهند، فأقام هناك سنة ونصف السنة استطاع أثناءها أن يلم ببعض المعارف الحديثة، من حساب وهندسة وفلك وجبر، وحتى نظريات الطب والتشريح. كما تعلم مبادئ اللغة الإنجليزية، فجمع الحكمتين، ثم سافر من الهند إلى الحجاز سنة ١٨٥٧م، لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى كابول موظفاً في حكومة الأمير الحاكم، دوست محمد خان، إلى أن نشبت الحرب الأهلية، إثر انقسام أبناء الأمير على أنفسهم بعد وفاته، وانضم «جمال الدين» إلى «محمد أعظم» أحد هؤلاء الإخوة، الذى كُتب له النصر، وارتفع شأن «جمال الدين» عند ذلك الأمير، فاتخذه كبيراً لوزرائه.

وتجددت الحرب الأهلية، وناصر الإنجليز الأمير «شير على» وأمدوه بالمال والسلاح فانتصر على أخيه، واضطره ذلك إلى الفرار من البلاد، فانتقل «جمال الدين» إلى الهند منفياً، سنة ١٨٦٩م. وأحاطه الإنجليز بعملائهم، ولم يسمحوا له

بالاتصال بزعماء المسلمين، ولم يقم في الهند أكثر من شهر، ثم طلبوا منه مغادرة البلاد.

الاتجاه إلى مصر:

اتجه «جمال الدين» إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٦٩م/ ١٢٨٦هـ، وكانت شهرته قد سبقته إلى الديار المصرية، وسعى الإمام الشيخ «محمد عبده»، إلى لقائه. وكان هذا اللقاء مقدمة للصلة الوطيدة بينهما. ولكن «جمال الدين»، لم يمكث في مصر أكثر من أربعين يوماً ذهب فيها إلى الأزهر، وألقى دروساً في النحو والحكمة على الطلبة الشوام «أبناء بلاد الشام» الدارسين في الأزهر. وذهب من القاهرة إلى إستنبول، فرحب به العلماء وأصحاب المناصب، وأكرم السلطان عبد الحميد وفادته.

ولم يضيع «جمال الدين» الفرصة في الدعوة إلى الإصلاح الدينى والسياسى، فطار صيته في أنحاء تركيا، غير أن هذا النجاح، الذى لقيه، أوغر صدور الحاقدين العاجزين، فطلب السلطان من «جمال الدين»، أن يغادر البلاد تسكيناً للخواطر، فرحل عنها إلى مصر من جديد، سنة ١٨٧١م.

وتعتبر فترة إقامة الأفغانى في مصر من (١٨٧١ - ١٨٧٩م)، من أهم فترات كفاحه السياسى، والتنويرى، فوجد الشباب المصرى والعربى عند جمال الدين، روحاً جديدة غير مألوفة عندئذ، وجدوا عنده مذهباً متكاملاً عن الدين والحياة، والكون، والإنسان، والحرية، ومقاومة التغريب، وضرورة التمسك بالمنبع الأصيل للثقافة الإسلامية، وهو القرآن الكريم. وقد استطاع الأفغانى بخطبه الملتهبة، أن ينفث في النفوس نزوعاً إلى الحرية، ورغبة في العدالة، وخطب مرة في الإسكندرية، قبل خلع «الخديوى إسماعيل»، فقال: «أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتنبت ما تسد به الرمق، وتقيم أود العيال، فلم لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة تعبك؟».

وبذل جهداً كبيراً في تنبيه المصريين إلى مضار الاستكانة لتدخل الأجانب في

شؤونهم، فخطب فيهم: «لو كان في عروقكم دم ينبض، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر، فتبعث النخوة والحمية، لما رضيتم بهذا الذل، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم تضحكون، تناوبتكم أيدى الغزاة من كل جنس، وأنتم كقطع الصخر الملقاة في الفلاة، لا صوت لكم ولا حس».

ولم يكتف الأفغانى بالخطابة، الدروس، واللقاءات مع القوى الوطنية في ذلك الوقت، وإنما أخذ يكتب في الصحف كتابات نارية، كان ينشرها باسمه أحياناً، أو بأسماء تلاميذه، أو بأسماء مستعارة، فاتخذت حكومة «الخديوى توفيق»، قراراً بنفيه، بحجة «أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا!»

إلى الهند:

غادر «جمال الدين» مصر متجهاً إلى الهند، وأقام في مدينة «حيدر آباد» حيث ألف باللغة الفارسية كتابه «الرد على الدهريين»، الذى نقله الشيخ «محمد عبده» إلى العربية، ورد فيه على أصحاب المذهب الطبيعى، الذى انتشر في الهند، بتأييد من المستعمر الإنجليزي، وقال في الكتاب: «ومقصد أرباب هذه الطريقة «الدهرية»، محو الأديان وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية»، ثم يقول: «إذ لا ريبة في أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي، ولن يستحكم أساس للتمدن من دون الدين البتة. وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان وطرح كل عقيدة دينية، أما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سالكيها، مع طول الزمن على نشأتها، فسببه أن نظام الألفة الإنسانية، وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية، كانت له الغلبة على أصولها الواهية، وشريعتها الفاسدة».

وقامت الثورة العرابية في مصر، إبان إقامة الأفغانى في الهند، فأبعدته الحكومة الهندية من حيدر آباد، وفرضت عليه أن يقيم في «كلكتا» إلى أن انتهت الثورة العرابية، باحتلال الإنجليز مصر، وعندئذ سُمح له بمغادرة الهند إذا شاء، فذهب

إلى باريس، وأقام فيها ثلاث سنوات حافلة بالنشاط السياسى في الدعوة إلى تخليص البلاد الشرقية من تدخل الحكومات الغربية في شؤونها، وفي الدفاع عن عقائد الإسلام كلما تعرضت للهجوم عليها، من المغرضين.

العروة الوثقى:

والتقى «الأفغانى» في باريس بتلميذه وصفيه، الإمام الشيخ «محمد عبده»، الذى أُبعد عن مصر لاشتراكه في الثورة العرابية، وفي العمل ضد المحتل الإنجليزي، والحكام المتعاونين معهم، وأصدر الشيخان في باريس، مجلة «العروة الوثقى»، ولخصا في العدد الأول، الصادر في الخامس من جمادى الأولى عام ١٣٠١هـ (الثالث من مارس ١٨٨٤م)، أهدافهما من إصدار هذه المجلة في عدد من المبادئ هى:

- بيان الواجب على الشرقيين، وأسباب فساد حالهم.

- إشراب النفوس عقيدة الأمل، وترك اليأس.

- الدعوة إلى التمسك بالأصول، التي كان عليها أسلافهم وعزوا بها.

- الدفاع عما يُتهم به الشرقيون عموماً، والمسلمون خصوصاً، خاصة أنهم لن يتقدموا ماداموا متمسكين بدينهم.

- إخبارهم بما يهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

- تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وتمهيد الطريق إلى جامعة إسلامية، تعيد شأن الإسلام الأول، وتقوية فكرة الرابطة الشرقية، بتقوية العلاقات السياسية، والتجارية بين شعوب الشرق، صداً لتيار الغرب وزحفه.

ولم يصدر عن هذه المجلة سوى ثمانية عشر عدداً، قبل أن تتوقف. فقد صودرت في الهند، ومصر، وفُرضت غرامات مالية باهظة على كل من يقرؤها أو يقتنيها.

السودان وأيرلندا:

وزار «الأفغانى» لندن، أثناء وجوده في باريس، ليناقش جوانب الثورة المهدية،

التي قامت في السودان، وحاول محاوروه الإنجليز، التعرف على رأيه في المسألة السودانية، أوضح لهم خطأ سياسة إنجلترا نحو الإسلام، ومصر والشرق عموماً، فاقترحوا عليه تتويجه سلطانا على السودان، لاستئصال ثورة المهدى، وتحقيق أهداف بريطانيا فرفض، لأن بريطانيا تعطى ما لا تملك من لا يستحق، والأولى ببريطانيا إصلاح أيرلندا، فأعجب به الأيرلنديون الأحرار.

ثم استدعاه ناصر الدين، شاه الفرس إلى طهران، وقربه إليه وعهد إليه بوزارة الحربية مع لقب «مستشار خاص للشاه». لكن الشاه ما لبث أن خاف من شعبيته، وخشى على سلطانه منه، فتنكر له، ولما شعر «جمال الدين»، بأنه غير مرغوب فيه، استأذن الشاه في السفر إلى روسيا القيصرية.

وأقام في مدينة «بطرسبرغ»، أربع سنوات، نشر فيها عدة أبحاث عن العالم الشرقى، والسياسة الدولية، والتقى القيصر، لكنه سرعان ما اختلف معه حول دور الشورى والشعب، في تسيير دفة الأمور، فأمر القيصر بإخراجه من روسيا. وتجول في أوروبا، والتقى صدفة مجدداً، الشاه الفارسى في «ميونيخ» عام ١٨٨٩، واعتذر له الشاه، وطلب منه أن يعود إلى طهران، فرجع معه لتنظيم الدولة، فسنَّ لها قانوناً تكون فيه الحكومة ملكية شورية، ثم دخل في صراع ضد الشاه، الذى تواطأ مع الاستعمار ضد دولة الخلافة، وضد الحركة الوطنية الإيرانية، وأجبر الشاه على سحب امتياز شركة «التبغ» البريطانية «ريجى». بعد أن نجح في جعل الشعب يقاطع إنتاجها، وهو ما جعل الشاه يرسل خمسمائة من فرسانه يقتحمون على «الأفغانى» فراش مرضه، ليقودوه علي محفة خشبية، وهو ينتفض من الحمى، إلى البصرة فى العراق، فقامت ثورة من مريديه أخمدها الشاه، الذى طعنه رجل من أهل فارس وقتله ثأراً «لجمال الدين».

الأسد المكبل بالذهب:

استدعاه السلطان «عبد الحميد»؛ الذى كان حريصاً على استبقائه على مقربة منه

ليتيسر له مراقبته، ولما وصل خبر اغتيال الشاه في إيران، أظهر الأفغانى سروره، فزاد السلطان «عبد الحميد» فزعاً منه، وأمر بتشديد الرقابة عليه، وظل «الأفغانى» في مدينة استانبول خمس سنوات، قضاها كما وصفه سائح ألمانى، زاره سنة ١٨٩٦م، «فى سجن النعمة، خلف قضبان من ذهب»، ولم يتزوج جمال الدين الأفغانى، تخففا من أعباء الأسرة، وتفرغاً لكفاحه. وعندما أهداه السلطان إحدى جواريه الجميلات، ليقيد حريته بالزواج، رفض.

الوفاة:

توفى «جمال الدين الأفغانى»، صبيحة التاسع من مارس سنة ١٨٩٧م-١٣١٥هـ، متأثراً بمرض السرطان، الذى أصاب فكه، وقيل إن السلطان «عبد الحميد» دس عليه من ساعد على موته، ودفن في قبر متواضع جداً، ظل مهجوراً حتى شيده العالم الأمريكى كرين، سنة ١٩٢٦م، ونُقل الرفات سنة ١٩٤٤م إلى بلاده أفغانستان، عبر البلاد العربية، في موكب رسمى وشعبى.

من أقواله:

الاستعمار الثقافى

نبه الأفغانى الشعوب الإسلامية إلى خطر جديد هو الاستعمار الثقافى فقال: «يتخذ الغربيون في الشرق أساليب عجيبة للقضاء على الروح القومى، وقتل التربية الوطنية، وتقويض الثقافة الشرقية: فتراهم يزيفون للشرقيين أن ينكروا على قومهم كل مأثرة وكل فضيلة، ويلقون في روعهم أنه ليس في لغاتهم العربية أو الفارسية أو الهندية آداب تؤثر، ولا في تاريخهم مجد يذكر، ويوهمونهم بأن قصارى المجد للشرقى النابه أن ينفر من سماع لغته، وأن يتباهى بأنها لا يحسن التعبير بها، وإن ما تعلمه من الرطانة الغربية هو غاية ما يستطاع بلوغه من الثقافة الإنسانية: ألا ليت الشرقيين يدركون أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مأثر رجالهم».

الوصول إلى القمر والأجرام السماوية الأخرى:

وكأن جمال الدين كان يستشرف المستقبل واختراعاته حين قال «... وعندى، إذا ظفر العقل في هذا الحراك والجدال، وتغلب إقدامه على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، لا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص في البحار يسابق الحيتان، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره، كأنه قاب قوسين أو أدنى، وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر، أو الأجرام الأخرى؟!».

الاتجاه العقلى في الإسلام:

وكان الأفغانى يهيب بالمسلمين على اختلاف مذاهبهم أن يستعملوا هذا المبدأ العقلى الذى امتاز به الإسلام على سائر الأديان فيقول: «هذا الدين يطالب المؤمنين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل: تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة، وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة»(*).

الحث على الجهاد ضد المستعمر:

كان يردد دائماً «أنرضى ونحن المؤمنين، وقد كانت لنا الكلمة العليا، أن تُضرب علينا الذلة والمسكنة؟! أو أن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة؟! بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء، حتى يخلى منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته؟!».

وعندما يناقش العلاقة بين الشعب ومستعمريه، ويحدد معالم «الخيانة»، فإنه لا يراها مقصورة على «المتعاونين» مع الأعداء بل ويراها كذلك عارا لاصقا بالسلبيين، والمتهادنين في المعركة ضد هؤلاء الأعداء فيقول: «لسنا نعنى بالخائن من

(*) د. محمد عمارة، «الإسلام بين التنوير والتزوير»، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص٢٤٥.

يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس، وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس - بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها».

العقل مرة أخرى:

ثم يعود الأفغانى ليتحدث عن العقل مرة أخرى فيستعير كلمات ابن عربى التى يقول فيها: أيحسب الإنسان أنه جرم صغير؟ وفيه انطوى العالم الأكبر ثم يمضى قائلا: «نعم.. إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا، وما صوره جحوده وتوقف عقله عنده بأنه «خيال» قد أصبح حقيقة».

معنى الإرهاب:

ثم يتحدث الأفغانى في مقال له عن حرب الشعب مهاجماً الذين يصفونها بأنها «إرهاب» فيقول: «إنما ننادى على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه، وماله، وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة».

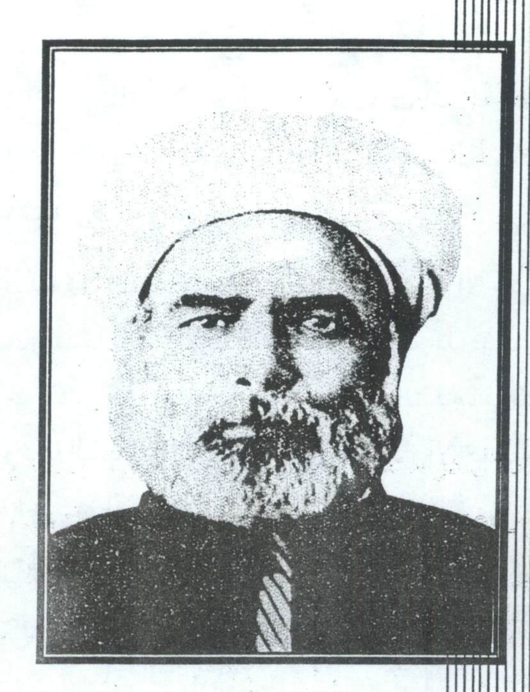
ثم يقول: إن مقاومة الأهالى أشد أضعاف مضاعفة من القوى العسكرية - النظامية- ... وما جرى لحكومة إنجلترا مع الأفغانيين أعظم شاهد على ما نقول. دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكرى، واستولت على المدن، وكاد قدمها يرسخ في البلاد، فلما قام الأهالى من كل صقع، والتحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان عجز الستون ألفا عن الوقوف موقف الدفاع، واضطرت حكومة إنكلترا بعد تسلطها سنتين، وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترلينى إلى ترك البلاد!!

رحم الله «جمال الدين الأفغانى» ذا البصيرة النافذة التى كانت تستشرف آفاق المستقبل وتعبر عنه.

ونعتقد أن خير ما يصور شخصية «الأفغانى»، في طموحه وإبائه هو ذلك المعنى الذى أشار إليه هو نفسه في بيت الشاعر العربى:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم — بين طعن القنا وخفق البنود





الإمام محمد عبده
(١٨٤٩-١٩٠٥م=١٢٦٦-١٣٢٣هـ)

أفتى بعزل الخديوي وانضم إلى الثوار

وسط الظلمة الحالكة التي عاشها العالم العربى والإسلامي في القرن التاسع عشر، برزت أسماء مضيئة بعقول متفتحة وبصائر نافذة نغبطهم عليها نحن أبناء القرن الحادى والعشرين. ففى تلك الأيام الصعبة ظهرت أسماء عظيمة في فضاء العالم الإسلامي، منها «جمال الدين الأفغانى»، و«عبد الرحمن الكواكبى»، و«محمد عبده» وبعدهم «محمد رشيد رضا» وغيره.

أنار الشيخ «محمد عبده »كرائد عظيم للإصلاح الديني والاجتماعي. الطريق أمام دعاة الإصلاح للسير قدما نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية. وكشف الإمام للناس عن كثير من وسائل النهضة وسبل التقدم، فرفع راية الجهاد ضد مظاهر التخلف، ودعا الشباب إلى نبذ أسباب الجمود والأخذ بأسباب التقدم، وسار يناهض سطوة الحكام الإنجليز ويزيل ظلام الغشاوة من عيون الناس، ليقاوموا الفساد. ويطردوا عن أنفسهم عوامل اليأس والقنوط، اللذين أصاباهم بسبب الاحتلال الأجنبي البغيض لأرض «الكنانة» الذى أدى إلى تخلفهم عن اللحاق بالركب الحضارى العالمى الناهض.

وأدرك «محمد عبده»، ببصيرته النافذة أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فالدين هو أساس الإصلاح في كل زمان ومكان، فشرع في تطوير الأزهر، مناهجه ومدارسه وراح يعقد الحلقات التعليمية ليوضح للناس مراد الله من خلقه. وأخذ يكتب المقالات التنويرية في الصحف، ليرقى بعقول الناس ويعلو بثقافاتهم. وكان له في كل وظيفة تقلدها أو عمل تولاه بصمات تجديدية واضحة، غايتها نبذ التقليد العقيم السائد وتحقيق الإصلاح الدينى والاجتماعي والفكرى.

ولم يكن الطريق الذي سلكه «محمد عبده» لتحقيق الإصلاح مفروشاً بالورود. بل كان مليئا بالأشواك مرصوفا بالوعورة.

وهو الذى وصفه مستشرق أمريكي فقال: «كان محمد عبده فلاحاً صميماً. وليد تربة مصر العريقة، قبل أن يغدو فقيهاً وإماماً للمسلمين، وإننا لنلمح فيه إخلاصه

لبلده وفي دعوته إلى الوطنية مزاجاً عجيباً من الوفاء للماضي المجيد، والاستمساك بيقين الدين».

كان شخصية منفتحة على العالم، وهذا ما جعل البعض يعترض عليه قائلا: «ما هذا الشيخ الذي يتكلم الفرنسية، ويسيح في بلاد الإفرنج، ويترجم مؤلفاتهم، وينقل عن فلاسفتهم، ويباحث علماءهم، ويفتى بما لم يقل به أحد من المتقدمين؟».

نشأة متابرة:

كانت حياة الإمام مثل شخصيته خصبة، حافلة صنعها بقلبه، وقالبه، فكان يطالع ويتعلم، ويحرر جريدة الوقائع المصرية، ويُلهم الثورة العرابية وينشر دعوة العروة الوثقى في العالم الإسلامي كله، ويشتغل بالقضاء، في المحاكم ويُعلم في الأزهر، ويُصدر الفتاوى المستنيرة، ويشترك في جلسات مجلس شورى القوانين. وفي مجلس الأوقاف الأعلى، ويؤلف الرسائل الدينية، وينشر المقالات السياسية والفلسفية، ويُفسر القرآن من خلال رؤيته الثاقبة، التي ترى أن إصلاح الأمة لا يكون إلا بإصلاح عقول وقلوب أبنائها.

وُلدَ الشيخ «محمد عبده» عام ١٨٤٩م، ١٢٦٦هـ. في قرية «محلة نصر» في محافظة البحيرة، لأسرة متوسطة الحال تعمل في الزراعة، وتوسم أبوه فيه ذكاء ونبوغاً، فأراد أن يجعله من رجال الدين، فأدخله كتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم. وجاوز العاشرة من عمره، وأتم حفظ القرآن الكريم. وذهب إلى الجامع الأحمدى في طنطا، ليتم تجويد القرآن ودراسة قواعد اللغة العربية، لكن منهج التعليم في الجامع الأحمدى،كان شاقا على الصبى الصغير، الذى كاد يعتريه اليأس، ففكر في أن يعود إلى قريته ويشتغل مثل إخوته في الزراعة لو لا أن التقى أحد أخوال أبيه، الذي أعاد إليه ثقته بنفسه، وقد وصف الإمام الأثر الذى تركه فيه قريبه ذاك، وكان يدعى الشيخ «درويش» فقال: «تفرقت عنى جميع الهموم، ولم يبق إلا هم واحد، هو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس، ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه

نفسى، سوى ذلك الشيخ الذى أخرجنى في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة»(*).

وانتقل الشيخ إلى الدراسة في الجامع الأزهر، عام ١٨٦٦م وحصل منه على شهادة العالمية عام ١٨٧٧م فأصبح من حقه التدريس في الأزهر، وراح يلقى دروساً في التوحيد والمنطق والأخلاق، إلى أن عُين مدرسا للتاريخ الإسلامى في مدرسة دار العلوم، «كلية دار العلوم» حاليا وعُين في الوقت ذاته مدرسا للغة العربية في مدرسة «الألسن».

التقاؤه الأفغانى:

مرت «بمحمد عبده» خلال دراسته الأزهرية، ظروف نفسية جعلته ينقطع عن الدرس والتحصيل، ويحاول اعتزال العالم، وأخذ يمارس ضروب الزهد والخلوة مع النفس، إلى أن وفد إلى مصر عام ١٨٧١ «الإمام الثائر» «جمال الدين الأفغاني»، وكانت شهرته قد سبقته، كداعية للتحرر من الاستعمار الأجنبي ووحدة الأمة الإسلامية، ومجدداً للفكر الدينى معلياً من شأن العقل. فصار الشيخ «محمد عبده» من أقرب تلاميذه إليه، وأقدرهم على فهمه. فلما صدر قرار إبعاد جمال الدين الأفغاني عن مصر للمرة الأولى. قال يوم وداعه لبعض خاصته: «لقد تركت لكم محمد عبده وكفى به لمصر عالماً».

وبدأ «الشيخ محمد عبده» يكتب في صحيفة الأهرام، معبراً عن أفكاره، متأثراً بأفكار أستاذه «جمال الدين الأفغانى»، وكان مما كتبه عام ١٨٧٧م مقال بعنوان: «العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية». جاء فيه: «فعلينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل «الشعوب« والدول، وما الذى نقلهم من حالهم الأول، وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم، إن لم

(*) السيد يوسف، «الإمام محمد عبده رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث»، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الطبعة الألولى، ١٩٨٩، ص١٣.

نقل قد تسلطوا بالفعل. فإذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع إليه، حتى نتدارك ما فات وها نحن بعد النظر، لا نجد سببا لترقيهم في الثورة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم، حتى قادتهم إلى رشادهم، فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا».

ومضى الشيخ في كتاباته إلى جانب عمله في التدريس إلى أن تولى الخديوى توفيق عرش مصر، فشعر بخطر أفكار الأفغانى وتلميذه محمد عبده، على عهده وحكمه، فعزل محمد عبده من التدريس في دار العلوم عام ١٨٧٩م وحدد إقامته في قريته، وبعد عام من تحديد إقامته صدر عنه العفو.

الصحافى الثائر:

أراد رياض باشا إصلاح جريدة الوقائع المصرية وتطويرها، وكانت لسان الحكومة الرسمى، فعين «الشيخ محمد عبده» محرراً فيها، ثم جعله رئيساً لتحريرها، وسار الشيخ في تحرير الصحيفة سيرة إصلاحية حقيقية، فانضم إليها الزعيم سعد زغلول وغيره من كبار المصلحين، المثقفين المستنيرين الذين يحلمون بوطن متطور، يتمسك بأصول الدين من دون قشوره داعين إلى التقدم العلمي، من دون تقليد الظواهر المادية الغربية البراقة.

ثم قامت الثورة المصرية بقيادة الضابط «أحمد عرابى»، فسارع «الشيخ محمد عبده» بتأييدها ومناصرتها بعزيمة وإخلاص، تحقيقا لحرية الشعب المصرى واستقلاله في الداخل والخارج.

وبعد أن تدخل الإنجليز وتم القضاء على ثورة الجيش بقيادة «أحمد عرابى»؛ وُجِّهت إلى «الشيخ محمد عبده» تهمة التآمر مع الثوار، فحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر، ثم بالنفى ثلاث سنوات لأنه أفتى بعزل «الخديوى توفيق»، فاختار الإقامة في سوريا، رحل إليها عام ١٨٨٣م فرحب به أهلها، وأعجبوا بعلمه وفضله، فأقام هناك فترة فاغتنموا إقامته بينهم وعهدوا إليه بالتدريس في بعض مدارسهم.

في المنافى:

ومن سوريا إلى باريس، مستهل العام ١٨٨٤م، ليلتقى أستاذه وصديقه «جمال الدين الأفغانى»، وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك، لينشئا معاً جريدة «العروة الوثقى» فكانت بذلك أول جريدة تصدر بالعربية في أوروبا، وكان مكتبها في باريس ندوة لجميع الشرقيين، من المقيمين والزائرين ولكنها لم تعمر طويلاً، حيث طوردت من الاستعمار البريطانى والسلطات الحاكمة في البلاد الإسلامية المحتلة، وإن كانت قد تركت صداها لدى المسلمين كافة، لما حملته من أفكار متحررة تناقض ما هو مستقر في أذهان البعض.

وسافر «محمد عبده» عام ١٨٨٥م إلى بيروت، وعُهد إليه بالتدريس في المدرسة السلطانية فألقى فيها دروسه المشهورة «في علم الكلام»، وهى الدروس التي كانت ركيزته الأساسية لرسالة كتبها بعنوان «رسالة التوحيد» عن صفات وأفعال الله سبحانه وتعالى. ويبدو أن نشاط الشيخ في بيروت لم يكن على هوى الخلافة العثمانية فسعى «السلطان عبد الحميد» لدى الحكومة البريطانية إلى إصدار العفو عن «الشيخ محمد عبده»، ليعود إلى وطنه مصر، وعاد «محمد عبده» إلى مصر عام ١٨٨٨م، حيث عُين قاضيا في المحاكم الشرعية، وعمل في محاكم بنها والمنصورة، والقاهرة، وعُين عام ١٨٩٥م نائبا لرئيس محكمة الاستئناف في القاهرة. وقد عُرف أثناء عمله في القضاء باستقلال الفكر، وكان يتوخى في أحكامه إيقاظ الوعى وإصلاح ذات البين وديا بين المتقاضين قبل أن يصدر أحكامه.

المفتى:

عُين «الإمام محمد عبده»، سنة ١٨٩٩م مفتياً للديار المصرية، وامتازت فتاواه بالبعد عن التقليد، وكان يضع أمام ناظريه دائماً، الملاءمة بين روح الإسلام، ومطالب العصر، وكان من أشهر الفتاوى التى أثارت عليه سخط الشيوخ المتزمتين، وجلبت عليه ضروبا من القدح والتشهير: إباحته للمسلمين أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة القصوى.

وأفتى بالسماح للمسلمين بأن يتزيوا بزى غير زيهم التقليدى. تيسيرا لهم في أمور معاشهم.

كما أصدر فتواه التي اعتبرت تجديدا مهما في الفقه، وهى الفتوى الخاصة بصحة «نظام التوفير في البريد بالأرباح»، وصحة نظام التأمين، وهو ما ساعد على تأسيس النهضة الأولى للاقتصاد المصرى، عن طريق الادخار الاجتماعي، واستثمار المدخرات لمصلحة المجتمع. وبضرورة تعلم لغات الأمم الأخرى طلباً للعلم والحكمة، وتجنبا للشرور الوافدة أو الثابتة.

وعُين «الشيخ محمد عبده»، يوم الخامس والعشرين من شهر يونيو «حزيران» سنة ١٨٩٩م، عضواً في مجلس شورى القوانين، فسار على نهجه الخاص في السمو عن الأغراض الخاصة، واستهداف المصالح القومية الكبرى، كما كان من أوائل مؤسسى «الجمعية الخيرية الإسلامية» التى كانت تهدف إلى التعاون بين الأفراد ومد يد العون للمحتاجين. وتوفير فرص العمل للقادرين عليه. ويرجع إليه الفضل في إنشاء مدرسة القضاء الشرعى، وتأسيس جمعية «إحياء الكتب العربية القديمة».

ونشر وزير خارجية فرنسا «جبريل هانوتو» مقالا في صحيفة «لوجورنال» الباريسية، سنة ١٩٠٠. بعنوان موقفنا من الإسلام والمسألة الإسلامية، فلما تُرجم المقال ونشر في صحيفة، المؤيد، بادر الإمام إلى الرد مفنداً ما زعمه «هانوتو» من فوارق بين المسيحية والإسلام، في ما يتصل بالخالق سبحانه، وحقيقة القضاء والقدر وحرية الأفعال، ورفض ما زعمه «هانوتو» من قيام التعارض بين الساميين والآريين ولامه في النهاية، لاستخدام معلوماته التاريخية المغلوطة في محاولة التأثير في أفكار الفرنسيين الذى يجهلون حقيقة الإسلام.

وقد اشتهر هذا الرد، كما اشتهر رده على «فرح أنطون»، الذى نشر مقالا عن الفيلسوف «ابن رشد» ورد في سياقه تعريض بالإسلام والمسلمين، وقد نشر الإمام رده هذا في كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» والذى لازال يطبع حتى اليوم.

وكان الإمام «محمد عبده» يردد دائما مقولته الشهيرة: «إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه» وكانت هذه المقولة شعاراً لحياته، التي أفناها في خدمة وطنه ودينه فتعرض لحملات ظالمة رموه فيها بمخالفة العرف، والخروج على طاعة السلطان.

بهذه الروح الثائرة وضع لجريدة «الوقائع المصرية» التي رأس تحريرها ميثاق شرف يقضي بإلزام الصحف جميعاً بالوقوف عند حدود الوقار في ما تكتب، مع إطلاق الحرية لها، في تبيين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب من دون خوف.

عطف الذئب على الحمل :

وحمل في مقالاته على الرشوة والمحسوبية، والإسراف والتفاخر بالمظاهر، وشدد على ترك البدع الضالة لمنافاتها الشرع والعقل، ونادى بوجوب إبطالها وتطهير الإسلام منها. ولم ينس الاستعمار وأذنابه، فكتب يقول: «لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة، إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة وقهرتها بقوة السلاح، وإنما العار الذى لا يمحوه الدهر، هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها، أو طائفة منهم إلى تمكين أيدى العدو من نواصيهم، إما غفلة عن شؤونهم، أو رغبة في نفع وقتى».

وزار بريطانيا عام ١٨٨٤م، وقال لمندوب جريدة بريطانية قابلة: «إننا نرى أن انتصاركم للحرية إنما هو انتصار لما فيه مصلحتكم، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل، لقد قضيتم على عناصر الخير فينا، لكى يكون لكم من ذلك حجة للبقاء في بلادنا».

وكان الإمام يرى أن الخطوة الأولى في كل مسعى فلسفى هي تنبيه الوجدان، وإيقاظ الضمير وإثارة روح النقد تمهيداً للفهم. ولذلك وجدناه في جميع أقواله ومؤلفاته دائبا على مهاجمة «التقليد» أي تقبل آراء الغير من دون المطالبة بالدليل، ومن أجل هذا كان يشيد دائما بمبدأ، الاجتهاد الذى يحافظ علي أصول العقيدة، مع الأخذ بظروف الزمان والمكان وهما متغيران.

وكان يقول: «إن الإنسان يكون حراً عندما يكون خالصا من رق الأغيار، عبداً

للحق وحده، وفي الحق علينا أن نهتدى في حاضرنا بتجارب السلف، ولكن ليس من واجبنا أن نقبل جميع ما يؤثر عنهم. بل ينبغى أن نستعمل الفكر في موروثاتنا. فإن وجدناها صحيحة. قبلناها، وزكيناها. وإلا رفضناها غير آسفين»(*).

ويقول منتقداً القائلين بنظرية الجبريين الذين يحيلون كل شيء في حياتهم إلى القضاء والقدر المحتوم: «إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه، فإن مثل هذا لمن سخف الرأى، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين». ثم يقول: «إن جزءاً من أعمالنا منسوب إلى الإرادة. وذلك ما يسمى «الكسب» وهو مناط الثواب والعقاب».

وكان يرى أن «المشرك هو من يُعظِم سُوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر الإنسان عليه، مثل الاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله»

على أن التوكل الصحيح لا يعنى شيئاً آخر في رأيه سوى: «الثقة بالله، مع استعمال الأسباب الطبيعية، من أجل غايات ترسمها عقولنا».

تفسيره القرآن الكريم:

ووضع تفسيره القرآن الكريم، من خلال دروسه فى علم التفسير في الأزهر الشريف، والذى أكمله من بعده تلميذه السورى الشيخ محمد رشيد رضا، وأصدره فيما عُرف بتفسير «المنار» واعتمد فيه «على إعمال العقل في النص» والاعتماد على التأويل والقياس. لتقريب المعنى من أصول الفكر العقلى، وحدد الإمام «محمد عبده» طبيعة الإسلام الصحيح الذى يجب أن يتمسك به المسلمون بقوله: «ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين

(*) د. إسماعيل إبراهيم، «شخصيات صنعت التاريخ في البطولة والفداء والنهضة الفكرية»، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص١٧٤.

على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وضبطه، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل».

وكان يرى أن إصلاح المسلمين عن طريق الفهم الواعى لدينهم، أسهل وأجدى من إصلاحهم عن طريق الأخذ بأساليب المدنية الأوربية في رؤيتها الاجتماعية التى لا تتوافق معنا، مع إعلاء شأن العقل والعلم في حياة المسلم، والاستفادة بما وصلت إليه الثقافة والحضارة والعلم من ابتكار وتجديد وإصلاح.

وفاة الإمام:

شرع الإمام سنة ١٩٠٥م في نشر الدعوة لإنشاء جامعة مصرية، تقوم إلى جانب الجامعة الأزهرية، لكنه لم يعش حتى يحقق ما دعا إليه، حيث وافاه الأجل في الإسكندرية في ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥م= ٨ جمادي الأولى ١٣٢٣هـ، وهو في أوج نشاطه وعطائه. وكانت وفاته حداداً عاماً في البلاد العربية والإسلامية جميعاً. وتوفى الإمام ولم يعقب ذرية يبقى بها اسمه، ولكنه خلف آثار فكرية يخلد بها ذكره.

مؤلفات الإمام(*)

المؤلفات التي تركها الإمام «محمد عبده» قليلة قلة سنوات تدريسه، لكنها جليلة الأثر وهى:

- تفسير القرآن الكريم.
- مجموعة فتاوى حوالى ألف فتوى.

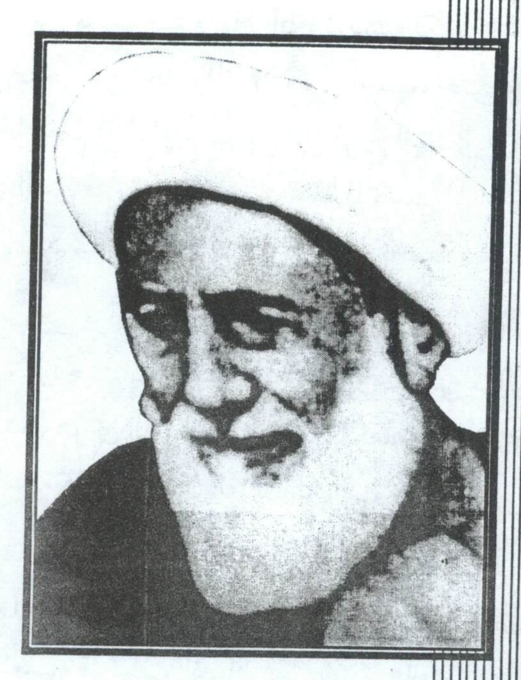
(*) د. كمال الدين عبد الغنى المرسى، «الإمام محمد عبده وأثره في تجديد الفقه والفكر الإسلامى»، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م. ص٤٧.

- رسالة الواردات.
- ترجمة الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغانى.
- شرح مقامات بديع الزمان الهمزانى.
- شرح نهج البلاغة للإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه.
- شرح البصائر النصيرية لابن رسلان.
- رسالة التوحيد.
- الرد على هانوتو.
- الرد على فرح أنطون.
- رحلة صقلية.
- نظام التربية والتعليم في مصر.
- رسائل وكتابات مختلفة.

تضامن مع تولستوى:

كما كتب رسالة تحية للكاتب الروسى «تولستوى» بعد أن حكمت عليه الكنيسة التابع لها بالحرمان، يقول في نهايتها: «وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد، هذا هو الذى سماه الغافلون الحرمان والإبعاد. فليس ما حصل لك من رؤساء الدين، سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس بأنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم، كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم»(*).

(*) د. عثمان أمين، «رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٦٥.



الإمام سليم البشري

(١٨٨٢-١٩١٦م=١٢٤٨-١٣٣٥هـ)

صاحب الرأي الحر

«إن رأيى لى، ومنصبى لهم، ولن أُضحى لهم بما يدوم فى سبيل ما يزول».

هذه العبارة الدالة على تمسك صاحبها برأيه وتقديسه لكلمة الحق، وعدم تنازله عن قولها، حتى ولو ضحى من أجل ذلك بأرفع المناصب، حتى ولو كان المنصب هو شيخ الأزهر. قالها العالم «الإمام سليم بن أبى فراج البشرى»، الإمام رقم ٢٥ فى تولى مشيخة الأزهر. الذى قدم استقالته من هذا المنصب الهام والحساس عندما وجد أن ثمن بقائه فى المنصب هو التنازل عن رأيه والانصياع لرغبة الحاكم.

هو الشيخ سليم بن أبى فراج بن السيد سليم بن أبى فراج البشرى، نسبة إلى «محلة بشر» من قرى شبراخيت بمحافظة البحيرة، وهو من مواليد عام ١٢٤٨هـ (١٨٨٢م). توفى والده وهو فى السابعة من عمره، فكفله أخوه الأكبر «عبد الهادى البشرى» ولمَا بلغ التاسعة كان قد حفظ القرآن الكريم وجوده.

ثم قَدِمَ إلى القاهرة، وأقام عند خاله «بسيونى البشرى» أحد علماء ضريح السيدة زينب -رضى الله عنها- فتلقى عنه مبادئ العلوم، وظل فى كنفه عامين درس فيهما عليه وعلى غيره من العلماء قراءات القرآن الكريم. ثم التحق بالأزهر الشريف، واتصل بكبار العلماء، حيث درس الفقه على مذهب الإمام مالك. ودرس بالأزهر تسع سنوات كاملة، حيث تلقى العلم على يد عدد من العلماء الأجلاء، منهم: الشيخ الخنانى، والشيخ عليش، والإمام الباجورى وغيرهم.

ولمّا مرض شيخه «الخنانى» أوكل إليه أن يقوم مكانه بالتدريس لِما أنس فيه من علم، وأقبل الطلاب على دروسه، ونبغ فى علوم كثيرة، وكان يجد لكل مسألة حلا، حتى قصده العلماء يحضرون دروسه مع الطلاب، ونبغ فى علوم الحديث، نبوغاً كبيراً أبلغه درجة كبار المحدثين. ثم عُين شيخاً ونقيباً للسادة المالكية، وهو من أكبر مناصب الأزهر.

ولمَا اتجهت النية إلى إصلاح الأزهر فى عهد الشيخ «حسونة النواوى»، كان فى مقدمة العلماء الذين وقع عليهم الاختيار لعضوية مجلس إدارة الأزهر، مع «الشيخ

محمد عبده»، و«الشيخ عبد الكريم سلمان»، وغيرهم من كبار العلماء، الذين أُوكل إليهم مهمة إصلاح وتطوير الدراسة بالأزهر ليواكب علوم العصر ومستجدات الحياة الحديثة. فكان عضواً بارزاً. ووقع عليه الاختيار ليكون شيخاً للأزهر عام ١٩٠٠م (١٣١٧هـ).

مواجهة:

وحدث أثناء توليه مشيخة الأزهر أن اختير الشيخ «أحمد المنصورى» شيخاً لأحد الأروقة بالأزهر، ولم يكن الحاكم راضياً عن هذا الشيخ، فأوعز إلى فضيلة الإمام الأكبر بالعدول عن هذا القرار، فأبى الشيخ الرجوع عن اختياره، وقال:

«إن كان الأمر لكم فى الأزهر دونى فاعزلوه، وإن كان الأمر لى دونكم، فهذا الذى اخترته، ولن أُحيد عنه».

انتهز الدساسون الفرصة وأوغروا صدر الخديوى عباس عليه، فأرسل إليه من يقول له: «إن تشبثك برأيك قد يضرك فى منصبك». ولمَّا رأى «الشيخ سليم» أن هذه رسالة تهديد مباشرة، صمم على رأيه ورفض التراجع عنه وقال قولته المشهورة: «إن رأيى لى، ومنصبى لهم، ولن أُضحى لهم بما يدوم فى سبيل ما يزول». وقدم استقالته، فقبلت فى اليوم الثانى من ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٤م).

وعُين بدلاً منه فى منصب شيخ الأزهر «الشيخ على بن محمد الببلاوى»، الذى قضى فى المنصب حوالى ثلاثة أعوام، أى حتى عام ١٣٢٣هـ، حيث قدم استقالته، وحل محله «الشيخ عبد الرحمن الشربينى»، الذى لم يقض بالمشيخة إلا حوالى عام واحد واستقال من منصبه سنة ١٣٢٤هـ، وأُعيد «الشيخ حسونة النواوى» كشيخ للأزهر حتى عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، وعندما استقال، تقرر إعادة تعيين «الشيخ سليم البشرى» كشيخ للأزهر للمرة الثانية عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م).

الحزم في الإدارة:

وفى عهده طُبق نظام امتحان الراغبين فى التدريس بالأزهر، واجتاز هذا

الامتحان كثيرون من العلماء، وكان رحمه الله حازماً فى إدارته للأزهر. وعلى الرغم من الأعباء الكبيرة التى كان يحملها فى مباشرته لمشيخة المالكية ومشيخة الأزهر، فإنه ظل يباشر إلقاء دروسه فى الأزهر، كما ظل يباشر التدريس والتصنيف، وقيادة الحركة الإصلاحية بعزم وحزم حتى ظهرت آثارها فى عهده، وحتى أصبح معظم مدرسى الرياضيات فى عصره من علماء الأزهر، بعد أن كادت صلات الأزهر بهذه العلوم تنقطع انقطاعاً تاماً.

ومن أمثلة شجاعته واعتزازه بنفسه، أنه عقب استقالته من منصب شيخ الأزهر فى المرة الأولى سنة ١٩٠٤م. ذهب فى اليوم التالى لعزله إلى الجامع الأزهر، للجلوس فى مقعد التدريس، حيث ألقى درسى التفسير والحديث، اللذين حضرهما نحو خمسمائة عالم، وما لا يحصى من الطلاب.

زيادة مرتبات العلماء:

وعندما اضطربت الأحوال فى الأزهر وكثرت استقالات مشايخه، اضطر ولاة الأمر إلى اللجوء إليه ليعود إلى منصبه شيخاً للأزهر ليعالج هذه الاضطرابات، فاشترط لقبوله أن تقوم الحكومة بإكرام العلماء والطلبة والتوسع فى أرزاقهم، ورد حقوقهم إليهم، فتقرر زيادة مرتبات العلماء عشرة آلاف جنيه سنوياً - وكان الجنيه المصرى وقتها له شأن وكان أضعاف الدولار الأمريكى - توزع بالقسط عليهم. واستطاع أن يحصل من الحكومة على ترخيص يسمح لكل عالم فى أى معهد من المعاهد الأزهرية بالسفر فى قطارات السكك الحديدية بنصف الأجر المقرر. وكذلك الطلبة فى أيام حضورهم للدراسة وانصرافهم فى الأجازات.

وظل الإمام سليم البشرى يكافح ويجاهد فى النهوض بالأزهر الشريف، حتى نال الحظوة لدى السلطان فمنحه «النيشان المجيدى الأول» والوشاح الأكبر «وسام النيل».

وكان من عاداته أن يستيقظ من نومه فى الثالثة صباحاً فيتهجد ما شاء الله له أن

يتهجد، ثم يوقظ حفدته الصغار، فيتناول معهم طعام الإفطار، ثم يلقى عليهم بعض الدروس.

وكان «الإمام سليم البشرى» دائم التصدق بمرتبه، حيث لم يقبض مرتبه فى حياته مرة واحدة، وإنما كان يوكل ذلك إلى من يثق به، ويطلب منه أن يتصدق به على بعض الأسر الفقيرة.

وتوفى «الشيخ سليم البشرى» عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) وهو فى التسعين من عمره، بعد أن قام بنهضة إصلاحية تعليمية وعلمية، وخفف أعباء مادية كثيرة عن كواهل العلماء والطلاب.

وقد رثاه شاعر النيل حافظ إبراهيم بقصيدة بليغة مؤثرة منها هذه الأبيات.

أَيَدرى المُسْلِمُونَ بمَنْ أصيبُوا	قد وارَوْا (سَلِيماً) فى التُّراب
هَوَى رُكْنُ الحدِيثِ فأَىُّ قُطْبِ	لطُلابِ الحقِيقَة والصَّواب
(موطا مالك) عَزَّ (البخارى)	ودع لله تعزية (الكتاب)
فما فى الناطِقِين فمُ يُوَفَّى	عزاء الدين فى هذا المُصاب
قضى الشيخ المحدثُ وهو يملى	على طُلابِه فَصْلَ الخِطاب
ولم تنقص له التسعون عزماً	ولا صدته عن درك الطلاب
وما غالت قريحته الليالى	ولا خانته ذاكرة الشباب
أشيخ المسلمين نأيت عنا	عظيم الأجر موفور الثواب(*)

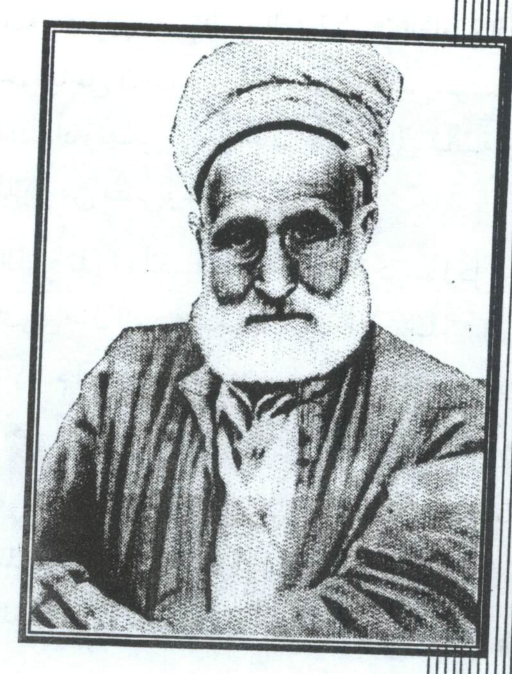
أهم مؤلفاته :

وقد ترك الشيخ جملة مؤلفات معظمها من الحواشي والتقارير على كتب السلف، ومن آثاره:

(*) حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبيارى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٥٠٤.

- حاشية تحفة الطلاب على شرح رسالة الآداب.
- حاشية على رسالة الشيخ عليش فى التوحيد.
- المقامات السنية فى الرد على القادح فى البعثة النبوية.
- عقود الجمان فى عقائد أهل الإيمان.
- الاستئناس فى بيان الأعلام وأسماء الأجناس.
- شرح نهج البردة لشوقى.





الشيخ طاهر الجزائري

(١٨٥٢-١٩٢٠م=١٢٦٨-١٣٣٨هـ)

داعية نهضة وتحرر

في فترة الظلام الفكري التي خيمت على الوطن العربي والإسلامي عند ما ضعُفت الخلافة العثمانية، هب بعض الرجال يطالبون القافلة النائمة أن تستيقظ وتعاود السير، وصرخوا بأعلى الصوت ناعين على الناس استسلامهم وركونهم، مطالبين بمحاربة الاستبداد ونفض تراب الجهل داعين إلى نهضة جديدة، وكان في مقدمة هؤلاء علماء الدين من مصر وسوريا.

ومن علماء الشام الذين نذروا أنفسهم لهذه المهمة وكرسوا كل حياتهم من أجلها «الشيخ طاهر الجزائري» المولود في دمشق ليلة الأربعاء ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٦٨هـ، الموافق ١٨٥٢م الذي ترك في كل مظهر من مظاهر الحياة في الشام أثرا، وفي كل ناحية من نواحي الإصلاح عملا فكان باعث نهضة وكان معلم جيل.

كانت رسالة «طاهر الجزائري» تحفيز العرب إلى الزهو بمجد آبائهم والعمل على إعادة ذلك المجد متسلحين بالعلم، وكان الشيخ من أوائل من رغب فيه ودفع إليه داعيا إلى العودة إلى اللغة العربية الفصحى والبيان العربي.

بشير الخير:

تميز «الشيخ طاهر» عن غيره من دعاة النهضة العربية بأنه كان يترك أثرا من الخير أينما حل، فكان مجلسه حيثما جلس مدرسة ولقاؤه أينما لقيته درس، يعلمك مسألة أو يرشدك إلى كتاب أو يلقنك خلقا من أخلاق الخير، كان يعلم بفعله لا بقوله كما يقول «علي طنطاوي» دعا إلى النظر في الكتب فلم يدع كتابا لم ينظر فيه، ودعا إلى التأليف فكان له من المؤلفات العديد، ودعا إلى حفظ الوقت وتنظيمه فلم يكن يضيع من وقته لحظة في عمل غير نافع، ودعا إلى الرجوع إلى أخلاق المسلمين الأوائل من الصراحة والصدق وترك الأباطيل فكانت حياته كلها كذلك.

وكاد ييأس المصلحون ولكن الشيخ لم ييأس ولم ير مستحيلا إيقاظ هؤلاء العرب الذين ناموا دهورا طوالا تحت أغطية الجهل والخمول، ولم يسلك طريق الطفرة فقد كان يرى أن الطفرة لا تأتي بخير، ولا الثورة فالثورة لا تشيد وإنما تبيد، بل عمد إلى

إزالة أسباب الداء، وإلى الترغيب في العلم وحث عليه ليحارب الجهل، ورد الناس إلى اللغة وتعريفهم فضلها ونشر أخبار السلف وتاريخ الفتوح لنفي الخمول.

التلاميذ والمريدون:

كان الجزائري يجمع حوله طائفة من أعلام الشباب هم صفوة خلطائه وعيون مريديه، فيشرح لهم الرأي ويبين لهم الطريف وطائفة من الشيوخ يعرض لهم تعريضا ويمهد لهم تمهيدا، وطائفة من الفتيان يُنشئهم على برنامجه ويسيرهم من حيث لا يشعرون في طريقه، وطائفة من العامة يقنع منهم بتقويم الأخلاق وإصلاح المجتمع، وكان يعطي كلا ما يناسبه كالطبيب الذي يحمل الدواء الشافي ويدور على المرضى فلا يعطي إلا بمقدار ولا يداوي إلا عن بينة من المرض، وكان أيضا يجالس الموظفين الكبار والباشوات الأتراك يأمل أن يوجههم إلى فضل الخير، عندما رأى الكتب المخطوطة معرضة للتلف والضياع لتفرقها في المساجد والزوايا فكر في جمعها في مدرسة الملك الظاهر التاريخية بدمشق، وقتها كان الشيخ مفتشا بالتعليم عارضه أعداء كل إصلاح واشترطوا موافقة الوالي، ولولا صداقته إياه لضاعت هذه الكتب ولم تنشأ دار الكتب الظاهرية.

واستفاد من صلته برجال الحكم الأتراك في افتتاح المدارس العصرية بعد أن كان التعليم قاصرا على الكتاتيب للصغار وحلقات المساجد للكبار، بل أنه افتتح أيضا مدارس البنات في هذا الوقت المبكر من بدايات القرن العشرين.

كان رجل تعليم من الطراز الأول، يرى أن يرتقي الإنسان إلى مدارج الكمال خطوة خطوة، وكان ينهي عن العنف ويدعو إلى التلطف في معاملة التلاميذ، فقد كان أشد خلق الله تشجيعا للناشئين وتنشيطا للعاملين، يحاول أن يوصل الناس جميعا إلى المثل الأعلى، لا يرفعهم جميعا إليه، وكان يسعى جاهدا أن يقربهم من المثل الأعلى ويسهل لهم بلوغه، وكان يقول لأصحابه: أن جاءكم من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له: إن هذا مستحيل بل علموه، فلعل اشتغاله هذه الأيام

الثلاثة بالنحو تحببه إليه فيقبل عليه، وكان كلما لاحظ علامات الفهم والذكاء في أحد أخذ بيده على طريق العلم وسهل له تحصيله وشجعه عليه، وقد اهتم بإدخال العلم إلى بيوت الأكابر.

قيمة العلم:

لم يكن مهتما فقط بالعلوم الدينية الشرعية، فبالرغم من أنه شيخ إلا أنه كان له ذهن رجل درس في أوروبا، يعرف قيمة العلوم الجديدة والعمل المنظم وأهمية الصحافة وأثرها.

قضى هذا الشيخ معظم وقته في القراءة والعلم والتأليف كان يقضى ساعات طوال يدرس ويؤلف، وكان أكثر مقامه في مدرسة عبد الله باشا بدمشق فإن كان مشغولا وجاء إليه أحد، أطل فقال له: «مشغول عد في وقت آخر» مهما كانت منزلة هذا الزائر، فإن دخل عليه أحد من حيث لا يشعر دفع إليه كتابا وقال خذ اقرأ هذا وتركه وعاد إلى ما كان فيه، ومن قوله في ذلك: «اشغلوهم قبل أن يشغلوكم».

لقد كان «الشيخ طاهر الجزائري» أديبًا باحثًا لغويًا عارفًا بالكتب ومؤلفيها وأماكن وجودها، شارك في أنواع العلوم المختلفة، وكان يجيد معظم اللغات الشرقية، وأصله من الجزائر، وُلِدَ في دمشق في ربيع الثاني من عام ألف ومائتين وثمانية وستين للهجرة الموافق عام ألف وثمانمائه واثنتين وخمسين ميلادية، تعلم في الكتاتيب ودرس في الجامع الأموي، وكان مُجدا في تحصيل العلوم الشرعية وغير الشرعية، وعُين مفتشا في دمشق، ثم اختير عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي ومديرا لدار الكتب الظاهرية.

عزة وإباء:

ولعلمه وبساطته وتفتح ذهنه تحلقت حوله طبقة من شيوخ دمشق والعلماء النابهين فيها، ولأنه كان داعية من دعاة التحرر ناصبه رجال الحكم العداء فلم يتراجع عن موقفه واضطر إلى الهجرة إلى مصر، حيث مارس هناك نشاطا ملحوظا

في الأعمال السياسية وفي الدعوة إلى التحرر، وترك القديم البالي والأخذ بأسباب النهضة من خلال الكتابة في الصحف والمجلات.

وفي مصر كانت حياته كلها عزة وإباء، فقد كان هذا الشيخ شديد الثقة بالنفس ولا يفرط أبدا في كرامته، وعند ما جاء إلى مصر لما ضاقت الشام وحكامها بدعوته أخذ يبيع من كتبه ومن ذخائر المخطوطات التي أفنى حياته في اقتنائها، إذ كان يبيع الكتب حتى يعيش من ثمنها وحتى لا يضطر للاستدانة من أحد، حتى ولو كان أقرب الأصدقاء.

ومن فرط وطنيته وكراهيته للمستعمر كان يرفض الثمن الغالي الذي كانت تعرضه مكتبة المتحف البريطاني مقابل كتبه وأمثالها من المؤسسات الأجنبية، أو من الناس الذين يشترون الكتب للتجارة، وكان يذهب إلى دار الكتب المصرية يبيع كتبه بنصف الثمن ليبقى الكتاب في أيدي العرب ولا يخرج منها إلى أيدي الأجانب.

حاجة وكرامة:

وعندما نفدت كتبه وضاقت به الحال سأل «أحمد تيمور» باشا «الشيخ علي يوسف» صاحب المؤيد أن يحدث الخديوي سنة ١٩١٣م ليمنح «الشيخ طاهر الجزائري» مرتبا دائما أسوة بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء، ونجحت وساطة الشيخ «علي يوسف» وأمر الخديوي بمنح «الشيخ طاهر الجزائري» معاشاً، فغضب أشد الغضب وقال «للشيخ علي»: كأني بك قلت للخديوي: أن «الشيخ طاهرًا» أثنى عليك، نعم إني أثنيت عليه لتأييده مشروع زكي باشا في خدمة الكتب العربية ولكن ما الذي يضمن لك ألا يأتي الخديوي بضد هذا العمل الطيب يوما، وهنا يكون من واجبي أن أذمه وأنتقده فلماذا تسود وجهك بسببي وتكون في موقف لا تحسد عليه؟.

ثم قال بغضب: ومن أذن لك أن تدخل نفسك في خصوصيات أمري؟

فقال له «الشيخ علي يوسف»: نحن أصدقاء ولقد وجدتك تعاني وقد نفذ ما كان

لديك من كتب تبيعها وأنت ترفض الاستدانة من أحد.

فرد «الشيخ طاهر الجزائري» في شمم وإباء: «العالم الحر لا يقبل أبدا أن يعيش على عطايا أصحاب السلطان وإلا كان تابعا لهم لا يقوى أبدا على أن يرفع عينيه أمامهم أو ينتقد غير الصالح من أعمالهم، وأنا عالم حر صاحب رأي ولا أريد لنفسي أبدا أن أكون مجاملا لأحد، حتى ولو كان صاحب سلطان أو نفوذ».

قال «الشيخ علي يوسف» وماذا أفعل الآن هل ترد منحة الخديوي؟

قاله له «الشيخ طاهر»: اذهب فأبطل ما سعيت بإتمامه.

ورجع يعيش عيش الكفاف والتقتير بأثمان ما بقى من كتبه فكان الشيخ علي يوسف يقول بعد ذلك: «كنت أظن أن هذه الطبقة من العلماء قد انقرضت فلما رأيت «الشيخ طاهر» علمت أنه لا يزال علي وجه الأرض بقية منها».

ولما ضاقت به الحال عاد «الشيخ طاهر» إلى دمشق حيث اشتد به المرض الذي لم يمهله أكثر من أربعة أشهر، حيث توفي في الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٨هـ الموافق ٥ من كانون الثاني سنة ١٩٢٠م، ودُفِنَ في سفح جبل قاسيون(*).



(*) على الطنطاوى، «رجال من التاريخ»، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٣٧٢.



عمـــر المختـــار

(١٨٦١-١٩٣١م)

شيخ الشهداء

فى سجلات البطولة والجهاد ضد المستعمر واستقلال الأوطان، يحظى المجاهد الليبى عمر المختار بحظ وافر من صفحات النضال والكفاح، وبذل الروح والنفس محارباً غطرسة الإيطاليين، الذين أرادوا طمس الهوية الليبية وتحويل ليبيا إلى مستعمرة تابعة لهم يتحول فيها أهل البلاد إلى عبيد يخدمون السادة الطليان.

استمر عمر المختار رافعاً راية الجهاد طوال ٢١ عاماً، خاض خلالها أكثر من ألف معركة مع الإيطاليين، منها ٢٦٣ معركة في مدة لا تتجاوز عشرين شهراً وهى المدة التي تبدأ بتولى «غراتسيانى» قيادة الجيش الإيطالى في برقة، وتنتهى بموت عمر المختار [سى عمر] يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١م.

ذهب «عمر المختار» ذلك اليوم، ضحية الغدر وشهيد الوفاء، نتيجة غدر الطليان به، وقد وقع أسيراً في أيديهم طاهر الصحيفة، لم يدنس تاريخه العسكرى بأى جريمة ولا عمل صغير مخالف لأصول الشرف ومقتضيات المروءة. وشهيد الوفاء، فقد قال حينما توجه للجهاد سنة ١٩٢٣م، بعد أن اشتد حوله الحصار وأصبح الجهاد ميئوساً منه: «ما الفائدة من العيش مهاجراً ذليلاً؟ يجب أن أعود لأموت وأؤدى بذلك آخر حق عليَّ لله ولبلادى».

وقعت ليبيا فريسة في أيدى الإيطاليين في ٢٩ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩١١م. رفع الليبيون رايات الجهاد أمام حملات الاستيطان والتبشير والتطهير العرقى ومحاكم التفتيش التى أقامها الإيطاليون. على غرار ما حدث في إسبانيا إبان العصور المظلمة في القرن الثانى عشر.

نشأة المختار:

كان «عمر المختار» أحد أهم رايات الجهاد الليبى ضد الاستعمار. ولم يكن المجاهد الوحيد ولا الشهيد الوحيد فى قوافل وجيوش المجاهدين والشهداء الليبيين. وإنما شكلت ظروف استشهاده حالة فريدة، سجلت سطوراً متلألئة فى صفحات التاريخ العربى والإسلامى ضد محاولات النيل منه وطمس هويته

ومعالمه. فقد كان «عمر المختار» شيخ المجاهدين أثناء الجهاد. وتحول باستشهاده إلى شيخ الشهداء فحاز الحسنيين. كان المختار علماً مشهوراً. فهو ابن مختار بن عمر المنفى من قبيلة [المنفة] أهم القبائل الليبية، ضمن قبائل أولاد علي الكبيرة، المنتشرة في أراضى مصر وبرقة الليبية. وكان مولد «عمر المختار» سنة ١٨٦١م فى قرية جنزور، التابعة لمنطقة «دفنة». وتقول رواية أخرى إنه ولد فى برقة عام ١٨٥٨م، وتوفى والده المختار ووالدته عائشة، وهما في طريقهما إلى أداء فريضة الحج.

رجاحة وصلابة:

بلغ «عمر» السن، التى تؤهله لحفظ القرآن الكريم، فبعثه والده المختار إلى زاوية السنوسية فى الجغبوب ليقرأ فيها القرآن وما تيسر من العلوم، وقد ظهر عليه من دلائل النجابة ورجاحة العقل مما لفت إليه انتباه المهدى السنوسى، وكان صاحب الجاه العريض والسلطان النافذ في برقة، فصار موضع اهتمامه وأحله من عنايته أعلى مراتبها. فما كاد يتم حفظ القرآن ودراسة بعض العلوم حتى انتشر ذكره وتناولته الألسن بالثناء، واحترمته قبائل العرب لعراقة بيته ولمكانته السنوسية، ولاه المهدى شيخاً على زاوية القصور في الجبل الأخضر قرب مدينة المرج، حيث قام بتعليم أولاد المسلمين وإكرام من يأوى إلى تلك الزاوية من الفقراء وعابرى السبيل، وفض المنازعات بين قبائل العرب والسعى في مصالحهم، وكان اختياره شيخاً لزاوية القصور لغرض نبيل، ذلك أن تلك الزاوية تقع فى حوزة قبيلة العبيدات، التى اشتهرت بالاستقلالية وفيها أفراد صعب مراسهم. وكان المختار لدماثة خلقه وصلابة عوده أهلاً لترويض هذه النفوس.

ونال عمر المختار لقب «السيد» من انتسابه إلى السنوسية، ووقعت أمور عارضة اقتضت سفر المهدى إلى السودان، فاختار «عمر المختار» لمرافقته في ذلك السفر الطويل. وكان «عمر» محل ثقة المهدى، الذى عينه شيخاً لزاوية فى السودان، واستمر نائباً عن المهدى هناك، حتى عاد إلى برقة شيخاً لزاوية «القصور» مرة ثانية، واستمر يدير شؤونها حتى احتل الإيطاليون ليبيا، فكان أول من لبى نداء الوطن

وباشر الجهاد.

شيخ المجاهدين:

كان «عمر المختار» في طليعة المجاهدين الليبيين، حيث أسهمت نشأته الدينية وجهاده في السودان ضد الفرنسيين في غرس قيمة الجهاد والكفاح من أجل الاستقرار والاستقلال والدفاع عن الدين والوطن داخل نفسه، برز مردود عمله أثناء التصدى للعدوان الإيطالي عام ١٩١١م، عندما أنذرت إيطاليا السلطنة العثمانية بعدم معارضة احتلال الأراضي الليبية، وشنت بعد إنذارها الحرب فى ١٩١١/٩/٢٩ وساعدتها القوات الإنجليزية، بمنع عبور الإمدادات العثمانية إلى ليبيا عبر الأراضي المصرية، مما سهل على الطليان احتلال طرابلس الغرب وبعدها درنة وبنغازى وطرابلس، وبدأت معركة الجهاد الإسلامي الليبيى ضد الإيطاليين، وقاد العلماء طلائع المجاهدين ضد الغزاة، وتصدى الفرنسيون للتونسيين، بعد أن قاد حزب «تونس الفتاة» حملة للتضامن مع الشعب الليبي ضد الاحتلال. ومن هنا بدأ التحالف الإيطالى الفرنسى ومعهما الإنجليز والأسبان، للسيطرة على شمال أفريقيا، حيث سيطرت أسبانيا على جزء من المغرب، وسيطرت فرنسا على تونس والجزائر، وسيطرت إيطاليا علي ليبيا والحبشة، وسيطرت بريطانيا على مصر والسودان.

لم يهدأ العدوان الإيطالى على ليبيا، حيث استهدف المناطق العامرة بالسكان بغية القضاء عليهم تمهيداً للاستيطان، ونتج عن ذلك نزوح آلاف الأسر عن ديارها إلى بلدان أخرى، لكن ذلك لم يحد من متابعة رسالة الجهاد. وبدأ تفعيل المقاومة بشكل أكبر ومنظم. لكن الفتن الداخلية والنزاعات العشائرية أضعفت موقف المجاهدين في عدد من مناطق المقاومة. وبرغم ذلك تجدد الجهاد فى «برقة» في شرق ليبيا بقيادة الشيخ عمر المختار.

استنزاف:

ازدادت شراسة المعارك، وشعر شيخ المجاهدين بخطورة الموقف، فشكل قيادة

عليا للمجاهدين تكونت برئاسته وضمت القبائل العربية الليبية، التى جاءت من شبه الجزيرة العربية أيام الفتوحات الإسلامية، والقبائل الأخرى، ولم يقتصر الجهاد على أبناء القبائل، بل انضم إليهم أيضا، عدد كبير من المجاهدين، الذين قدموا من غربى ليبيا ووسطها وشمالها. وتعاضد الليبيون ضد العدوان، مما أجبر الإيطاليين على اتخاذ خطوات إرهابية قتالية، وظن الإيطاليون أنهم بذلك قد يصلون إلى بغيتهم ويحققون هدفهم، ولكن ما أبداه عمر المختار من النشاط فى الغزو والهجوم والثبات والإقدام وشدة البأس والإيمان، أفشل مخططهم.

وقد حصل انقلاب سياسى فى الحكومة الإيطالية، بسبب الخلاف على السياسة، التى يجب اتباعها للتعجيل بالقضاء على «عمر المختار».

ففى ديسمبر ١٩٢٨م استقال وزير المستعمرات في روما وحاكم طرابلس وحاكم برقة، وأعلن موسولينى توحد الإدارة في طرابلس وبرقة، وعين «الجنرال بادوليو» حاكماً عليها، وكان من أشهر القادة الطليان في الحرب العالمية الأولى واشتهر بالثبات والإقدام. وكان موسولينى يرى فيه المنقذ الوحيد للسياسة الإيطالية في طرابلس، مما حل بها من الفشل والتذبذب طوال ثمانى عشرة سنة. وبدأ «بادوليو» مهمته بدعوة المجاهدين إلى الاستسلام للحكومة الإيطالية، ووزع منشورات في جميع المناطق يدعو لذلك ويهدد بالعقاب الصارم، بلا رحمة لكل من يستمر في الخروج على الحكومة. وأصدر «بادوليو» عفواً عن السياسيين المبعدين، وأخذ يستعد لتنفيذ خطته، التى جاء من أجلها، وهى القضاء على حركة «السيد عمر» تمهيداً لاستقرار السياسة الاستعمارية الإيطالية في طرابلس.

وأراد «بادوليو» أن يقضى على ثورة المختار عن طريق المفاوضات، فدعاه إليها. وكان يعتقد أن «عمر المختار» قد يرضخ مقابل إصدار عفو يكفل له حياته هو ومن معه، نظراً لموقفه الحرج من انقطاع المواصلات من كل جهة والحصار المفروض عليه.

وظن «عمر المختار» أن هذه المفاوضات قد تأتى بخير، وليقيم الدليل العملى

على حبه للسلام أجاب طلب «بادوليو»، لبدء المفاوضات، وكان من شروط «عمر المختار» أن يحضر مندوب من طرف الحكومة المصرية وآخر من الحكومة التونسية ليشهدا الشروط المتفاوض عليها، وألا تتدخل الحكومة الإيطالية في الأمور الدينية للشعب الليبي، وأن تكون اللغة العربية معترفا بها رسميا، وأن تُفتح مدارس خاصة يدرس فيها التوحيد والتفسير والحديث وعلوم الدين، وألا يُحرم الوطنيون من التعليم العالى، وأن يكون للبلاد رئيس من أهلها ويكونون أحراراً في حمل السلاح للدفاع عن الوطن. لكن «السيد عمر» اكتشف أن هدف المباحثات الإيطالية سواء في الخارج مع المجاهدين الليبيين أم في الداخل، ترمى إلى المراوغة وكسب الوقت وتمزيق وحدة المجاهدين، وتأكد «المختار» من نياتهم فأصدر نداءه المشهور عام ١٩٢٩م، ودعا مواطنيه إلى المضى في طريق الجهاد باذلين دماءهم الزكية فداء للوطن وفى سبيل الوصول لتحقيق غايتهم المنشودة. وكان المنشور في حيثياته يدل على صراحة «عمر المختار» في سبيل الوصول إلى التفاهم، فلبى الدعوة إلى المفاوضات وطرح شروطه الأولية وقبل مد الهدنة وانتظر رد الإيطاليين، لكنهم أبوا أن يردوا عليه مع أنهم هم الذين طلبوا الهدنة، ولكنهم لم يطلبوها لتبادل الآراء، بل لتكون طريقا من طرق الخداع الحربية.

عودة القتال:

وقد استعمل «عمر المختار» حقه في جباية الزكاة من العرب بمقتضى شروط الهدنة، التى سقطت، وعاد القتال بين الطرفين، وامتدت أيدى الطليان إلى كل من أعطى زكاة أمواله «لعمر المختار» وحُكم على بعضهم بالإعدام، ودارت المعارك الحربية على الأراضي الليبية وتوافق معها حملة إعلامية قادها بشير السعداوى وشكيب أرسلان ضد العدوان الإيطالى. وتكاملت الوحدة الجهادية بين المقاتلين والكتاب المناضلين، واشتد سعير الحرب الجهادية، فأرسل الإيطاليون السفاح «غراتسيانى» إلى ليبيا، فاستخدم ما توافر لديه من أسلحة برية وجوية في الحرب لإبادة الليبيين، وحاصر الحدود الليبية وزرع الألغام ووضع الأسلاك الشائكة

وأطلق أيدى حكامه للتنكيل بالليبيين عن طريق «المحاكم الصورية»، التى طبقها لاحقا، واستمرت المعارك الضارية بين قوى الحق وقوى العدوان في ظروف غير متكافئة من حيث العدة والعدد.

احتلال الكفرة:

وقامت القوات الإيطالية آنذاك بحشد قواتها، وكانت أكبر حملاتها في تاريخ الاحتلال الإيطالى، لاحتلال «الكفرة» وهى مجموعة واحات في صحراء ليبيا، وهى أكبر معقل للسنوسية، وفيها من الخيرات الكثير، وجاء احتلال «الكفرة» كالصاعقة على الرؤوس، وأحس بخطرها كل من يهمه أمر طرابلس.

ولم يبق منفذ «لعمر المختار» يتصل منه بالعالم، بعد احتلال الكفرة إلا الحدود المصرية المخفورة بجيوش إيطاليا وطائراتها، ولكن هذه الجيوش وتلك الطائرات ما كانت تمنع «عمر المختار» من الاتصال بالأسواق المصرية ليرسل إليها ما يغنمه المجاهدون من الطليان، ويختار منها ما يلزم المجاهدين.

وعاد «غراتسيانى» من الكفرة لحصار المجاهدين من ناحية الحدود المصرية، فرأى أن وجود الجنود والطائرات لا يكفى لمنع اتصال المجاهدين بالأسواق المصرية، فأضاف إلى ذلك قوة ثالثة، هى الأسلاك الشائكة لمسافة ثلاثمائة كيلومتر، أصبح المجاهدون بعدها معزولين عن الخارج من جميع الجهات. وقد حاولوا عدة مرات اختراق هذه الأسلاك، لكنها كانت مانعاً قوياً استحال عليهم اختراقها.

***

المجاهد الأسير:

وكان من عادات «عمر المختار» أن يقوم باستكشاف مواقع العدو بنفسه، ولمعرفة آفاق الهجوم عليها بغتة. وكان يرافقه من أصحابه المجاهدين ما لا يزيد على الأربعين فارساً، وبينما هو يسير مساء يوم جمعة في سرية من أصحابه فاجأته جيوش الطليان، بعد أن علموا بخبره، وحاول هو وأصحابه الخروج من الوادى الذى هم

فيه، لتفادى محاصرتهم، ففاجأته طليعة أخرى من جنود المعتدين، ونشب القتال بينهم وبين العدو، وقُتل كثير من أصحاب «عمر»، كما قُتل حصانه فأوقعه على الأرض، وبينما كان يحاول النهوض رآه أحد الجنود فتقدم إليه وقبض عليه.

وحضر حاكم المرج في طائرة خاصة، وقد عرف «عمر» لمجرد رؤيته، لأنه اجتمع به عدة مرات في المفاوضات، ونقل إلى مرسى سوسة، ونقل منها بحراً إلى بنغازى ثم إلى السجن، وبقى فيه إلى يوم محاكمته في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣١م حيث عُقدت محاكمته في القاعة الكبرى للحزب «الفاشيستى» وهى دار مجلس النواب (السابق) فى بنغازى، وبعد أن اكتملت هيئة المحكمة نودى بالدعوة ضد «عمر المختار» لاعتدائه على سلامة الدولة، وعلى أمن البلاد ولقطعه الطريق، ثم نودى عليه لاستجوابه.

وكان أول سؤال له: لماذا حاربت الإيطاليين؟ وكان الجواب: «حاربت من أجل دينى ووطنى..».

إعدام البطل:

وبعد محاكمة قصيرة مدتها نصف ساعة صدر الحكم بإعدام «عمر المختار»، وفى اليوم التالى مباشرة، صباح يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩٣١م اتخذت التدابير اللازمة بمركز «سلوق» لتنفيذ الحكم فيه، وحضر جمع غفير من سكان تلك الناحية والبوادى القريبة منها، وأحضر جميع المعتقلين السياسيين خصيصاً من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم، وحشد الإيطاليون حشداً كبيراً من القوات البحرية والمشاة لهذا الغرض. وفى التاسعة صباحاً سُلم «عمر المختار» إلى الجلاد. فوضع حبل المشنقة في عنقه، وبعد بضع دقائق صعدت روحه الطاهرة إلى ربها تشكو إليه ظلم الظالمين، وجور المستعمرين.

وبعد موته رثاه كبار الشعراء «كخليل مطران» وأمير الشعراء «أحمد شوقى» الذى قال:

ركـزوا رفاتـك في الرمـال لـواء	يسـتنهض الـوادي صباح مسـاء
يـا ويحهـم: نصـبوا منـاراً مـن دم	يـوحي إلى جيـل الغـد البغضـاء
مـا ضر لـو جعلـوا العلاقـة في غـد	بـين الشـعوب مـودة وإخـاء
خُيرت فاخترت المبيت على الطوى	لم تـبن جاهـاً أو تلـم ثـراء
إن البطولـة أن تمـوت مـن الظمـأ	لـيس البطولـة أن تعـب المـاء

وتخليداً لذكرى هذا الرجل العظيم، واعترافاً بفضله في استقلال ليبيا، واستنكاراً لإعدام الإيطاليين هذا البطل، أصدرت اللجنة الشعبية الليبية، قراراً يقضي باعتبار يوم استشهاده يوماً للحداد الوطني في البلاد.





عز الدين القسام

(١٨٨٢-١٩٣٥م)

وجع في قلب إسرائيل

اسمه يثير الرعب والفزع، تحرك أتباعه تصاحبه حالة من إعلان الطوارئ، في صفوف الجيش الإسرائيلي، كتائبه هي أخشى ما يخشاه قادة اليهود، رغم أنه قد استشهد منذ علم ١٩٣٥م. فهو قائد أول ثورة مسلحة ضد البريطانيين واليهود في فلسطين. وصاحب أول تنظيم جهادي يخوض الحرب دفاعا عن عروبة فلسطين، كان خير مثال لرجل الدين المجاهد والمعلم، وباعث الوطنية والهمم في النفوس الأبية. يظل اسمه علماً من أعلام النضال العربي في العصر الحديث. عندما يُذكر اسمه تتزلزل الأرض تحت أقدام اليهود.

هو الشهيد المناضل «عزالدين القسام»، الذي تزرع كتائبه الخوف وتبث الرعب داخل إسرائيل بعملياتها الاستشهادية التي ينفذها تلاميذ مدرسته البطولية «كتائب عزالدين القسام».

وهكذا شأن الرجال الأبطال الذين عاهدوا الله على التضحية والفداء، فمنهم من قضى نحبه شهيدا في سبيل الله والوطن، ومنهم من ينتظر.

شيخ القساميين:

هو شيخ القسامين، ومؤسس تنظيمهم، وقائده، ومن أوائل شهدائه، وُلِدَ سنة ١٨٨٢م في بلدة جُبلة السورية، جنوب اللاذقية، من أسرة متوسطة الحال، كان أبوه صاحب كُتاب يُعلم فيه الأطفال أصول القراءة، وحفظ القرآن. تلقى «عزالدين القسام» دراسته الابتدائية في بلدته، ونشأ على هدى الدين، والصلاح والفضائل. ذهب وهو في الرابعة عشرة إلى القاهرة للدراسة في الأزهر الشريف،برفقة أخيه فخرالدين.

أمضى القسام في الأزهر سنوات، أخذ فيها العلم على أبرز أئمته، وفيهم «الشيخ محمد عبده»، نال بعدها الشهادة الأهلية، وقد تركت سنوات الدراسة في الأزهر، في نفسه آثاراً بعيدة، فقد كانت مصر تعيش في حالة غليان وطني في أثناء هذه الفترة، التي أعقبت الاحتلال الإنجليزي وهزيمة العرابيين، شهدت هذه الفترة أيضا بروز

العديد من الزعماء الوطنيين، الذين حملوا الدعوات الإصلاحية التي كانت تؤكد أن من أهم عوامل وأسباب استقلال وحفظ الأمة، الاتحاد والشورى، وعدم الاعتماد على الأجنبي.

بوادر ثورة:

عاد «القسام» إلى بلدته، وهو يحمل بين جوانحه بوادر وبذور ثورة، ووعي وإيمان بضرورة اتحاد والتقاء كل الشعب حول هدف واحد، وهو الاستقلال والتحرر، وبناء الوطن على أساس من القيم والأخلاق والمبادئ الوطنية. آمن «عزالدين القسام» أن رجل الدين ليس معلم الفروض والعبادات فحسب، بل معلم الإباء والوطنية وعزة النفس. كان دور رجل الدين عنده، دفع المؤمنين إلى رفض التواكل والاستكانة، وعدم عزلهم عن قضايا شعبهم.

كان أول تجسيد لمفهومه عن رجل الدين المجاهد العملي، حين قاد مظاهرة طافت شوارع بلدته، تأييداً للعرب الليبيين، يوم هاجم الإيطاليون ليبيا. وقد دعا «القسام» الناس إلى التطوع لقتال الإيطاليين، وكون قوة من المتطوعين وصلت إلى ٢٥٠ متطوعاً، وقام بحملة جمع تبرعات لتأمين ما يلزمهم ويلزم أسرهم، لكن السلطات العثمانية لم تسمح لهم بالسفر لنصرة إخوانهم الليبيين.

كان يكره الاستعمار. لذا رفع راية المقاومة ضد فرنسا في الساحل الشمالي لسورية، وكان في طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح في ثورة جبال صهيون (١٩١٩ - ١٩٢٠م) مع المرحوم «عمر البيطار».

ترك قريته، وباع كل ما يملك، وانتقل مع أسرته إلى قرية الحفة ذات الموقع الحصين، في سبيل الثورة. التي كانت بالنسبة له مدرسة عملية صقلته، وعلمته الكثير من الدروس.

وللدور الخطير الذي قام به القسام في الثورة ضد الفرنسيين، حكموا عليه بالإعدام، لما عرفوا من قوة نفوذه، وتأثيره على الناس.

مرحلة جديدة:

بعد إخفاق الثورة في جبال صهيون، التجأ «القسام» مع ستة من رفاقه إلى فلسطين، حيث وصل إلى حيفا أواخر صيف ١٩٢١م، ثم لحقت به أسرته بعد حين، وكان وصوله إلى فلسطين إيذانا ببداية مرحلة جديدة ومجيدة في تاريخ النضال الفلسطيني ضد قوات الانتداب البريطاني وقطعان اليهود التى جاءت تغتصب الأرض وتقيم وطنها القومي الذي وعدهم به بلفور وزير خارجية بريطانيا على حساب عرب فلسطين.

استقرت الأمور له ولأسرته في حيفا، وبدأت حياة القسام النضالية منذ ١٩٢٢م، عمل مدرسا في المدرسة الإسلامية بحيفا، وكان خطيبًا، وإماماً لجامع الاستقلال فيها، وراح يزرع روح الجهاد والكفاح في النفوس، مركزاً في دروسه الدينية على ضرورة التآخي والتلاحم والتناصر بين الناس من أجل حماية الوطن.

آمن «القسام» مستفيداً من دروس النضال التي عاشها، أن الثورة المصلحة هي وحدها القادرة على إنهاء الانتداب، والحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين. ومن الطبيعي أن تحتاج الثورة المسلحة إلى تخطيط سياسي وعسكري، وإلى تعبئة الجماهير نفسيا لتأييد الثورة والاشتراك فيها، وإلى تنظيم سري ثوري يُربي فيه المقاتلون عسكرياً وسياسياً.

دقة التنظيم:

اتصف «الشيخ عزالدين» بقدرة فائقة على التنظيم واختيار الأعضاء والقيادة، وسُبل الإمداد والتسليح، وكان يدقق في اختيار الأعضاء، ويضع المرشح الذي يتوسم فيه الخير والاستعداد زمنا تحت المراقبة، إلى حين دعوته للعمل في التنظيم من أجل إنقاذ فلسطين، وكان كل ذلك يتم في إطار من السرية الكاملة.

ساعد «القسام» عمله مدرساً وخطيباً وإماماً ومأذونا شرعياً، على معرفة الناس، وسبل إقناعهم والتأثير فيهم. وقد ربط «القسام» الجانب النضالي بالجانب

الاجتماعي، فكان يهتم بتحسين أحوال الفقراء ومساعدتهم، ويسعى إلى مكافحة الأمية بينهم، إيمانا منه، بأن ذلك يُعمق الوعي بين الجماهير، ويزيدها إيمانا بالثورة، ويشحذ عزمها للكفاح المسلح، وحيث كان يقيم العمال وفقراء الفلاحين الذين طُردوا من أراضيهم، ولجؤوا إلى حيفا طلبا للعمل راح «القسام» يؤلف القلوب من حوله.

وكان «القسام» في جميع مراحل عمله من الإقناع إلى ضم المناضلين إلى جماعته يستعين بالكتمان على تحقيق هدفه، فكان لا يبوح بالسر الذي يحمله، وهو الدعوة إلى الثورة لمنع إقامة وطن قومي صهيوني في أرض فلسطين،إلا لأشخاص قلائل بعد أن يدرس نفسيتهم ويمتحن إخلاصهم لمدة قد تطول عدة سنوات.

وكان ينتقي أصحابه من أهل الدين والعقيدة الصحيحة،ويقوم بتدريبهم في رحلات ليلية، كما كانوا يقومون بتحركات استطلاعية يتمرنون في أثنائها على إصابة الهدف.

بسرعة مذهلة أخذت نواة الحركة الثورية تتألف حول «القسام» وتتسع، وازداد عدد المنضمين إلى جهازه، الذي أداره بمهارة وحكمة ولباقة، وشكل «القسام» من أفراد المنظمة حلقات صغيرة،تتألف الوحدة منها من رقيب وخمسة أفراد.

مهمة صعبة:

كانت مهمة تمويل حركة «القسام» ومدها بالسلاح صعبة للغاية،بسبب الأحوال السائدة، وسريان مفعول أنظمة الطواريء والقوانين الاستثنائية، وكانت مصادر التمويل مع ذلك متعددة وإن كانت تتم بشكل سري، منها: تبرعات الأفراد أعضاء التنظيم، تبرعات من أبناء حيفا كان يتولى جمعها سراً بعض أعضاء الحركة والرجال الوطنيين. وتبرعات من الجمعية الإسلامية في حيفا تسجل في ميزانيتها تحت بند مساعدة المعوزين من المسلمين.

وكان الحصول على السلاح أكثر صعوبة من الحصول على المال، وقد قدم كبار

قادة المنظمة بعض البنادق والمسدسات القديمة،إضافة إلى الأسلحة التي هربها إلى حيفا بعض أنصار «القسام» ومريديه في جبلة واللاذقية.

عندما قرر «القسام» القيام بأعمال مسلحة ضد الأعداء، لم يكن الشعب، أو الإنجليز، أو اليهود يعلمون شيئا عن المنظمة القسامية، فيما كان الشيخ القسام يمارس وظائفه وأعماله في حيفا ويظهر أمام الجميع. قام القساميون وتشكيلات الشباب المرتبطة بهم فور صدور قرار «القسام»، بسلسلة من الأعمال ضد المستعمرات الصهيونية، ودوريات الجيش البريطاني والشرطة، أشاعت هذه الأعمال القلق والذُعر في الأوساط الإنجليزية والصهيونية.

حالة تخبط:

احتار الانجليز واليهود، وأصابتهم حالة من التخبط، لعدم معرفة أصحاب هذه الأعمال ومن يقف خلفهم. ولم تقع معارك كبيرة مكشوفة بين القساميين والجيش، إذ اقتصرت أعمال المجاهدين على مهاجمة المستعمرات الصهيونية ودوريات الشرطة والجيش ثم الاختفاء، وهي من أساليب حرب العصابات.

وقد ألحقت هذه الأعمال خسائر كبيرة بالممتلكات والمزروعات الصهيونية، وأدت إلى قتل كثير من الإنجليز والصهيونيين. ووقعت مصادمات شديدة وواسعة بعض الشيء بين المجاهدين وقوات السلطة في كل من أم الزينات وفرادة وعرابة والبطوف، وبيت جن والناصرة وجبل الكرمل وبلد الشيخ ووادى الطبل بالكرمل وشعب ولوبية. وفى عام ١٩٣٣م هاجم عدد من المجاهدين مستعمرة «نهلال» الواقعة قرب الطريق الرئيسى بين حيفا والناصرة، وكان هجوما مركزا استعملت فيه القنابل والمتفجرات، مما ألحق بالمستعمرة خسائر كبيرة في الأرواح والأموال.

استشهاد البطل:

في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٥م وقعت المعركة الكبري بين القساميين والأعداء، وقد استمرت أربع ساعات، هلك خلالها عدد غير قليل من رجال السلطة، واستُشهد

من القسامين الشيخ «يوسف عبدالله»، و«أحمد الشيخ سعيد»، و«سعيد عطية أحمد»، و«أحمد مصلح الحسين»، وجرح عدد آخر، وبعد الظهر استؤنفت المعركة، فاستشهد «الشيخ عز الدين القسام» وجرح عدد من رجاله، بينما سقط عدد منهم أسرى بأيدي الإنجليز فنقلوهم إلى سجن نابلس. وقُتل من الجانب البريطاني أكثر من خمسة عشر.

استطاع عدد من القساميين اختراق الحصار والوصول إلى منطقة الشمال الفلسطينية، وهم يحملون جثة قائدهم الشهيد، إلى مدينة حيفا، اضطرب الرأي العام الفلسطيني لدى سماعة أنباء المعركة، واستشهاد «القسام» وأصاب الحادث فلسطين كلها بالألم والحزن، وخرجت الصحف تشيد بالشهداء وببطولاتهم وثباتهم في وجه الأعداء،وقد نُقل الشهداء إلى المدينة ملفوفين بالأعلام العربية.

هرَع إلى حيفا عدد كبير من زعماء البلاد للاشتراك في تشييع جثمان «القسام» ورفاقه الشهداء، وغصت المدينة بوفود حضرت من جميع أنحاء فلسطين، في حين قضى أهل حيفا ليلتهم بانتظار تشييع الجنازة وأعلنوا الإضراب العام فيها.

نُعي الشيخ «القسام» وصحبه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب، وحملت الجماهير نعش «القسام»، وصار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية.

ودُفن الشهيد في مقبرة الباجور قرب بلدة «الشيخ» التي تبعد ٧كم تقريبا عن حيفا واستغرقت مسيرة الجنازة نحو ٤ ساعات، وتحولت إلى مظاهرة عاصفة، وقعت خلالها عدة اصطدامات دامية بين الجماهير، وقوات الحكومة وجرح فيها كثيرون من الجانبين.

نيران الغضب:

ترك استشهاد «القسام» رد فعل عنيفاً في الأوساط الفلسطينية والعربية، فعمت

المظاهرات الصاخبة مدن فلسطين وقراها، نادى خلالها المتظاهرون بوجوب الثأر للشهداء، والالتجاء إلى القوة المسلحة لمحاربة الأعداء، وجرت في العواصم العربية مظاهرات ومهرجانات تحتفل «بالقسام» ورفاقه الشهداء.

وكان لحركة القسام واستشهاده أكبر الأثر في إشعال نيران الغضب والثورة، وغدا الشعب برمته مؤمنا بوجوب النضال الفلسطيني المسلح.





بدر الدين الحسني

(١٢٦٧-١٣٥٤هـ=١٨٥٠-١٩٣٥م)

شيخ شيوخ الشام

عالم الدين الحق هو الذي يكون في الطليعة دائما، إذا دعا الناس إلى فعل الخير كان هو من السابقين إليه، وإذا نهى عن شيء، كان أول المنتهين عن إتيانه. وإذا ما دعا داعي الجهاد، كان في مقدمة الساعين إلى الشهادة، أو النصر. وهكذا كان عالم الشام «الشيخ بدرالدين الحسني»، الذي لم يكتف بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية، بل إنه قام بدور رئيسى في الجهاد ضد المستعمر الفرنسي.

هو «محمد بن يوسف بن عبدالرحمن» بن عبدالغني المراكشي السبتى «نسبة إلى مدينة سبتة في المغرب». ينتهي نسبه إلى الولي الشيخ عبدالعزيز التباع، الذي ينتهي نسبه بدوره إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. ولد في دمشق سنة ١٢٦٧هـ، الموافق ١٨٥٠م لأبوين فاضلين تقيين، يُشهد لهما بالصلاح، فوالدته السيدة عائشة الكزبري بنت المرحوم إبراهيم الكزبري من أعرق أسر دمشق علما وفضلا وحسبا ونسبا. وقد عرفت هذه الأسرة برواية الحديث.

أما والده فهو السيد يوسف، ويكفيه فخرا أنه هو الذي استخلص دار الحديث الأشرفية بدمشق من يد بائع خمر حولها إلى مستودع للخمور، فعندما قدم هذا الرجل إلى دمشق، وسمع بذلك، حتى هب يستنصر أهل الشام لإزالة هذا المنكر، فرفع الأمر إلى الوالي، الذي لم يفعل شيئا خوفا من إغضاب القنصلية الفرنسية التي كان يتمتع بحمايتها تاجر الخمور. فما كان منه إلا أن ذهب إلى الأستانة، حيث حصل على فرمان سلطاني بإنقاذ دار الحديث الأشرفية من يد ذاك الرومي. ولكن الوالي لم ينفذ الأمر السلطاني، فسعى السيد يوسف لدى «الأمير عبدالقادر الجزائري» -الذي كان يقيم في ذاك الوقت بدمشق- وأقنعه بشراء الدار من بائع الخمر. وتولى «السيد يوسف» إصلاحها وإدارة شؤونها.

همة عظيمة:

نشأ «الشيخ محمد بدرالدين» في رعاية هذا الوالد العلامة «الشيخ يوسف»، وحفظ القرآن بمعونته وإرشاده، وقرأ عليه مبادئ العلوم حفظا وفهما.

ولما بلغ الثانية عشرة من عمره، توفى والده، فجلس في غرفة والده بدار الحديث، وأخذ يدرس الكتب التي تركها له والده بهمة عظيمة، حتى أدهش علماء عصره بعقله، فقد حفظ اثنى عشر ألف بيت من الشعر في فنون مختلفة، وهو لم يتعد الثانية عشرة من عمره، ولم يكد يكمل الثانية عشرة إلا وقد نبغ نبوغا باهرا استلفت أنظار مشايخه، فأجازوه، وأذنوا له بالتدريس.

أقبل الشيخ الشاب على تحصيل العلم بهمة صادقة، وعزيمة صحيحة، لا يفتر عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار. وكان حصاد خلوته هذه أنه ألف نحوا من أربعين مؤلفا قبل أن يكمل سن العشرين، معظمها كان شروح وتعليقات على الكتب والمتون المعتمدة. وحفظ صحيحي البخاري ومسلم بأسانيدهما، وموطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجة، وكان يحفظ أسماء رجال الحديث، وما قيل فيهم من جرح وتعديل.

ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره، حتى تصدر للإقراء والتدريس، فألف الكتب الكثيرة وأقرأ الكتب الكبيرة. وليس هذا بمستغرب على شاب أنكب على المطالعة وأولع بها كثيرا منذ كان صغيرا جدا. وساعده على ذلك تجنبه كثرة الاختلاط بالناس، وابتعاده عن فضول الأمور. فكان لا يتكلم إلا بما لابد منه من الكلام.

وأشاد به كل علماء عصره، قال العلامة الشيخ بهجة البيطار: كان أعلم محدثي الشام، علم وحفظ ودراية وكتب ودراسة، أما الحديث فلا نعلم له نظيرا في حفظه. ولا في ضبط رجاله ومعرفة سنده. وحسبه روايته في الجامع الأموي تحت قبة النسر، من بعد فريضة الجمعة إلى أذان العصر، وقد دأب على ذلك نحو ثلاثة أرباع قرن. وأما دار الحديث الأشرفية، فقد كان يجلس فيها للدرس صباح كل جمعة وثلاثاء، ولم يكن يقرأ للطلاب فيها من كتب العلوم الشرعية والعربية والعقلية إلا مطولاتها وصعابها، فقد رأى أن هذه الكتب ترفع الهمم وتقوي الملكات في الفهم، وتُعين على دفع الإشكالات والشبهات.

كان يقضي يومه في حركة دائبة وعمل مستمر، لا يكاد يستريح إلا سويعات من

الليل ينام فيها، ثم يقوم قبل الفجر للعبادة والطاعة والعمل المستمر.

عمل رائد:

يشرح أحد تلاميذه، نمط عمله اليومي، يقول «الشيخ محمود ياسين»: كان «الشيخ بدرالدين» يُصلى الصبح في الجامع الأموي ثم بعد أن يقرأ بعض أوراده يذهب إلى غرفته في دار الحديث، وحوله جماعة ممن ولعوا به، فإذا وصل إلى باب المدرسة أقبل عليهم بوجهه وطلب منهم الدعاء، ثم سلم ودخل غرفته، وهناك يتم بقية أوراده، ثم يُصلي صلاة الضحى التي لم يتركها حتى في سفره إلى الحجاز ولا يوم وفاته.

وبعد أن يقضي إغفاءة، يبتدئ الدروس التي تمتد إلى ما بعد الصحوة الكبرى، فإذا قرب الظهر توضأ واستقبل القبلة، ودعا، وصلى ما شاء الله له أن يصلي، فإذا أذن الظهر صلاها بجماعة، وأقبل بعد قراءة أوراده على الدروس، فإذا قرب العصر تهيأ، ثم بعد أن يصليها مع الجماعة يعود إلى الدروس في بيته، وهذا الدرس يحضره بعض الطلبة وكثير من العامة، ويؤخر صلاة العشاء لأجله، فإذا صلاها مع الجماعة ذهب فورا إلى مضجعه من غير أن يكلم بعدها أحدا، فينام وهو ذاكرا لله تعالى، ثم يقوم للتهجد حتى يقرب الفجر، فيأتي الجامع الأموي فيصلي فيه الفجر.

وهكذا كانت حياته دائرة بين ذكر وصلاة ودعاء ومناجاة وصيام وقيام ودروس خاصة وعامة، وشفاعة لدى حاكم، ونصيحة له، وسؤال عن أحوال الناس، وعن أسعار أقواتهم، ومواضع شكاتهم، وترحيب بزائر وطلب الدعاء منه، وزيارة للسجون يتفقد أحوال المسجونين بها ويعظهم، وكذلك القبور، وصلة الأرحام، وعيادة المرضى، وجمع للناس على الله تعالى، وتخويف من عقابه.

داعية وطنية:

وكان «الشيخ بدرالدين الحسني» من دعاة الوطنية والجهاد في سبيل الله والوطن، فقد كان يهيئ نفوس مريديه، ويعدهم للقتال، ويبين لهم فضل المجاهدين بأموالهم وبأنفسهم مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وكان يحدثهم عن أن المسلم يقاتل إما للنصر وإما للشهادة، وللشهداء منزلة عالية عند ربهم، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

هذه الرغبة في الجهاد التي كان يزرعها في قلوب وعقول تلاميذه، كانت راسخة مستقرة في وعيه ويقينه، لذلك لم يكتف بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية بل اضطلع بدور رئيسى وهام في إزكاء النفوس وإشعال نار الثورة للجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، فقد رفض مقابلة الجنرال الفرنسي «غورو» عندما وصل إلى دمشق، وحض الناس على عدم دفع الضرائب للفرنسيين أو التعامل معهم، وصار يعلن في مجالسه الخاصة وفي دروسه أن الجهاد ضد الفرنسيين فرض على الناس.

إعداد النفوس للثورة:

وحتي يُعد النفوس للثورة والجهاد، خرج «الشيخ بدرالدين» مع بعض تلاميذه، ومنهم الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب. يجوبون البلاد داعين إلى الجهاد والثورة على ظلم واستبداد الفرنسيين، بدؤوا رحلتهم من دمشق في سنة ١٩٢٤م، إلى دوما وإلى حمص وحماة، وإلى حلب، طافوا في سورية كلها، وكانوا كلما وصلوا إلى بلدة أو قرية، خرج أهلها على بكرة أبيهم لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد، فتكلموا فيه ووعظوا، وحمسوا وأثاروا العزة الإسلامية في النفوس، وذكروا بالمجد الغابر، وحثوا على الجهاد لإعلاء كلمة الله، فكانت هذه الرحلة هي العامل الأول والمباشر لقيام ثورة ١٩٢٥م السورية ضد الفرنسيين، التي امتدت سنتين، وأذهلت ببطولتها العالم كله.

كان يعيش في سعة من دنياه، ولكن الدنيا كانت في يده لا في قلبه، وكان اعتماده على الله، لا على المال، فلا يحرص عليه حتى يناله من غير محله، ولا يجزع إذا ذهب بغير عمله، عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم، ما جرى فيها بغير العلم لسانه، إلا أن تكون كلمة لابد منها(*).

أكثر من جبهة:

ظل طوال هذه السنوات يقوم بالواجب الكبير، والجهاد العظيم المزدوج الجبهة. جهاد ضد المستعمر، وجهاد ضد الجهل والظلام والفساد، لا يكف عن تعليم، ولا يغيب عن درس، يحافظ على نظام عمله وترتيب أوقاته.. ومازال في حيوية ونشاط، كان وهو ابن ثمانين سنة ظننته ابن الثلاثين، مازال في حركته الدائبة، وهمته الكبيرة وعمله الشاق، لا يغير منها شيئا طيلة سبعة وثمانين عاما، لم يقطع درسا، ولم يؤجل مجلسا، اللهم إلا ما كان في اليوم السابق لوفاته. رغم نصح الأطباء له بالتوقف عن هذا النشاط قبل ذلك بأمد غير يسير.

ولما أحس الشيخ بدنو أجله، ازدحم طلابه وأحبابه حوله حتى شعر بالاحتضار، فسارعوا بالانصراف ليتركوه يلاقي ربه وحده وهو يناجيه بالذكر والدعاء والشكر. وأسلم الروح إلى بارئها، وكان ذلك بعد الضحى بساعة من صباح يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية، الموافق الثامن والعشرين من حزيران سنة خمس وثلاثين وتسعمائة وألف ميلادية. وخرجت سورية بعلمائها، ومعها عدد من علماء البلاد العربية والإسلامية في وداع العالم الكبير.

رحم الله العالم العامل الذي قال عنه صاحب حلية البشر «عبدالرزاق البيطار»: عالم إلا أنه عامل، وفاضل غير أنه كامل، قد اعتصم بحبل السنة والكتاب، وانتظم في سلك المتمسكين بأقوال الصحاب.

(*) الدكتور محمد حسن الحمصي «الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة، المنطلقة من مساجد دمشق»، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ص٨٠٦.



ابن باديس

(١٣٠٧-١٣٥٩هـ=١٨٨٩-١٩٤٠م)

الأب الروحي لثوار الجزائر

لسبب ما في نفوس بعض الحكام، ونفاقا لذوي السلطان، أهمل كُتاب التاريخ المحدثين دور الدين الإسلامي وجهاد علماء الدين في حركات التحرر العربية في العصر الحديث. فقد كان الدين هو المحرك الأساسي والباعث على الصمود في وجه المستعمرين، وكان هو الطاقة التي لا تنفد والتي استمد منها أهالي البلاد المحتلة المدد لمواصلة الجهاد حتى تحررت بلادهم.

سجلات التاريخ المنصف التي لم تُزيف تؤكد ذلك بجلاء ووضوح،سواء في مصر أو الجزائر،أو في تونس وغيرها من الأوطان التي اصطلت بنيران الاحتلال. فلا يمكن لمحلل منصف أن يُنكر دور جبهة علماء الجزائر في الجهاد وإعداد النفوس للثورة،وبناء جيش من الإسلاميين كان في طليعة الثوار الذين أجبروا الاحتلال الفرنسي على الرحيل.

ومن علماء الدين الجزائريين،الذي يمكن بحق اعتباره الأب الروحي لثوار الجزائر، والذي أوقد شعلة الحرية وظل حارسا لها حتي اليوم الأخير من عمره، والتي حملها «من بعده تلاميذه الذين غرس فيهم روح الجهاد والدفاع عن الدين والوطن». «الشيخ عبدالحميد بن باديس».

نشأة دينية:

ولد عبدالحميد بمدينة قسطنطينة في ١١ ربيع الآخر سنة ١٣٠٧هـ، ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩م. لأسرة اشتهرت بمكانتها العلمية والأدبية. نشأ نشأة دينية نيرة،درس علوم اللغة العربية والإسلام علي أيدي أناس يفهمون الشريعة فهماً صافياً،ثم رحل إلى جامعة الزيتونة (١٩٠٨م) وهو في التاسعة عشرة من عمره فأكمل دراسته الدينية بتونس على يد كثيرين في مقدمتهم «الشيخ محمد النخلي» و«الشيخ طاهر بن عاشور»

وبعد أربع سنوات من الدراسة بالزيتونة، سافر إلى الحجاز ١٩١٢م، وهناك التقى «بالشيخ حمدان الونيس» الذي درس على يديه بالجزائر والذي أخذ على «ابن

باديس» عهداً ألا يعمل موظفاً بالحكومة الاستعمارية في يوم من الأيام. كما تتلمذ على الشيخ «أحمد الهندي» الذي نصحه بعد تحصيل العلم أن يعود إلى وطنه والاجتهاد في خدمة العروبة والإسلام.

بعث إسلامي:

وقبل أن يعود إلى الجزائر، وهو في المدينة المنورة تدارس مع رفيق جهاده «الشيخ البشير الإبراهيمي» خطة النضال لبعث الإسلام من جديد في الجزائر، وإعداد النفوس للثورة وبناء كتائب الشباب المسلم وتجهيزهم ليوم التحرير،واتفقا على ضرورة تربية جيل من العلماء والمثقفين ينهض بمهمة إعادة الجزائر إلى العروبة والإسلام والقومية، جيل يمتلك فكرة صحيحة عن الدين ولو مع علم قليل، وتوفير كتائب معدة لمهمة محددة، هي مهمة وضع الوطن الجزائري على طريق الاستقلال، وتسليمه لجيل جديد يواصل رحلة النضال بالسلاح.

وكانت هذه الخطة هي الرد الواجب والضروري لمواجهة إجراءات الاحتلال الفرنسي التي هدفت إلى فرنسة الجزائر، ومطاردة اللغة العربية والإسلام بأقصى صور الإبادة والتشريد والسحق والاستئصال، فقد أقدمت قوات الاحتلال على هدم المساجد وإغلاق المدارس والكتاتيب في غلظة وحشية،وحاربت القضاء الشرعي محاربة ضارية حاقدة. ووضعت سلطات الاحتلال مجموعة من القوانين الجائرة لإبادة اللغة العربية، إذ أعلنت فرنسا: أن اللغة الفرنسية هي لغة الدولة الرسمية، وأصدرت قوانين صارمة تُحرم أن يقوم أي مسلم بإدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بتصريح من قائد المنطقة، فإذا اتجه عربي غيور إلى المطالبة بهذا التصريح أُعتقل أو أُعدم، ثم فتحت المدارس الفرنسية، وكانت المناهج التعليمية لا تعتبر اللغة العربية مادة تستأهل الدراسة، وكذلك الدين الإسلامي، ولكنها تركز اهتمامها بتاريخ فرنسا القديم والحديث، والتغني بالحرية والحضارة الفرنسية المزعومة.

برنامج تعليمي:

وحتي يقاوم ويواجه هذه الهجمة الشرسة على الإسلام ولغة القرآن، نهض «ابن باديس» بعد عودته إلى الجزائر بتنفيذ برنامج تعليمي وتثقيفي وإصلاحي كبير استمر ثمانية عشر عاماً في إعداد العدة وتكوين النواة التي تبلورت في قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٤٩هـ، ٥مايو سنة ١٩٣١م. التي نضج تيارها الفكري وولد هيكلها التنظيمي من خلال لقاءات المثقفين الجزائريين، في نادي الترقي بالعاصمة الجزائر، بعد مؤتمر حضره علماء الجزائر وفقهاؤها، دام أربعة أيام، وانتخب «ابن باديس» -في غيابه- رئيساً لها.

طوال هذه السنوات التي سبقت قيام جبهة العلماء، كان «ابن باديس» يُلقي بقسنطينة دروسه في مسجد سيدي قموش وفي الجامع الكبير، وعندما منعته الحكومة الفرنسية ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م من التدريس في الجامع الكبير،تحول إلى التدريس في الجامع الأخضر. وكانت دروسه تبدأ في مسجد سيدي قموش بعد صلاة الفجر، ثم يقضي النهار في تعليم أطفال المدينة القرآن والعربية والدين.

وفي المساء تبدأ دروسه للكبار والكهول في الجامع الكبير أو الجامع الأخضر، وكثيرا ما كان يسافر بعد الفراغ من دروسه الليلية إلى الجزائر العاصمة ووهران وتلمسان.

ومن سنة ١٣٣١هـ - ١٩١٣م حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٨م،كانت قد تكونت من حوله مجموعة من التلامذة والمريدين والأنصار بلغت الألف عددا، كل ذلك بالتعليم واللقاء المباشر، فقد كان بحق مصنع لصناعة الرجال.

استغلال الطرق الصوفية:

وكما حارب الفرنسيون عروبة الجزائر وذاتيتها القومية بواسطة إشاعة الجهل والأمية بين الأغلبية الساحقة من الشعب، وبواسطة فرنسة التعليم للقلة القليلةمن

الجزائريين الذين أتيحت لهم فرص الالتحاق بمدارسهم، فإنهم قد شنوا هجومهم على الإسلام عندما رأوه لحنا يميز المواطن الجزائري، ووشيجة تربطه بالعروبة والعالم العربي، وتشده بعيداً عن فرنسا والفرنسيين.

ولم يعتمد الفرنسيون في حربهم للإسلام بالجزائر على المبشرين فقط، ولا على إطلاق العنان لجماعات التبشير في المناطق الجنوبية وإغلاقها أمام جمعية العلماء فحسب، وإنما اعتمدوا أيضا على رجال الطرق الصوفية -(الطرقية)- ومكنوا لهم من إحكام القبضة على القلوب وشل عقول أغلبية الشعب بالشعوذة والخرافات،وشل إرادتهم وفعاليتهم بالتواكل والاستسلام. ولذلك بدأ «ابن باديس» حملته العلنية ضد الطرق الصوفية سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م. ذلك المسخ المشوه للإسلام وتعاليم الدين الحنيف.

فقد وضع رجال هذه الطرق أنفسهم في خدمة المستعمر،وأصبحوا أدواته التي يعتمد عليها في تخدير الجماهير،وصوروا للناس ما أنزل الفرنسيون بالبلاد من خراب على أنه إرادة الله سبحانه،ودعوا من أجل ذلك للاندماج في فرنسا امتثالا لإرادة الله. أعلن «ابن باديس» الحرب ضد هذه الطائفة الضالة التي فرت إلى حمى المستعمر والتي نسبت إلى الله زورا وبهتانا،والله بريء مما يفترونه عليه.

وقد نجحت جمعية العلماء الجزائريين بقيادة «ابن باديس» نجاحا ملحوظا في تجريد هؤلاء المشعوذين من صلاحيات التحدث باسم الإسلام، وأخذ المجتمع الجزائري ينظر إليهم كمارقين باعوا دينهم وكرامتهم للمستعمر،حتى لم يعودوا هم ومن تبعهم على درب الاندماج يستحقون شرف الانتساب للإسلام، بل امتنع الناس عن دفن هؤلاء بمقابر المسلمين. وكان انحسار نفوذ هؤلاء المشعوذين يعني زيادة القوة والأنصار لجمعية العلماء، وتصحيح صورة الإسلام، واتخاذه أداة في مناوأة الاستعمار. فقد رأى «ابن باديس» أن العودة إلى منابع الإسلام النقية الأولي وأصوله الجوهرية السبيل الأوحد لبعث الجزائر المناضلة، والطريق الذي لا طريق سواه كي يتحول الإسلام إلي سلاح في معركتها ضد المستعمر، بعدما حوله

المتصوفة إلى وسيلة لتبرير الخضوع للفرنسيين.

الجهاد بالقلم:

وكانت الصحافة أحد الجوانب الهامة من كفاح «ابن باديس»، فقد أنشأ صحيفتا المنتقد والشهاب ليؤديا دور الإرشاد والتوجيه والتحفيز والدعوة إلى التحرير، وجعل «ابن باديس» من الصحيفتين ميدانا رحبا لضحض وإبادة ادعاء الفرنسيين أن بلدهم تحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية في العالم. فأخذ يبين كيف تشن بلد الحرية والحضارة حرب الإبادة والاستئصال دون رحمة أو هوادة، وراح يكشف فظائع فرنسا في الجزائر. فيعلن كيف هاجمت القوات الفرنسية قبيلة «العوفية» ليلة ١٦/ ٤/ ١٨٣٢م، وهي نائمة في الخيام قبل الفجر، فذبحت هؤلاء العزل الآمنين ذبحا لا رحمة فيه، كما بين كيف كانت تساق حيوانات الفلاحين غصبا للبيع، وكان من بين الغنائم أساور نساء في الأيدي المقطوعة وأقراط فتيات لا تزال تلتصق بها قطع من الآذان.

نذالة الطغيان:

ومن الفظائع التي بينها «ابن باديس» أيضا في الصحف ما فعله جنود الاحتلال، حين أوقدوا النار ليلة كاملة أمام كهف يضم قبيلة بأجمعها، وما جاء الصباح ودخل الجند الكهف حتى وجدوا نحو ثمانمائة من جثث الضحايا البريئة من نساء وشيوخ وأطفال تحت أقدام الثيران والحيوانات التي انطلقت تتلمس النجاة من النار فداست كل عزيز ثم لقيت حتفها مع الناس.

ومن أفظع ما شوهد داخل الكهف، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرني أحد الثيران وخلفه امرأته وابنه الصبي، كأنه كان يدفع عنهما الثور الهائج من لفح اللهيب.

هذه الفظائع وأمثالها كانت أدلة «ابن باديس»، وحججه القاطعة على نذالة الطغيان الفرنسي، وهي التي أوحت له العزم في جهاده المستشهد حتى تنوعت آفاقه

الإصلاحية، واستطاع أن يعصف بأسطورة فرنسة الجزائر وتنصير المسلمين.

هذا الجهاد المتواصل بكل وسيلة جعله يتعرض للاغتيال في سنة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٧م، وهو عائد إلى بيته في منتصف الليل بعد فراغه من إلقاء درسه في تفسير القرآن، لكن المحاولة فشلت، وألقي القبض على الجاني بواسطة أعوان «ابن باديس»، ولكنه عفا عنه، واستمر في جهاده لا يخاف في الله لومة لائم.

موقف ثوري:

كان «الشيخ عبدالحميد ابن باديس» صاحب موقف ثوري ضد الاستعمار الفرنسي، وقد تصاعد هذا الموقف الثوري بتصاعد قوة التنظيم الذي أسسه وقاده ورعاه، كما كان يدعو الجميع أن يسلكوا مثله هذا المسلك الثوري، وأن ينفخوا مثله روح الاجتماع الثوري في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد.

وسافر إلى «باريس» في ١٨ يونيو ١٩٣٦م وفد يمثل المؤتمر الإسلامي الجزائري، ولقيهم دلاييه وزير شؤون الجزائر في الحكومة الفرنسية، الذي هدد أعضاء الوفد بقوله: إن لدى فرنسا مدافع طويلة، فتصدى له «ابن باديس» قائلا: إن لدينا مدافع أطول، فتساءل دلاييه عن أمر هذه المدافع الأطول التي تحدث عنها الشيخ، فأجابه الرجل: إنها مدافع الله.

وشهدت سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م تزايد حرارة المواقف الثورية «لابن باديس»، فعندما أراد الفرنسيون الاحتفال بمرور قرن على احتلالهم لمدينة قسنطينة طالب «ابن باديس» الأهالي بمقاطعة الاحتفال فاستجاب له الشعب، وفشلت احتفالات الفرنسيين. ووجه إلى الأمة نداء يدعوها فيه إلى المقاومة حتى تسلم السلطات الفرنسية بالمساواة بين الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين في المجالس النيابية بالجزائر.

وعندما اقترب خطر الحرب العالمية الثانية من فرنسا، سعت الحكومة الفرنسية

إلى الحصول على مساندة جبهة علماء الجزائر، فهدد «ابن باديس» بتقديم استقالته إذا ما ساندت الجبهة فرنسا في حربها. وقال: إنني لن أوقع هذه البرقية حتى لو قطعوا عنقي، وكان ثلاثة من أعضاء الجبهة قد اقترحوا إرسال برقية تأييد للحكومة الفرنسية.

عيد النهضة:

وأطلق «ابن باديس» على يوم افتتاح جمعية العلماء لمؤسسة دار الحديث التعليمية بتلمسان يوم عيد النهضة الجزائرية تعبيرا عن اقتراب الثمرة التي عمل لها من النضج والاستواء. وفي خطابه في ذلك اليوم ٢٧ سبتمبر ١٩٣٧م، حدد «ابن باديس» أعداء هذه النهضة وهم: الظلمة المستعمرون والدجالون الطرقية والخونة دعاة الاندماج، وأعلن أن هذه النهضة قد بلغت الحد الذي يخشاها فيه هؤلاء الأعداء.

وفي سنة ١٩٣٨م أعلن الشيخ المجاهد أن الحركة التي صنعها وقادها قد انتقلت إلى طور جديد فقد أصبحت تخيف بعد أن كانت تخاف. ومنذ هذا التاريخ وهذه الكتيبة المؤمنة تقدم العديد من النجوم المتألقة وترتفع بها إلى سماء النضال.

وإذا كان المصلح العظيم قد انتقل إلى جوار ربه في سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، فإنه قد خلف من بعده أساتذة يحملون الراية ويوالون الجهاد، وفي مقدمتهم رفيق كفاحه «الشيخ محمد البشير الإبراهيمي»، كما ترك من تلاميذه الشبان من صاروا قادة الثورة الجزائرية التي انطلقت في الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤م، ٥ ربيع الأول ١٣٧٤هـ التي حققت حلم ابن باديس في الاستقلال عام ١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م، بعد قرن وثلث قرن من الاحتلال الفرنسي الوحشي ومحاولات الإبادة لهذا الشعب العربي المسلم الصابر المناضل العنيد، الذي دفع ثمن حريته مليون شهيد من خيرة شبابه(*).

(*) محمود قاسم: «عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.



عبد الرشيد إبراهيم

(١٨٤٦-١٩٤٤م=١٢٧٣-١٣٦٤هـ)

الشيخ الأمة

هذا الشيخ في قامة «جمال الدين الأفغاني»،كان مثله معجزة خارقة،حوت حياته الكثير من غرائب الشجاعة وعجائب الجهاد، حقق بمفرده ما تعجز عن تحقيقه الجماعات.

هو الداعية الرحالة المجاهد الصابر الدؤوب: «عبدالرشيد إبراهيم» الذي تعود بنا مظاهر جهاده ودفاعه عن الإسلام والعمل على نشره في ربوع العالم، بسير رجال الإسلام الأوائل الذين نشروا الإسلام شرقاً وغرباً وأضاؤوا بنوره ظلمات القلوب والعقول.

جهاد متواصل:

كان «عبدالرشيد إبراهيم» في كل أدوار حياته مثال المجاهد المتواصل الكفاح، ومثال عالم الدين الذي لم يكتف بالوعظ والإرشاد وإلقاء الخطب، وإنما حول علمه وإيمانه إلى سلاح ضد أعداء الدين في روسيا القيصرية، ثم يرحل إلى الحجاز ليتعمق في دروس الشريعة واللغة، ويصل إلى تركيا ليوجه جهود الخلفاء إلى نصرة المستضعفين من أبناء الإسلام، ويسافر إلى الهند والصين واليابان ليعلن كلمة الله في ربوع نائية لا تكاد تعرف عن الإسلام إلا القليل. وبمنطقة العذب الجميل هدى الله آلاف القلوب إلى اعتناق الدين الإسلامي.

كان داعية غيور يشرح شعائر الوضوء والصلاة والزكاة، ويبني المساجد، باذلا الجهد في جمع التبرعات من شتي ربوع الإسلام، ليعلن كلمة الله في بيوت أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه.

كان ميدان دعوته ونشاطه في أقاصي آسيا، في بلاد الصين واليابان وكوريا ومنشوريا، حيث ذهب إلى هناك لنشر نور الإيمان والهداية.

وإذا كان «جمال الدين الأفغاني» ثائراً مضطرماً يريد أن يغير معالم الدنيا في لحظة عين، فيشعل الثورات مختاراً جنودها من تلاميذ أمدهم بروحه الثائرة فأصبحوا مراجل غضب يصبون النار على المحتلين والمستبدين. فإن «عبد الرشيد إبراهيم»

آثر أن يكون مجاهدا يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يؤلف في صمت، ويعظ في هدوء، ويرحل في مثابرة، ويدعو الله تعالى أن يؤتى جهاده ثماره الطيبة التى تعم بالخير على الإسلام.

وأثمر جهده بالتمكين للإسلام في أماكن نائية كانت تسبح في ظلمات الوثنية والجهل حتى في العصور الحديثة، فقد استطاع «عبدالرشيد إبراهيم» سنة ١٩٣٩م أن يجبر البرلمان اليابانيعلى الاعتراف بالإسلام واحدامن أديان الدولة الرسمية، ثم بنى الشيخ مسجدين تنطلق من مأذنهما نداء «الله أكبر.. الله أكبر».

المولد والنشأة:

وُلِدَ «الشيخ عبدالرشيد» بمدينة «تارا بسيبيريا» سنة ١٨٤٦م- ١٢٧٣هـ، في أسرة تعتز بإسلامها حين كانت القيصرية الروسية في قمة طغيانها العنصري، وحيث كان المسلمون في مجاهل سيبيريا يعانون أشق أنواع الظلم والاضطهاد. ولم يزدها هذا الاضطاد العنصري إلا تمسكاً بدينها القويم. تلقى دروسه الأولى في هذا الجو الذي زاده إصرارا على النهل من منابع الشريعة والثقافة الإسلامية، فارتحل وهو في الثانية عشرة إلى مكة. وهناك راح يغذي نفسه بمصادر العربية الصحيحة ويدرس الفقه والشريعة، وكانت كل خطاه ما بين مكة والمدينة تذكره بأمجاد الإسلام الأولى، وجهاد المسلمين الأوائل لنشر كلمة الله، فتوقد في صدره حمية مشتعلة وغيرة متيقظة، وعز عليه وهو في غربته حال أبناء وطنه سيبيريا وما يعانون منه، وما تتعرض له عقائدهم من شبهات باطلة وأراجيف مختلفة، دون أن يجدوا من يميز لهم الخبيث من الطيب في منطق واضح وإيمان شديد، فقرر أن يعود إلى بلده، بعد أن تزود بحصيلة وافية من المعارف الدينية الصحيحة.

تصحيح المفاهيم:

في جد واجتهاد العالم العابد راح «الشيخ عبدالرشيد» يصحح المفاهيم المغلوطة ويوضح حقائق الدين، فالتف حوله الباحثون عن الدين الحق وذاع

صيته، وأحبه الناس مدافعا عن الدين داعية سمحاً بليغاً، ولم تمض غير سنوات حتى تم اختياره قاضيا بالمحكمة الشرعية، ثم وكيلا للإفتاء الديني.

ولم يتخذ هذا المنصب وسيلة للراحة أو المكانة والتقرب من ذوي السلطان، بل جعل منصبه أداة توجيه وإصلاح لخير المسلمين، فراح يُطالب السلطات القيصرية بوجوب العمل على مساعدة المسلمين ومساواتهم بغيرهم في الحقوق والواجبات. ولم يثنه عن هذه المطالب ترغيب أو وعيد، وظل يناضل من أجل هذه الحقوق.

وسافر إلى استانبول عاصمة الخلافة العثمانية يوضح ما يتعرض له المسلمون في بلده من ظلم واضطهاد وحرمان من أبسط الحقوق.

وهناك عُرضت عليه المناصب، ولكنه آثر أن يكون بين أبناء وطنه يدافع عنهم ويقوم بواجبه تجاههم، فعاد ليواصل الكفاح والجهاد، وعندما لم يوفق في الحصول على ترخيص بإصدار صحيفة يكتب فيها وتكون بمثابة منبر يخاطب منه المسلمين ويدافع عنهم، أصدر عدة رسائل باللغة التركية القاذانية، وراح تلاميذه من الطبقة المستنيرة يجمعون المسلمين من كل بلاد الروس ليقرؤوا عليهم هذه النشرات، التي كانت تحمل دعوات جريئة إلى الإصلاح الديني، والتمسك بمبادئ الإسلام، واليقظة لما يحاك ضد الإسلام من جانب الحكام الروس وغيرهم من حكام الدول الاستعمارية.

ولم تقتصر هذه الرسائل والمنشورات على اللغة القاذانية، بل أخذ يدعو باللغة العربية، ويكتب الرسائل الموجهة إلى المسلمين في المشرق العربي يتحدث فيها عن مآسي المسلمين الروس وما تمارسه السلطات الروسية من ظلم واضطهاد وتنكيل بالمسلمين.

المهاجر بالدعوة:

ولأنه كان يؤمن بأن الإسلام دين عالمي، وأن الداعية الحق للإسلام يجب أن

يجعل العالم أجمع مكاناً لرسالته، رأى الشيخ أن يقوم بالدعوة للإسلام في البلاد البعيدة التي لم تصلها أضواء الهداية المحمدية بعد، فتعددت رحلاته منذ عام ١٩٠٥م إلى اليابان وكوريا والصين وسنغافورة، وجزائر ما وراء الهند، وتركستان ومنشوريا، يدعو الناس إلى دين الإسلام، دين المستقبل، ذلك الدين الذي كان أول دين يهتف بالحرية والإخاء والمساواة.

لم تكن مهمته سهلة ميسورة، وإنما كان الطريق مليء بالصعاب التي لا يقدر على تخطيها إلا أصحاب الإيمان الراسخ والعقيدة الصادقة الذين عاهدوا الله على نصرة دينه. وكان «الشيخ عبدالرشيد» أحد هؤلاء الدعاة الصادقين، الذين لا يبتغون إلا رضوان الله سبحانه وتعالى، فتخطى هذه العقبات ببسالة نادرة، وكان يُنفق على رحلاته من ماله الخاص وكان الله حليفه، فيهدى على يديه بنور الإسلام الآلاف في كل بلد كان يذهب إليه.

ولمس المجاهد الكبير من بشائر التوفيق ما زاده إيماناً وحماسة لرسالته التبشيرية، حتى ذعُرت منه دوائر التبشير المسيحي بآسيا، واعتبرت هذا الشيخ الفرد خطراً على جمعياتها التبشيرية. فقد كان وحده - دون أن تقف وراءه مؤسسة أو دولة تعينه وتمده بالمال - ندا لهذه المؤسسات ذات الميزانيات الضخمة المدعومة من مجلس الكنائس العالمي وحكومات الدول الأوربية التي تساندها. استطاع هذا الشيخ بجهاده في نشر الدعوة الإسلامية في هذه لبلاد أن يؤكد للعالم أجمع، أن الإسلام أقوى من أي سلاح، وأكبر من أية أموال، فهو ينتشر فقط بقوة مبادئه وصدق غاياته وهدفه الأسمى، فهو دين صالح لكل زمان ومكان يصلح دنيا البشر وآخرتهم في سماحة ويسر، بعيدا عن أي تعصب، فلم يكن الشيخ عبدالرشيد يملك في جهاده في هذه البلاد البعيدة غير سلاح المنطق والإقناع والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة الناس بالتي هي أحسن(*).

(*) د. محمد رجب البيومي، «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، الجزء الأول، فبراير ١٩٨٠، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ص٦١.

شيخ واحد:

بعض القساوسة من مبشري المسيحية في الصين أفزعه سريان دعوة «الشيخ عبدالرشيد» بين أوساط الصينيين، فكتب إلى وزارة الخارجية في بلاده هذه البرقية: «انتبهوا.. المسيحية تعاني هنا كثيرا من جهود عدو يزحف عليها بقوته.. أخبرونا ماذا نفعل؟».

انزعجت وزارة الخارجية، وأرسلت إلى عميلها في الصين تقول: «أفزعتنا برقيتكم، نريد المزيد من التفاصيل عن قوة هذا العدو، ومدى نفوذه الحربي، وما القوى التي تقف خلفه.. أفيدونا بسرعة حتى يمكن وضع خطة للتحرك ومواجهة هذا الخطر الذي تتحدثون عنه».

ويرد عليهم قائلا: «هذا العدو مجرد شيخ واحد اسمه عبد الرشيد!»

واستمر هذا الشيخ الأمة يبشر بالدين السمح الرحيم حتى أسلم على يديه المئات والآلاف، وحتى أصبح الإسلام ديناً معترفاً به في بلاد الشمس المشرقة، وقد ارتفعت في طوكيو المآذن تردد في اليوم الواحد خمس مرات هتاف الإسلام الخالد: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله.

حمل السلاح:

لم يقتصر جهاد «الشيخ عبدالرشيد» على ميدان الوعظ والإرشاد والكتابة في الصحف، فإلى جانب المنبر والقلم كان مجاهداً يحمل السلاح، فقد كانت نصرة الإسلام هي غايته الكبرى، عندما احتل الإيطاليون ليبيا،ذهب إلى هناك يجاهد مع إخوانه الليبيين سنة ١٩١٢، وله في هذا الجهاد بطولات رائعة. وحين قامت الحرب العالمية الأولى،حمل السلاح إلى جانب الجيش العثماني في جبهة القوقاز، وإلى ألمانيا ذهب أثناء الحرب لمتابعة أحوال الأسرى المسلمين.

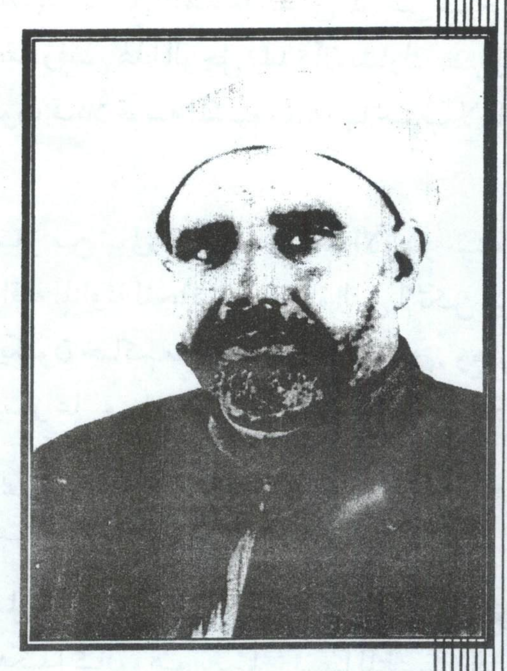
وقد حضر «الشيخ عبد الرشيد» إلى القاهرة وأقام فيها فترة، وكان مجلسه يجمع رواد من مختلف المذاهب والمشارب الذين اجتمعوا على الإعجاب به

والعجب منه، فمنهم من جاء ليستمع إلى الشيخ الرحالة الذى يتحدث عن جماعات المسلمين ويصف أدواءهم وأدويتهم، فقد ركب البر والبحر ليدعو إلى الله، ومن منصت إلى عجائب الأسفار وغرائب الأوطان. ومن مكبر لهذا الشيخ الوقور، الذي لا تقعد به السن عن الأسفار البعيدة، وقد أتاح له كل هذا أن يصدر مؤلفه: «عالم إسلام» يجمع فيه مشاهداته الشخصية البصيرة في شتي ربوع الإسلام، في آسيا وأوروبا وأفريقيا، ويصف من أدواء المسلمين وعللهم ما لم يتيسر الإلمام به إلا للقلائل..

وعن نفسه كتب يقول: «ما تركت بقعة من العالم الإسلامي إلا زرتها وطوفت في أرجائها، جبت ما بين أقصى الشرق والمغرب الأقصى، ولم أدع موطناً للمسلمين في آسيا وأوربا وأفريقيا إلا يممته، وتعرفت ماضيه وحاضره، وقد أرهقتني الأسفار الكثيرة المتتالية، ومضيت في طريقي رغم كل شيء، فقد كان هناك نداء لا ينقطع من أعماق نفسى ألا تقف، تقدم، امض في سبيلك، نداء غيرتي على ديني، تلك الغيرة التي تصطدم كالبركان بين جوانحي فلا أطيق وقوفاً، ولا أثبت في مكان، لا يقيدني حب النفس والوطن والأهل والولد، فكل هذه الأشياء لم تكن لتثنينى عن عزمي، ولا تعدل بي عن مقصدي، لا أبغي إلا وجه الله، ذلكم كل أملي لا أبغي سواه».

هكذا ظل المجاهد الكبير «الشيخ عبدالرشيد إبراهيم» طوال عمره المديد حتى توفي سنة ١٩٤٤م، يوم ٣١ أغسطس (١٣٦٤هـ)..





الإمـــام المراغـــي

(١٢٩٨-١٣٦٤هـ=١٨٨١-١٩٤٥م)

الرجل الأكثر خطرًا على بلاد الإنجليز

«إن هذا الرجل أخطر على بلادنا وحياتنا من ويلات الحرب..» هذا ما قالته التايمز البريطانية عن فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر في فترة الحرب العالمية الثانية، فقد رفض هذا الرجل بشدة أن تشارك مصر إنجلترا في حربها ضد الألمان ودول المحور، قائلا قولته المشهورة: «إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل».

و«المراغى» هو أصغر من تولى منصب مشيخة الأزهر سناً، وقد تولى هذا المنصب مرتين رغم مواقفه المناوئة للحاكم، وفتاواه التي لم تكن ترضى السلطان. ورغم معارضته لأن يكون حاكم مصر خليفة للمسلمين. وهو تلميذ الإمام «الشيخ محمد عبده»، وسار على منهاجه في كل ما تولى من مناصب دينية.

فلم يتقيد بمذهب أبى حنيفة كما كان المتبع آنذاك، وتزعم الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وتوحيد المذاهب حتى تتوحد الأمة.

هكذا كان وهو يعمل قاضيا لمديرية دنقلة وقاضيا لمديرية الخرطوم، وقاضيا للقضاة بالسودان. وهكذا كان وهو يعمل رئيسا للتفتيش الشرعى، ورئيسا للمحكمة الابتدائية الشرعية، ورئيسا للمحكمة العليا الشرعية في مصر، وحتى عندما أصبح شيخا للأزهر.

وكان «المراغى» يتمتع بقدر كبير من الذكاء والدهاء واستقلال الرأى والشخصية.

قاضى قضاة السودان:

وُلِدَ «الشيخ محمد بن مصطفى بن محمد المراغى» ببلدة «مراغة» مركز طهطا محافظة سوهاج في ٩ مارس ١٨٨١م. الموافق ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨هـ. وكان والده عالما جليلاً واسع الثقافة، وظهرت نجابة الابن مبكراً فأرسله إلى الأزهر، حيث اتصل بالشيخ «محمد عبده» وتأثر بفكره، وانتفع بمحاضراته في البلاغة والتوحيد والتفسير، شجعه -محمد عبده- على أن يعود للمصادر الأصيلة، وألا يكتفي بالقشور.

وكان أصغر من حصل على شهادة العالمية سنة ١٣٣٢هـ. رغم أنه كان مريضا أثناء الامتحان. ولما طلبت حكومة السودان من «الشيخ محمد عبده» اختيار قضاة السودان، رشح «المراغي»، فتولى قضاء الخرطوم سنة ١٩٠٤م. وهناك تعلم اللغة الإنجليزية، واتسعت علاقاته بزملائه وأصدقائه السودانيين، كما توثقت علاقته بحاكم السودان الإنجليزي رغم حفاظه على جلال المنصب الذي يشغله، ومع تمسكه بالقواعد الشرعية، ومع حرصه على هيبة شخصيته. وطوال إقامته هناك عُرف عنه الميل إلى الاعتدال والنفور عن العنف، مع الاستقلال في اتخاذ القرار، ثم أصبح قاضي القضاة بالسودان (١٩٠٨م) وعمره ٢٧ عاما، فكان أصغر من تولى هذا المنصب.

ولما أرادت حكومة السودان تعديل لائحة المحاكم الشرعية تمسك بأن من سلطته كقاضي القضاة أن يختار للقضاه الآراء الفقهية التي يحكمون بها، وأبى السكرتير القضائي، فاحتكما للحاكم الذي أقر رأي «المراغي».

وعندما قامت ثورة ١٩١٩م، وامتدت آثارها إلى السودان، وحاول الإنجليز قمعها في مصر بأساليب وحشية، أصدر الإمام المراغي نشرة ثائرة عنوانها «اكتتاب لمنكوبي الثورة بمصر» وصف فيها المآسي التي لحقت بمصر، واستجاب السودانيون للنداء، وقد أغضب هذا التصرف منه حاكم السودان إلا أنه لم يستطع أن يمنع السودانيين عن مناصرة إخوانهم في مصر.

ومن دلائل اعتزاز «المراغى» بكرامته، أن الملك الإنجليزي جورج الخامس، مر بالسودان، وطلب من الموظفين أن يكونوا في انتظاره، على ألا يصعد إلى الباخرة إلا الحاكم العام للسودان، وأصر المراغى أن يصعد إلى الباخرة قبل الحاكم العام، وإلا فلن يكون في استقبال الملك جورج، وتم له ما أراد.

ثم عاد «المراغى» إلى مصر في يوليو ١٩١٩م، وتنقل في عدة مناصب: حيث عمل كرئيس للتفتيش الشرعى بوزارة العدل، ثم رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية

الشرعية، ١٩٢٢م، وعضو المحكمة العليا الشرعية، فرئيسا لها سنة ١٩٢٣م. وكان في هذه المناصب جميعا أصغر من تولاها سناً.

آراؤه.. واتجاهاته الفكرية:

كان الشيخ «المراغي» معنيا بقضية الإصلاح والتجديد، مترسماً في ذلك خطا أستاذه «محمد عبده»، وقد اهتم الشيخ «المراغي» بإصلاح كل من الأزهر والقضاء.

(١) إصلاح القضاء: كان إصلاح القضاء هو الاهتمام الشاغل للإمام «المراغي» لتحقيق العدل والإصلاح بين الناس، وكان الشيخ يتبع أسلوبا جديداً مع المتقاضين، حيث كان يحاول أن يوفق بينهما دون اللجوء للتقاضي، وكان يرى أن القاضي يستمد أحكامه وقدراته من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، ولا سلطان لأحد عليه سوى الله ثم ضميره حتى يستطيع أن يؤدي رسالته في العدالة بين الناس دون الخوف من أحد، حتى ولو كان الحاكم أو السلطان.

وكان «الإمام المراغي» يرى أن إصلاح القانون هو إصلاح لنصف القضاء، لذلك شكل لجنة برئاسته تكون مهمتها إعداد قانون يكون هو الركيزة الأساسية للأحوال الشخصية فى مصر.

وقد وجه «الإمام المراغي» أعضاء اللجنة المكلفة بإعداد القانون بعدم التقيد بمذهب معين، حيث كان القضاة لا يحيدون عن مذهب الإمام أبي حنيفة، الذي كان معمولاً به في ذلك الوقت، إلى غيره من المذاهب، ولكن «الإمام المراغي» كان يرى بضرورة الأخذ بغيره من المذاهب إذا كان فيها ما يتفق مع المصلحة العامة للمجتمع، وكان مما قاله لأعضاء اللجنة: «ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان، فالشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد في تفريعاتها وأحكامها في القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا في كل وقت».

إعادة النظر في قوانين الأزهر:

(٢) إصلاح الأزهر: كانت نصرة الإسلام وتطوير وإصلاح الأزهر على رأس

أولويات «الشيخ المراغي»، لذلك شكل فور توليه مشيخة الأزهر لجاناً لإعادة النظر فى قوانين الأزهر، ومناهج الدراسة فيه.

كما قدم قانوناً لإصلاح وضع الأزهر «للملك فؤاد» الذي كان مشرفا على شؤون الأزهر آنذاك، إلا أن بعض حاشية الملك فؤاد أوعزوا له بأن الشيخ المراغي يريد استقلال الأزهر عن القصر، فرفض الملك فؤاد القانون، وأعاده إلى «الشيخ المراغي».

فما كان من «الشيخ المراغي» إلا أن وضع القانون الخاص بإصلاح الأزهر في ظرف، واستقالته من مشيخة الأزهر في ظرف آخر، وطلب من «الملك فؤاد» حرية الاختيار، فقبل الملك فؤاد الاستقالة، ولكن الإضرابات عن الدراسة التي قام بها علماء وطلاب الأزهر، والتي استمرت أكثر من ١٤ شهرا أجبرت الملك فؤاد على إعادة «المراغي» شيخا للأزهر مرة أخرى.

وقام «الشيخ المراغي» بإنشاء ثلاث كليات تكون مدة الدراسة فيها أربع سنوات، تتخصص إحداها في علوم العربية، وهي كلية اللغة العربية، والثانية في علوم الشريعة وهي كلية الشريعة والقانون، والثالثة في علوم أصول الدين وهي كلية أصول الدين.

وقد دعا الإمام المراغي إلى ضرورة العمل على تحرير مناهج الأزهر من التقليد والتلقين في التدريس، والأخذ بالأساليب الحديثة، والتوسع في الاجتهاد.

ودعا الطلاب إلى دراسة اللغات الأجنبية ليكونوا أكثر قدرة على نشر الإسلام والثقافة الإسلامية لغير المسلمين.

جماعة كبار العلماء:

وقد شكل «الإمام المراغى» لجنة للفتوى داخل الجامع الأزهر تتكون من كبار العلماء تكون مهمتها الرد على الأسئلة الدينية التي تتلقاها من الأفراد والهيئات، كما شكل أكبر هيئة دينية في العالم الإسلامى، وهى جماعة كبار العلماء، والتي تتكون من

ثلاثين عضواً، واشترط الإمام المراغى في عضويتها أن يكون من العلماء الذين لهم إسهام في الثقافة الدينية، وأن يقدم رسالة علمية تتسم بالجرأة والابتكار.

وقد دعا «الإمام المراغي» للتقريب بين المذاهب الإسلامية والتقريب بين طوائف المسلمين، وبذل في سبيل ذلك بعض المحاولات منها: إجراء محادثات مع أغاخان!! بهدف تكوين هيئة للبحث الديني تكون مهمتها توثيق الروابط بين المسلمين في جميع أنحاء العالم، وإقامة نوع من التعاون بين الهيئات التعليمية في البلدان الإسلامية، والتوفيق بين المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم وفرقهم.

مواقف تاريخية:

وكان «المراغى» حازماً في قضاياه لا ترهبه سلطة أو يخضع لابتزاز، وهو ينظر قضية كبيرة تتعلق بملايين الجنيهات، لوح له أصحابها ببعض الألوف حتى يصدر الحكم لصالحهم، ولكنه رفض في شجاعة فلابد أن يأخذ العدل مجراه، فألقى أصحاب القضية بواسطة بعض البلطجية عليه ماء النار.

ومحنة أخرى تعرض لها أثناء توليه القضاء، فعندما طلق الملك فاروق زوجته الملكة فريدة، أراد الملك أن يحرم عليها الزواج من بعده، ورفض المراغى أن يصدر فتوى بذلك، وذهب الملك إليه، وكان يعالج في مستشفى المواساة إثر إصابته بماء النار، فقال المراغى كلمته المشهورة: «فأما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم فلا أملكه» ولما غلظ عليه فاروق صاح الشيخ: «إن المراغى لا يستطيع أن يحرم ما أحل الله».

وفي عام ١٩٢٨ تولى «المراغى» مشيخة الأزهر، وكان عمره وقتها (٤٧ سنة)، وكان يحظى بمساندة حكومة الأحرار الدستوريين، ويؤيده تيار الإصلاح داخل الأزهر، فشكل لجنة للإصلاح برئاسته مترسما خطا «الإمام محمد عبده»، الذي كان يرى أن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام، وأن إصلاحه لصالح جميع المسلمين. ونادى بالعناية بحفظ القرآن الكريم والاهتمام بدراسة علومه، ودراسة السنة،

وحرص على منع التعصب لمذهب، ودعا إلى دراسة الأديان الأخرى والمقارنة بينها.

لا ناقة ولا جمل:

وكان «الشيخ المراغى» من الداعين إلى عدم مشاركة البلاد في الحرب العالمية الثانية، وألا تجر مصر إلى الحرب بين الحلفاء والمحور. وأعلن عن ذلك الرأى صراحة في خطبة الجمعة التي ألقاها بجامع بيبرس يوم ١٩ سبتمبر ١٩٤١، وكان يحضرها الملك فاروق، حيث قال: «إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل». وقد أغضب ذلك الإنجليز، وحاولوا عن طريق رئيس الوزراء حسين سرى أن يعدل الشيخ عن هذه الفتوى، وبعد أن أعيت الحيلة حسين سرى في حواره مع المراغى، قال له: هذا كلام في السياسة، وليس من اختصاصك، وليس لك أن تتكلم في أمور تخصنا. فقال المراغى: إننى لا أتكلم في السياسة، وصاح به: «أتهددنى وأنا شيخ الأزهر!» وأضاف: «إن شيخ الأزهر أقوى بنفوذه من رئيس الوزراء، ولو شئت لارتقيت المنبر، وأثرت عليك الجماهير، حتى تجد نفسك معزولا عن الشعب»(*).

وكان موقف الشيخ في هذه المسألة يتفق وموقف الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى والقصر. وقد أقلق هذا الموقف إنجلترا، لدرجة أن جريدة التايمز البريطانية خرجت تقول: «إن هذا الرجل -تقصد الشيخ المراغى- أخطر على بلادنا وعلى حياتنا من ويلات الحرب». ومع ذلك لم يغير «المراغى» موقفه.

فقد كان صلبا في المواقف حتى ولو كان مع أصدق الأصدقاء لا يحب الكذب والنفاق، من ذلك: إن «المراغى» كان صديقا لمحمد محمود باشا زعيم الأحرار الدستوريين، وقد سأله السفير البريطانى يوماً: من سيفوز في الانتخابات؟ قال: الوفد، فعجب السفير وقال: إننى أعلم أنك صديق لمحمد باشا محمود، فقال «المراغى»: إن الصداقة لا تدفعنى للكذب والنفاق.

(*) لمعى المطيعى، «موسوعة هذا الرجل من مصر»، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧، ص٥٣٢.

وقد استقال «الإمام المراغى» من مشيخة الأزهر في المرة الأولى في ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٩م، عندما وجد عدم استجابة من الحكومة لمشروعاته الإصلاحية التي كانت تقوم علي إلغاء مدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم وفتح باب الاجتهاد وإدخال العلوم الحديثة.

وظل المراغى بعيداً عن الأزهر قرابة خمس سنوات. تولى المنصب فيها «الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى»، إلى أن خرج الأزهر ينادى بالمراغى وألح في النداء، وكان الرد فصل ٧٢ من شيوخه وعلمائه.

ومع بداية وزارة توفيق نسيم (١٤ نوفمبر ١٩٣٤م) بدأ شباب الأزهر حركة أعلى صوتاً تطالب بالإصلاح، وامتدت الحركة إلى معاهد المدن الأخرى، وتصاعدت الحركة حتى يناير ١٩٣٥م، وفي فبراير بلغت الحركة ذروتها وتحدد هدفها في عودة المراغى، وأطلق زعيم هذه الحركة.. «الشيخ أحمد حسن الباقورى» عبارته الشهيرة: «إما تحت راية المراغي، وإما إلى القرى تاركين الأزهر للبوم والغربان». وتحت هذا الضغط استقال «الشيخ الظواهرى»، وعاد الإمام المراغى إلى الأزهر مرة أخرى في أبريل ١٩٣٥م. وظل في منصبه عشر سنوات حتى توفي في ٢٢ أغسطس ١٩٤٥م، الموافق ١٤ رمضان ١٣٦٤هـ.

مؤلفاته:

أثرى «الشيخ المراغى» المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات والتراجم، والتي اشتملت علي برامجه الإصلاحية، وخاصة إصلاح الأزهر وقوانين الأسرة، بالإضافة لمؤلفاته ودروسه في تفسير القرآن الكريم، وبعض القضايا الفقهية واللغوية ومن أهم هذه المؤلفات:

الأولياء والمحجورون: وهو بحث فقهي لا يزال مخطوطا بمكتبة الأزهر، تناول فيه الشيخ المراغى الحجر على السفهاء، وقد نال الشيخ المراغى بهذا البحث عضوية هيئة كبار العلماء.

تفسير جزء تبارك: وقد قصد الشيخ المراغى من هذا التفسير أن يكون مكملاً وتكملة لتفسير جزء عم للإمام محمد عبده.

بحث في وجوب ترجمة القرآن الكريم.

رسالة بعنوان: الزمالة الإنسانية، كتبها لمؤتمر الأديان في لندن.

بحوث في التشريع الإسلامي وأسانيد قانون الزواج رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩م.

مباحث لغوية بلاغية :

دروس دينية نشرت بمجلة الأزهر تشتمل على تفسير لبعض سور القرآن الكريم، وقد ألقى «الشيخ المراغي» هذه الدروس في المساجد الكبرى في القاهرة والإسكندرية، وحضرها الملك فاروق في الفترة من عام ١٣٥٦هـ حتى عام ١٣٦٤هـ، وقد نُشرت هذه الدروس في كتيبات مستقلة.

شهادات عن فضله :

قال عنه د. محمد سيد طنطاوي -شيخ الأزهر السابق- بالرغم من أن حياة الشيخ المراغي كانت قصيرة، إلا أنها كانت طويلة وكبيرة بالنسبة للأعمال التي قام بها في خدمة الأزهر من إصدار قوانين، وتطوير للمناهج، وإنشاء كليات اللغة العربية، وأصول الدين، والشريعة والقانون.

ولم يكن «الإمام المراغي» فلتة في عائلة، بل أحد أعضاء عائلة كلها علماء أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات والتراجم والتحقيق لكتب التراث.

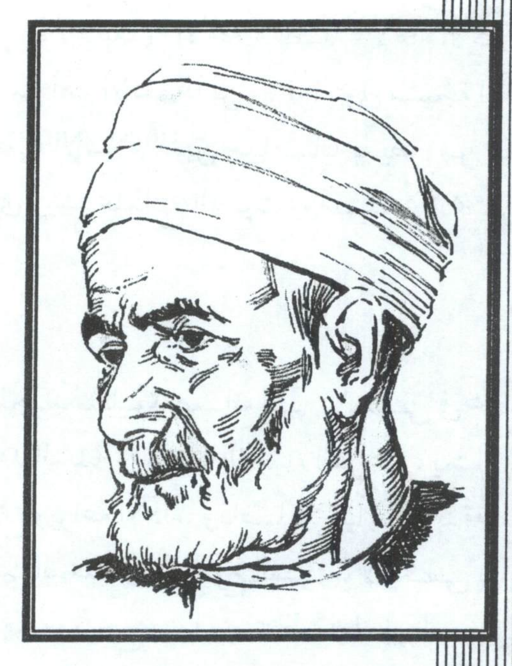
وقالت عنه د. نعمات أحمد فواد: جمع «الشيخ المراغي» بين علوم الدين والعلوم الكونية. ومنها الأدب كما كتب الشعر والنثر.

كما نادى بدراسة الأديان دراسة مقارنة ضمن مناهج الأزهر لتتجلى فيها الصورة المشرقة للإسلام، كما أكد أن التقدم العلمي والفلسفي ليسا بقادرين على منع الحروب وأسبابها، فقد شهدت الأيام أن الحروب تزداد وحشية وقسوة بتقدم

العلم، وأن الأديان، وفي مقدمتها الإسلام - وحدها القادرة على وقف ومنع هذه الحروب.

وقال عنه: د. محمد نايل - عميد كلية اللغة العربية السابق، ورفيق الإمام المراغي (رحمه الله) - أن «الإمام المراغي» كان ثورة لا يهاب أحدا في سبيل الحق.





الإمام عبد المجيد سليم

(١٨٨٢-١٩٥٤م)

التمسك بالحق والجرأة في الفتوى

يحفل تاريخ مصر بكوكبة من علماء الدين الذين عرفوا بمواقفهم الصريحة القاطعة ودفاعهم المخلص والمستميت عن الدين، والتصدى بكل حزم لأى مساس بالشريعة الإسلامية. ومن هؤلاء العلماء الأجلاء فضيلة «الإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم» وهو واحد من أهم الأئمة الذين شرفوا بتولى مشيخة الأزهر وشرفت بهم. فقد كان من نوابغ علماء الإسلام الذين حباهم الله بفيض من علمه وفضله، حتى أصبح فقيهاً لا يبارى ومشرعاً ذائع الصيت، ومُصلحاً لا يخشى فى الله لومة لائم.

بصمات لا تُنسى :

كان للإمام «عبد المجيد سليم» بصماته التى لا تنسى فى خدمة الإسلام والمسلمين، مدرساً بالمعاهد الدينية ومدرسة القضاء الشرعى، يمتاز بغزارة العلم ومداومة البحث والإطلاع وبراعة الأداء، وقاضياً شرعياً يمتاز بدقة البحث وتحرى الحق. ومفتياً لمصر يستقصى البحث فى موضوع الفتوى، لا يكتفى برأيه هو، وإنما يحرص على ذكر آراء الفقهاء، ويرجح بينها ويستنبط منها ما يراه صحيحاً، ثم يدعم رأيه بالأدلة العقلية والبراهين النقلية.

تأثر «الإمام عبد المجيد سليم» بالشيخ «حسن الطويل» وعرف منه أساليب عديدة فى فنون الجدل والقياس، وكان الشيخ يرعاه ويوجهه ويرشده، وقد تنبأ له أن يصبح شيخاً للأزهر. ودرس الفقه على العالم الجليل «الشيخ أحمد أبى خطوة». كما كان يحضر دروس «الإمام محمد عبده» فى الرواق العباسى وظل مواظباً على حضورها على مدى خمس سنوات، تلقى خلالها عنه أسرار البلاغة، كما تلقى عنه دروساً فى تفسير القرآن الكريم والمنطق والفلسفة.

وكان تأثير «الإمام محمد عبده» و«الشيخ أبى خطوة» قوياً واضحاً فى فتاوى «الإمام عبد المجيد سليم» وآرائه، مع التحرر المطلق من التقيد برأى معين أو مذهب خاص.

وُلِدَ الإمام الشيخ فى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٨٢ م فى قرية «ميت شهالة» بمحافظة المنوفية، تعلم مبادئ القراءة والحساب بكتاب القرية، ثم التحق بالأزهر، وحصل على الشهادة العالمية من الدرجة الأولى عام ١٩٠٨م، ثم اشتغل بالتدريس فى المعاهد الدينية ومدرسة القضاء الشرعى، حيث كان يدرس للطلاب مادتى الفقه وأصوله، ثم وُلىَّ القضاء قبل أن يصبح مُفتياً للبلاد على مدى سبعة عشر عاماً، وفاز بعضوية جماعة كبار العلماء، ثم أصبح وكيلاً لها، قبل أن يُعهد إليه بالإشراف على الدراسات العليا بالأزهر ورئاسة لجنة الفتوى.

وفى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٦٩هـ الموافق ٨ أكتوبر عام ١٩٥٠م صدر قرار تعيينه شيخاً للأزهر، حيث كان الإمام الثالث والثلاثين فى تاريخ الأزهر.

تمسك بالحق:

و قضى «الشيخ عبد المجيد سليم» فى منصب المفتى سبعة عشر عاماً متواليات، وهى أكبر مدة قضاها عالم من علمائنا فى منصب المفتى، وقد كان تمسكه بالحق ودقته فى الفتوى وراء هذه الفترة الطويلة فى المنصب، وبلغ إجمالى القضايا التى أفتى فيها ١٥٧٩٢ فتوى، وهى ثروة فقهية عالية القيمة.

وشجاعة الشيخ عبد المجيد فى فتواه، لم تكن وليدة شغله منصب الإفتاء، وإنما كانت جزءاً من شخصيته، حتى وهو طالب فى المعاهد الأزهرية، ثم وهو قاض شرعى بعد تخرجه من مدرسة القضاء الشرعى.

ومن قضاؤه الشجاع قضية وقف كان ناظره «الملك فؤاد» ملك مصر، وقد رُفعت القضية لإقصاء الملك عن هذه النظارة للوقف، وقال المدعى فى دعواه: أنه لا يجوز للملك أن ينظر وقفاً بشخصه، لأنه صاحب وضع دستورى لا يجيز له القيام بأعمال مثل نظارة الوقف، فهو يدير أملاكه بنفسه أو بأجهزته الخاصة الملكية، أما كونه ناظراً للوقف فهذا يجعله محل المساءلة إذا أخطأ، والوقف تتعلق به حقوق

خيرية كثيرة، منها ما يصيب الأشخاص، ومنها ما يصيب الهيئات، وكل صاحب حق له وجهة نظره فى قدر ما يؤدى إليه ريع الوقف، فإذا وجد خطأ كان من واجبه أن يشير إليه وأن يقتضيه، وهذا يجعل موقف الملك حرجاً، فإما أن تضيع حقوق الموقوف عليهم، وإما أن تضيع هيبة ولى الأمر.

وعلى الناحية الأخرى من الدعوى كان محامى الملك فؤاد يدافع عن نظارة الملك للوقف، ويطالب برفض الدعوى، لكن القضية ينظرها قاض شجاع، لا يتحرج من الحكم بالحق، فقضى بعزل الملك فؤاد عن نظارة الوقف، وتم تنفيذ الحكم.

وبرغم هذا الحكم الشجاع، فإن الملك فؤاد عندما عُرض عليه تعيين «الشيخ سليم» فى منصب الإفتاء وافق على الفور، ولم يحاول الانتقام منه، وإنما أصدر المرسوم الملكى بالتعيين، وبالرغم من أنه لم يكن عضواً فى المحكمة الشرعية العليا، وكان التقليد أن يُختار المفتى من بين أعضائها، إن لم يكن رئيسها.

ضد الملك فاروق:

وفى منصب الإفتاء واجه الشيخ تحدياً آخر، ولكن ضد الملك فاروق، الذى تولى الملك بعد وفاة أبيه الملك فؤاد. فقد وصل إلى الشيخ سؤال من إحدى المجلات عن مدى شرعية إقامة الحفلات الراقصة فى قصور الكبار، وقد حمل رسالة المجلة إليه أحد أمناء الفتوى فى دار الإفتاء، ولفت نظره إلى أن المجلة التى طلبت الفتوى من المجلات المعارضة للملك، وأن الملك قد أقام حفل راقص فى قصر عابدين، فالفتوى إذن سياسية، وليس مقصوداً بها بيان الحكم الدينى. وتريد المجلة بذلك الوقيعة بينه وبين الملك، إلى جانب التعريض بالتصرف الملكى وصولاً إلى هدف سياسى.

فقال فضيلته: وماذا فى ذلك؟ إن المفتى إذا سُئل لابد أن يجيب ما دام يعلم الحكم، فإن لم يكن يعلمه بحث عنه بوسائله المتاحة من اطلاع على القرآن والسنة، وعلى كتب الأقدمين، وبواسطة جهاز الأمناء فى دار الإفتاء، فإذا أعجزته الوسائل

قال: لا أدرى. وأصدر المفتى فتواه بحرمة هذه الحفلات، ونشرت المجلة الفتوى مؤيدة بالأدلة الشرعية. وحدثت الأزمة بين الملك والمفتى، وصمم الملك على الانتقام من المفتى، الذى كانت فتواه سبباً فى إحراج موقفه السياسى.

وعلى إثر هذه الفتوى وجه الديوان الملكى الدعوة إلى «الشيخ عبدالمجيد سليم» لحضور صلاة الجمعة مع الملك فى مسجد قصر عابدين، وهو القصر الذى أُقيم فيه الحفل الراقص، فذهب المفتى وجلس فى المكان المخصص له، وحين حضر الملك جلس فى مكانه بالصف الأول، وبعد انتهاء الصلاة وقف كبار المصلين لمصافحة الملك بعد الصلاة قبل أن يدخل إلى حديقة القصر من الباب الداخلى للمسجد المؤدى إلى الحديقة، ووقف المفتى فى مكانه استعداداً لهذه المصافحة الملكية، وكان كل من يأتى عليه الدور للمصافحة يرفع يده قبل أن يدركه الملك استعداداً لمصافحته، لكن الشيخ عبد المجيد سليم هدته فطرته الإيمانية إلى عدم رفع يده، وكانت نية الملك أن يترك يد الشيخ ممدودة للمصافحة دون أن يصافحه، ويكون فى ذلك عقابه والانتقام منه، لكن إيمان الشيخ أنقذه، فقال له الملك: ما الذى دعاك يا شيخ للفتوى ضدى؟ فأجابه الشيخ: المفتى إذا سُئل لابد أن يجيب ليعرف الناس الحق من الباطل، ولينتهى المبطلون إذا أرادوا، وإلا عرضوا أنفسهم لعقاب الله.

مقاطعة الاحتفالات الرسمية:

ولم يكتف الشيخ بهذه المواجهة ومع الملك على رؤوس الأشهاد، بل رفض بعد ذلك حضور الحفلات الرسمية التى يترأسها الملك، وكانت تأتيه الدعوة ولا يعتذر عن عدم الحضور. ومعنى هذا أن يبقى المقعد المخصص للمفتى شاغراً، مما يسيء إلى الملك.

اتصل رئيس الديوان الملكى بالمفتى يلفت نظره إلى أهمية الالتزام بالبروتوكول، وأن عليه إذا كان هناك ما يمنعه من الحضور أن يخطر الديوان: فأجابه المفتى: أن موقفه قضية كرامة، وإذا اتصلت الكرامة بالبروتوكول، كانت الأولوية للكرامة،

ولا بأس عليكم إذا لم توجهوا الدعوة إلى المفتى.

ورفع الديوان الأمر إلى الملك، ليدرك أنه أمام شخصية فذة من علماء المسلمين وأنه لا سبيل إلى زحزحته عن موقفه إلا بالاعتذار إليه. فأمر الملك رئيس الديوان أن يذهب إلى الشيخ ويعتذر إليه، فجاء رئيس الديوان إلى المفتى وقال له: «إن مولانا جلالة الملك بعثنى إليك لأن جلالته يرجو رضاك».

وبعد أن عُين «الشيخ عبد المجيد سليم» شيخاً للأزهر، ضغطت الحكومة لتقليل ميزانية الأزهر، ثار الإمام الأكبر ثورة عارمة، وقال عبارته المشهورة «قصد هنا -تقتير- وإسراف هناك»، وكان الملك وقتها يقضى عطلة الصيف باستراحته فى كابرى بإيطاليا، وعندما علم بما قاله «الشيخ عبدالمجيد سليم» غضب، وأمر بعزل شيخ الأزهر من منصبه فى سبتمبر سنة ١٩٥١م. ثم أعيد إليه مرة أخرى فى فبراير ١٩٥٢م. ولكنه استقال من المنصب فى سبتمبر ١٩٥٢م[*].

وحدث أن أهدت مصلحة الترام إلى فضيلته تصريحين للركوب بالمجان هو وتابعه، فرفض الشيخ استعمال هذا التصريح وحمل تابعه على رفضه، وعندما علم أنه استعمله مرة، ذهب الشيخ إلى إدارة المصلحة ودفع ثمن تذكرة تابعه.

إصلاح مناهج التدريس:

وأثناء توليه مشيخة الأزهر عمل فضيلة الإمام على إصلاح مناهج التدريس بهذه الجامعة العريقة، فقد كان يرى أن مهمة الأزهر تشمل تعليم أبناء الأمة الإسلامية دينهم ولغتهم بما يؤهلهم ليكونوا حملة شريعة الإسلام وأئمة الدين واللغة. وحُفاظاً حراساً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعمل على تشجيع حركة التأليف والتجديد عن طريق الجوائز العلمية. وعمل على توجيه العلماء إلى وضع بحوث فى الفقه والتشريع تساير الروح العلمية الحاضرة. واشتمل منهجه الإصلاحى أيضاً على إعداد جيل قوى من أبناء الأزهر يستطيع أن يحمل الرسالة،

(*) سعيد عبد الرحمن، شيوخ الأزهر، الشركة العربية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص١٢.

إضافة إلى مراجعة الكتب الدراسية، وإبقاء الصالح منها. وتشجيع حركة البعوث العلمية إلى جامعات أوروبا للتزود من شتى العلوم والمعرفة. وتنظيم الجامعة الأزهرية تنظيماً يتفق مع رسالتها، ويساعدها على أدائها، إلى جانب أداء رسالتها الإسلامية، وذلك بإنشاء مكتبة كبيرة ودار طباعة حديثة، تخرج مؤلفات باللغة الأجنبية والعربية للرد على مزاعم المبشرين، وإنشاء إدارة للدعوة الإسلامية بين شتى الدول والشعوب، وتفسير القرآن إلى اللغات الأجنبية.

وكان دائماً ينصح طلاب الأزهر قائلاً لهم: «نصيحتى لكم أن تعلموا أنكم مجندون فى سبيل الله، فأقبلوا على دراستكم، وتجملوا بالفضيلة بينكم وبين الناس، لتحقيق آمال آلاف المسلمين فيكم، وإعلاء كلمة الدين والعلم بكم».

وظل الشيخ متواضعاً يعتز بكرامته، ويجهر بكلمة الحق، ولا يبالى ما يترتب عليها من آثار حتى لقى وجه ربه الكريم فى أكتوبر سنة ١٩٥٤م.





الإمام الخضر حسين

(١٢٩٣-١٣٧٧هـ=١٨٧٦-١٩٥٨م)

المهاجر بدينه ونضاله

هذا الرجل من عظماء الجهاد الفكرى، مؤمن صادق فى إيمانه، مجاهد أخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على حرية الكلمة، ومقاومة حركات المسخ والتغريب التى تعرض لها الإسلام، وكان من أخطرها ما جاء على يد أبنائه من أمثال «على عبد الرازق» و«طه حسين».

هذا الشيخ آمن بالإسلام ودعوته، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].

قاتل فى صفوف الوطنيين ضد الاحتلال والاستبداد الفرنسى، حتى حُكم عليه بالإعدام ففر بدينه إلى عدد من الأقطار الإسلامية، ثم استقر بمصر، التى فتحت ذراعيها لجهاده وتقواه وعلمه وورعه، وبادلته حباً وتقديراً حتى أصبح شيخاً للأزهر الشريف. وتمثيل حى لوحدة العرب والمسلمين وتجسيداً لضرورة التكامل العربى الإسلامى.

نسب شريف:

فمن أسرة جزائرية «شريفة» يرتفع نسبها إلى الأمراء الأدارسة، بالمغرب، جاء والده.. ومن أسرة تونسية اشتهرت بالعلم والفضل والتقوى، جاءت والدته.

وفى مدينة «نفطة»، من أعمال «الجريد» بجنوب القطر التونسى، ولد الشيخ الفاضل «محمد الخضر حسين»، فى ٢٦ رجب سنة١٢٩٣هـ، ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٦م. وفى هذه المدينة كانت نشأته الأولى، التى تأثر فيها بأبيه، وبخاله السيد محمد المكى بن عزوز، الذى كان من كبار العلماء، وموضع احترام رجالات الدولة العثمانية يومئذ، وله مؤلفات علمية معروفة.

وفى هذه النشأة الأولى «بنفطة»، حفظ شيخنا القرآن الكريم، وألم بجانب من الأدب والعلوم العربية والشرعية.

وعندما وصل إلى الثانية عشرة من عمره، انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة،

وفى عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) التحق بجامع الزيتونة، حيث تقدم فى تحصيل العلم، وظهرت علامات نبوغه فى علوم العربية وعلوم الشريعة، وتجلى ذوقه الأدبى فى الإنشاء وفى التذوق.

قلم ولسان:

ونال شهادة العالمية فى سنة ١٣٢١هـ (١٩٠٣م) وأصبح من علماء الزيتونة، وأنشأ فى نفس العام مجلة [السعادة العظمى] التى كانت رائدة المجلات العلمية والأدبية فى بلاد الشمال الإفريقى يومئذ، فلفت الأنظار إلى قلمه ولسانه، فلقد كان خطيباً ومحاضراً إلى جانب كونه أديباً وشاعراً وكاتباً.

وتولى سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٥م) قضاء مدينة بنزرت ومنطقتها، إلى جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير. وفى يونيو ١٩٠٦م ألقى محاضرة عن «الحرية فى الإسلام» فكشف بها عن موقف فكرى ذى مغزى فى بلد يستبد بحكمه المستعمرون الفرنسيون، ثم استقال من قضاء بنزرت وعاد إلى مدينة تونس مدرساً بالمدرسة الصادقية، ثم عُين بعد ذلك مدرساً بجامع الزيتونة.

وفى عام ١٩٠٧م اشترك فى تأسيس «الجمعية الزيتونية» وأخذ على عاتقه الدعوة إلى إحياء قيم الحرية والعروبة فى وطن يخضع لاستعمار ينهب خيراته ويستبد بمقدراته ويمسخ هويته العربية والإسلامية.

وعندما زحفت الجيوش الإيطالية على ليبيا سنة ١٩١١م، وقف الشيخ الخضر بقلمه ولسانه، ومن خلال مجلة [السعادة العظمى] يستنفر الأمة لتقاوم الغزو الإيطالى، ويستنهض الدولة العثمانية -التى كانت تحكم العالم العربى- استخلاص الحق من غاصبيه. ودعا إلى التعبئة العامة وشحذ الهمم، وبعث الروح الإسلامية والبطولات العربية، والتأكيد على الأخوة الإسلامية.

الهجرة إلى الأستانة:

وفى هذه الفترة رفض رغبة الحكومة الفرنسية فى ضمه إلى سلك القضاء فى

المحاكم الفرنسية. وكان لابد من الصدام بين الشيخ المناضل الرافض للتعاون مع المستعمر وبين سلطات الاستعمار الفرنسى فى تونس، فوجهت هذه السلطات إليه فى سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م تهمة بث روح العداء للغرب، وخاصة السلطات الفرنسية فى تونس، وهى تهمة تصل عقوبتها إلى الإعدام، فهاجر بدعوته وبجهاده إلى الأستانة، مواصلاً سعيه لتخليص بلده وأمته من الاستعمار، معلناً أن ذلك لا يكون إلا بالدعوة إلى الله، وإحياء الوحدة الإسلامية من جديد، وبعث روح الجهاد فى نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

وخلال تجواله ما بين دمشق والقاهرة والأستانة وألمانيا تَعَرف على كوكبة من العلماء الأعلام المناضلين فى سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامى، منهم «الشيخ طاهر الجزائرى»، و«السيد محمد رشيد رضا»، و«السيد محب الدين الخطيب»، و«أحمد تيمور» باشا، وعُين فى دمشق مدرساً للغة العربية فى المدرسة السلطانية (١٩١٢م) ولنشاطه الوطنى الملحوظ اعتقله أحمد جمال باشا الحاكم العام فى سورية لعدة أشهر، حتى أنقذه من السجن تدخل وزير الحربية العثمانى أنور باشا، وبعد خروجه من السجن أوفده أنور باشا إلى برلين مرة ثانية حيث التقى فيها بزعماء الحركات الإسلامية: «الشيخ عبد العزيز جاويش»، والدكتور «عبد الحميد سعيد»، والدكتور «أحمد فؤاد». ثم عاد إلى الأستانة، ثم إلى دمشق.

الاستقرار بمصر:

وكان الشيخ قد سئم كثرة الأسفار وعدم الاستقرار، فاستقر عزمه على أن يستوطن القاهرة فألقى بها عصى ترحاله الذى استمر عشر سنوات، فأقام بالقاهرة سنة ١٩٢١م.

وفى القاهرة أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمى المنظم والنشاط الإصلاحى الدائم، فوضحت معالم نضجه فى التجديد والإصلاح وتكونت من حوله حلقات الطلاب والمريدين، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء

وطلاب الإصلاح.

وتجنس بالجنسية المصرية، ثم تقدم إلى امتحان العالمية بالجامع الأزهر، فحصل عليها بجدارة، وأصبح واحداً من علماء الأزهر الشريف.

ولم يمنعه الانخراط فى هيئة كبار العلماء والاشتغال بالبحث والتحقيق عن مواصلة النهوض بمسؤولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربى، وأيضاً رعاية حقوق وطنه الأصلى تونس، وأشقائه الرازحين بالمغرب تحت نير الاستعمار الفرنسى، فأسس سنة (١٩٢٤م) «جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية» لتكتيل وتحريك جهود أبنائها فى خدمة قضية تحرير هذه البلاد من الاستعمار.

معاركه الفكرية:

وفى سنة ١٣٤٤هـ(١٩٥٢م) بدأت معاركة الفكرية الكبرى دفاعاً عن الإسلام ضد من أرادوا النيل منه، وخاصة من أبنائه. ففى هذا العام أصدر الشيخ على عبد الرازق كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فكان أول كاتب مسلم يسعى إلى زرع العلمانية فى العقل الإسلامي، وفى واقع المسلمين، بل وإلى علمنة الإسلام، وكان أخطر ما فى هذه المحاولة - كما يقول الدكتور محمد عمارة - أنها جاءت فى ثوب إسلامي، وتحت رايات إسلامية، ومن عالم فاضل تخرج من الجامع الأزهر، ويشغل منصب القاضى فى المحاكم الشرعية الإسلامية.

ورغم أن الشيخ الخضر حسين كان صديقاً للشيخ على عبد الرازق وعائلته، لم يمنعه ذلك بدافع من غيرته على دينه أن يهب دفاعاً عن الإسلام منذ هذه الهجمة العلمانية، فعكف على الرد على كتابه ونقضه، وذلك من خلال كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» الذى نفذت طبعته خلال شهر واحد.

عمد «الشيخ الخضر» فى كتابه إلى نهج يغنى قارئه عن قراءة الكتاب الذى يرد عليه وينقضه، حتى لا يكاد الرجل يترك من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فقرة إلا أوردها ليناقش صاحبها ولينقدها، ونقض فكرتها أو يبين رأيه فيها، فهو يتبع

أبواب الكتاب باباً بعد باب، ولم يقف الخضر حسين فى نقد مصادر خصمه، عند ما استند إليه الخصم من نصوص واقتباسات بل يعود إلى المصادر التى يقتبس منها الخصم. واستمر فى نقضه لأفكار الكتاب فكرة فكرة حتى بين للناس الباطل الذى يحمله مضمون الكتاب عندما أراد صاحبه أن يجرد الإسلام من طابعه ودوره السياسى.

وأكد فى رده على كتاب «الإسلام وأصول الحكم» أن من يقول بما قاله الشيخ على عبد الرازق يخدم الاستعمار خدمة جليلة، فهو يدعو إلى تجريد الإسلام من طابعه ودوره السياسى، وتجريد الدولة فى وطن المسلمين من صبغتها الإسلامية، وتقديم الإسلام ديناً لا دولة، ورسالة روحية لا شرع فيها ولا سياسة، ذلك أن المسلمين فى ظل الاستعمار إذا اهتموا «بما لله»، وتركوا «ما لقيصر لقيصر» كان المستفيد الأول من ذلك هو الأجنبى. لأن قيصر هنا هو الاستعمار.

فعلمنة الإسلام -كما يرى الشيخ- هى فى حقيقتها وبغض النظر عن النوايا تشريع يمنع الحرج والإثم عن ضمير المسلم إن هو خضع لسلطان أجنبى أو سلطة غير إسلامية، ومن ثم فإن اشتراط إسلامية الدولة وإسلامية القانون. هو فى الحقيقة دعوة للمسلمين كى يثوروا فى سبيل حريتهم وتسويد شريعة الإسلام فى الوطن الذى يعيشون فيه، وهذا ما لا يتحمله أو يريده المستعمر أو الحاكم المستبد.

الرد على «طه حسين»:

وفى العام التالى (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م) ظهر كتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين، فرد عليه الشيخ بكتابه «نقض كتاب فى الشعر الجاهلى» فصنع معه ما صنع مع كتاب «الإسلام وأصول الحكم» عندما فنده فقرة فقرة وفكرة فكرة مع أدب رفيع فى الحوار، وبراعة فى الجدل، كشف عن عقل متمكن ومتمرس فى ميدان البحث والمناظرة، يغترف صاحبه من معين من العلم لا يغيض أو ينقص مائة.

وأثبت الشيخ الخضر حسين بما لا يدع مجالاً للشك فى كتابه «نقض كتاب فى

الشعر الجاهلى» أن كل أفكار طه حسين منقولة عن «المستشرق الإنجليزى جب»، واستشهد ضمن استشهاداته على بطلان فكرة طه حسين بكتاب نشر بالإنجليزية للمستشرق الإنجليزى «تشارلس ليال» نقض فيه فكرة «جب» وأثبت بطلانها، حيث أقام الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة على أصالة الشعر الجاهلى.

تأسيس الجمعيات:

وكان «للشيخ الخضر حسين» دوراً بارزاً فى تأسيس العديد من الجمعيات العالمية للتعريف بالإسلام والزود عن حضارته ضد فكرة التغريب، فأسس مع «أحمد تيمور» باشا سنة ١٩٢٥م جمعية الشبان المسلمين، ثم أسس جمعية الهداية الإسلامية، التى ضمت كوكبة من المثقفين ثقافة دينية ومدنية. ومن خلال هذه الجمعية ومجلتها قدم معالم دعوته للإحياء الإسلامى والنهضة العربية وتحرير ديار العروبة والإسلام.

وقد كان «الخضر حسين» من أقدم أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، كما اختير عضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق. وفى سنة ١٣٧٠هـ-١٩٥١م نال عضوية هيئة كبار العلماء.

وعندما قامت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، كان منصب شيخ الأزهر شاغراً، فوقع اختيار الثورة وحكومتها على «الشيخ الخضر حسين» إماماً أكبر وشيخاً للإسلام ووجهاً مشرفاً لهذه الجامعة العريقة تطل من خلاله على عالم العروبة والإسلام، فنهض بالأمانة ما وسعته الطاقة فى يوم الثلاثاء ٢٦من ذى الحجة ١٣٧١هـ(١٦سبتمبر٥٢م)، ولديه أمل عريض فى برنامج إصلاحى كبير للنهوض بتلك المؤسسة الإسلامية، وجعلها وسيلة لبعث النهضة الإسلامية العظمى، التى يتطلع إليها العالم الإسلامى فى جميع القارات. وأعطى الإمام للمنصب حقه. وعندما شعر بضغوط تحول بينه وبين تنفيذ ما يريد، أو تطلب منه تنفيذ ما لا يرضى صمم على الاستقالة فى ٧ يناير سنة ١٩٥٤م، قائلاً كلمته

الشهيرة: «يكفينى كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا العفاء». وكان خلال قيامه بواجبات منصبه يقول دائماً: «إن الأزهر أمانة فى عنقى، أسلمها -حين أسلمها- موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدىّ فلا أقل من ألا يحصل له نقض». ومن ذلك التاريخ تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة، حتى وافاه الأجل، فانتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد رجب سنة ١٣٧٧هـ ٣ من فبراير سنة ١٩٥٨م. وقد امتد موكب جنازته ما بين ميدان باب الخلق والجامع الأزهر الشريف.





البشـــير الإبراهيمـــي

(١٣٠٦-١٣٨٥هـ=١٨٨٩-١٩٦٥م)

التحرير بالعلم

في عبارات وقحة، وفي افتتاح مهرجانات الحرية عام ١٩٣٠م، التي أقامها الحاكم الفرنسي بمناسبة مرور مائة عام على احتلالهم للجزائر سنة ١٨٣٠م. وقف يقول في قسنطينة: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات لبلوغنا مائة عام في الجزائر فحسب، فقد أقام الرومان من قبلنا ثلاثمائة عام وخرجوا كارهين، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو: تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار».

هذا القول المغرور الذي جاء على لسان الجنرال الفرنسي المحموم،جانبه الصواب، فالإسلام أقوى وأبقى من أن تشيع جنازته في أي مكان يصل إليه نوره، مادامت هناك صدور وقلوب شملها هذا الضياء.

وقد أكدت حرب تحرير الجزائر هذا المعنى، فقد كان للإسلام الدور الأكبر في إلهاب الحمية الباسلة لجنود معارك التحرير وإعدادهم لهذا الجهاد الذي استأصل شأفة الفرنسيين بالجزائر.

أذكى روح الجهاد في نفوس الجزائريين علماء الدين الإسلامي المستنيرين الذين تحدوا الظلم في بسالة رائعة، مستمدين من عقيدتهم الإسلامية وتاريخهم الممتد عبر القرون وقوداً لا تهدأ ناره ولا يخمد ضرامة، فهم قادة المشاعل التي لا تخبوا أبدا.

لقد أقلق هؤلاء العلماء الاحتلال بما أثاروا من همم وأحيوا من حمية، وبنوا من مدارس، وأنشؤوا من صحف مستمدين من كتاب الله غذاءهم وضياءهم الهادي لاسترداد حقوقهم المغتصبة وتحرير أرضهم.

كبير العلماء:

من هؤلاء العلماء «محمد البشير الإبراهيمي» كبير علماء الجزائر وشيخ المجاهدين بها، والذي وُلِدَ في عام ١٨٨٩م الموفق ١٣٠٦هـ. من أسرة كريمة ترجع بنسبها إلى الأدارسة العلويين من أمراء المغرب في أزهى عصوره، وكان عمه «الشيخ محمد الملكي الإبراهيمي» العالم في علوم النحو والصرف واللغة والفقه، وقد تعهده هذا العالم ووضع له نظامًا تعليميًا محددًا، فقد حفظ القرآن الكريم وألفية ابن مالك،

وألفية ابن معطٍ، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، وهو في السابعة من العمر، إضافة إلى معظم رسائل بلغاء الأندلس، ودواوين المتنبي والبحتري والطائي وغيرهم.

وقد هيأه هذا المحصول الضخم من الثقافة العلمية المتنوعة للتدريس العلمي لزملائه عقب وفاة عمه، وهو في الرابعة عشرة من عمره.

وعندما وصل إلى سن العشرين ورغبة في المزيد من العلم شد الرحال إلى مراكز الثقافة الإسلامية في مصر والمدينة. وصل إلى القاهرة فأقام بها ثلاثة أشهر، حيث حضر الدروس بالأزهر ولاقى كبار علمائه، إذ استمع إلى «الشيخ سليم البشري»، وحضر دروس «الشيخ بخيت المطيعي» في الحديث بالرواق العباسي، ودروس «الشيخ يوسف الدجوي» في البلاغة، ودروس «الشيخ السمالوطي» بالمسجد الحسيني، وحلقة «الشيخ سعيد الموجي» بجامع الفكهاني، كما زار دار الدعوة والإرشاد حيث قابل «الشيخ محمد رشيد رضا».

ومن القاهرة سافر إلى المدينة ليستأنف العلم في حلقات الحرم النبوي سنة ١٩١١م. وهناك التقى بعالمين كبيرين هما: «الشيخ عبدالعزيز الوزير التونسي»، و«الشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي».

أخذ عن الأول الموطأ ولزم دروسه في الفقه المالكي وشرح التوضيح لابن هشام، وعن الثاني شرح صحيح مسلم.

نقطة تحول:

وكان مقام «البشير» في المدينة المنورة نقطة تحول خطير في اتجاهه العلمي والسياسي فقد فاض عليه المكان بإشراقاته الروحية الفياضة، فأقبل على المكتبات المليئة بكنوز العلم في دار الهجرة، فأخذ ينهل منها ما استطاع من كتب الفقه واللغة، والأدب مثل الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، كما حفظ كثيراً من دواوين الشعراء، فضم إلى تضلعه الفقهي تضلعاً أدبياً أمده بالطلاقة والفصاحة، حيث

تصدر حلقات التدريس كعهده بالجزائر.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى اضطر إلى السفر إلى دمشق ليواصل التدريس بالمسجد الأموي مع «الشيخ بدرالدين الحسنى» و«الشيخ جمال الدين القاسمي» و«الشيخ الخضر حسين» فأثمرت تلك الدروس الثمينة، التي أعادت بهاء الشريعة وجمال العربية في ديار الشام.

وتغير اتجاهه السياسي في المدينة المنورة، عندما التقى فيها بزعيم الإصلاح الديني بالجزائر «عبدالحميد بن باديس» وامتد الحديث بينهما إلى نكبة الجزائر بالاستعمار، وأخذا يضعان الخطط لبعث الأمة الإسلامية بالجزائر، حتى ينهض الجزائريون ويقاومون الاحتلال الفرنسي بإعاز من الدين وعملاً بقواعده.

فقد اتفق الاثنان على أن البعث الإسلامي بالجزائر لن يتم إلا بتربية جيل مؤمن يعتنق مبادئ الإسلام عن حمية وإخلاص، وأن كل معركة سياسية تسبق هذه التربية الإسلامية لن تحقق الثمار المرجوة منها.

لذلك عكفا على تدارس الوسائل التي يمكن أن تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة، وأثناء هذه اللقاءات التي جرت خلال سنة ١٩١٣م، تم وضع الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين،التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م.

ندوات ودروس:

وبعد عودته إلى وهران في بلدة الجزائر أخذ البشير يعقد الندوات العلمية للطلاب، وأعد الدروس الدينية الموسمية لكافة المسلمين من صغير وكبير، وبعد أن تزايد عدد الحاضرين، انتقل إلى الدروس النظامية ذات المنهج المحدد، وبعث بطلابه إلى البلاد المجاورة ينشرون رسالته ويهيئون النفوس للقائه في أيام الجمع،حيث كان يزور القرى والمدن ليخطب الناس أيام الجمع.

وكان لهذه الخطب أثر كبير في إحياء جذوة الدين وإشعالها في النفوس المتعطشة

لمن يعيد للإسلام نضارته وبهائه، ويذكرهم بأمجادهم، ويحثهم على الجهاد لرفع راية دينهم العظيم.

هذا النشاط أزعج سلطات الاحتلال،خاصة وأنه توازى مع نشاط ابن باديس في قسنطينة، فعملوا على تعويقه بكافة الطرق. ولكن البشير لم يأبه بما يفعلوه، ظل يلتقي بطلاب العلم ويحثهم على الثورة والتمسك بقيم ومبادئ الإسلام، متعاوناً مع ابن باديس، وأثمرت دعوتهما وجهادهما ما بين سنتي ١٩٢٠-١٩٣٠ عن تأسيس جمعية العلماء الجزائريين.

وقد ظن المستعمرون أن جماعة علماء الجزائر ليست إلا نمطا من مشيخة الطرق الصوفية، أنشأها العلماء لإقامة حفلات الذكر وتلاوة الأدعية والطواف بالأضرحة، وجمع الزكاة. كانوا يعتقدون أن طول فترة الاحتلال، قد قضى على كل معنى كريم من معاني الإسلام وأن جذوة الوطنية قد خبت.

وجاءت الأحداث لتثبت لهم خطأ هذا الاعتقاد. ففي العام الذي خرجت فيه جمعية العلماء الجزائريين إلى الوجود، نظم الفرنسيون مهرجاناً للاحتفال بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، ورغم إحضارهم أعلام الفن الباريسي رجالا ونساء، ممن توهم المحتلون أنهم سيأخذون على الجزائريين أسماعهم وأبصارهم بما يعرضون من فنون، فلم تكد تحين أيام الاحتفال حتى قاطعها الجزائريون ووجد الفرنسيون أنفسهم وكأنهم يحتفلون بأنفسهم. وعرف الفرنسيون أن الجمعية التي أنشئت منذ أيام قد تركت هذا الدوي الرنان.

محاربة المحتلين:

وكان «ابن باديس» و«البشير» من الحصافة بحيث أبدا شيئا وأضمرا أشياء، فقد اكتفيا في نصوص اللائحة الرسمية بإعلان الدعوة إلى الإصلاح الديني والتعليم، بينما تواصى المجتمعون في أول انعقاد رسمي لجماعة العلماء بمحاربة المحتلين،وتقويض دعائم السيطرة الفرنسية على البلاد، وبث الروح الإسلامية

عقيدة ولغة وتشريعاً.

وقد اختص «ابن باديس» بالإشراف على مقاطعة قسنطينة، والبشير بالإشراف على مقاطعة وهران، و«الشيخ الطيب العقبي» على مقاطعة.. الجزائر. وأثمرت هذه الحركة الجادة النشطة، فسرعان ما أقيمت عشرات المدارس والمساجد، وطُبعت الكتب الإسلامية القديمة لتقدم الزاد الحي للنشء الجديد.

وفي هذه المعركة الجهادية بذل «الشيخ البشير» مجهودا كبيرا، حيث كان يلقي عشرة دروس في اليوم الواحد، يبتدئها بدرس الحديث بعد صلاة الصبح، ويختتمها بدرس التفسير بين المغرب والعشاء. ثم ينصرف بعد ذلك ليلقي المحاضرات في التاريخ الإسلامي في النوادي والمنتديات. وفي أيام الجمع كان يتجول بالقرى يُنشط العزائم ويبعث الهمم.

وقد أثمر هذا النشاط بناء ٤٠٠ مدرسة إسلامية، تضم مئات الآلاف من البنات والبنين،وإنشاء أكثر من ٢٠٠ مسجد للصلوات والمحاضرات. مما أفزع المحتلين فاعتقلوا البشير ونفوه إلى صحراء وهران.

وصل الليل بالنهار:

وعندما توفي «ابن باديس»،اجتمعت جمعية العلماء يوم وفاته وانتخبت بالإجماع «الشيخ البشير» لرئاسة الجمعية من بعده. وقد أُبلغ بهذا الاختيار في منفاه بصحراء وهران، فتحمل التبعة الكبيرة بعزيمة شماء، وشجع تلاميذه على الذهاب إلى الأماكن النائية لمجاهدة الاحتلال.

وبعد أن انتهت فترة المنفى واصل نشاطه، حيث راح يعظ ويرشد ويحاضر، وينشئ المدارس ويضع المناهج، ويرأس تحرير جريدة البصائر، ويدير جمعية العلماء، ويقوم بالصلح بين الجماعات المتخاصمة في ربوع البلاد، حتى كان كثيرا ما يصل الليل بالنهار دون نوم.

وخطا المجاهد الكبير خطوة أكبر على طريق النضال، حيث عمل على إنشاء

المدارس الثانوية،فبدأ بإنشاء معهد ديني ثانوي كبير بقسنطينة، وأطلق عليه اسم «ابن باديس» تخليدا لذكرى الرائد الأول في ميدان الكفاح. وكان تلاميذ السنة الأولى به أكثر من ألف طالب.

ومن تلاميذ هذا المعهد كان دعاة الحركة التحريرية بالجزائر، حيث تقدمت الوفود المؤمنة إلى معركة الاستقلال بحماسة ورغبة في الشهادة قبل الانتصار.

حرية وانتصار:

وهكذا أثمر جهاد علماء الدين في الجزائر حرية وانتصاراً، فقد كانت التربية الدينية في مئات المدارس والمساجد والمعاهد التي عمل على إقامتها البشير ورفاقه، بمثابة المعسكرات الحربية المؤمنة التي أعدت الجنود ودفعت بهم إلى ساحة الحرية، فاستأصلوا الاحتلال الفرنسي في معارك رهيبة، صدق القوم فيها صدق المناضلين، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، بل تمت كلمة الله باستقلالهم الباهر. كما يقول الدكتور محمد رجب البيومي - وانتصروا بمبادئ الإسلام التي عبئتهم لهذا الجهاد الطويل. الذي حطم غرور الاحتلال الفرنسي وقضى على أوهامه. فقد جهلت فرنسا،أو تجاهلت أن أبناء الجزائر كغيرهم من أبناء العروبة، قد انحدروا من أصلاب قوم كرام يأنفون الذل، ولا يصبرون على الضيم، بل كانوا يؤثرون الموت في عزة وكرامة على الحياة في ذلة ومهانة. وتناسى هؤلاء الفرنسيون أنه لا بقاء للاستعمار في أمة مسلمة؛ لأن مبادئ هذا الدين وتعاليمه وتوجيهاته خير دعامة للحرية، وأقوى حافز إلى الثورة ضد الذل والتعسف.

إن الدين يأمرنا بالاتحاد والتعاون والتآزر، ويفرض علينا القتال والنضال، كلما خيف على حريتنا أن تُسلب، وعلى كرامتنا أن تُهدر، فكيف يمكن أن يكون للاستعمار بقاء مع هذه المبادئ العظيمة التي قررها الدين.

أديب كبير:

يبقى أن تعرف أن «البشير»كان أديبا كبيرا صرفه الجهاد الإسلامي لا عن تأليف

الكتب، وإنما صرفه عن طبع ما كتب وألف، فقد كان يجمع آلاف الجنيهات لينشئ المدارس ويبني المساجد والمعاهد، وشغله الجهاد عن مؤلفاته، فترك كتبه العلمية رهينة مخطوطاته. وكان من بين هذه المؤلفات: بقايا فصح العربية في لهجة الجزائر، النقايات والنفايات، أسرار الضمائر في العربية، التسمية بالمصدر، الاطراد والشذوذ في العربية، قصة كاهنة أوراس، حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام، شُعب الإيمان، مخارج الحروف، الملحمية الرجزية في التاريخ، فتاوى متناثرة وغيرها الكثير. إضافة إلى مجموعة عيون البصائر التي تضم افتتاحيات جريدة البصائر.

تحقق أمل «البشير الإبراهيمي» في التحرير، وعاش حتى رأى الحرية وشمس العربية والإسلام تشرق على الجزائر، حتى توفي في مايو سنة ١٩٦٥م ١٣٨٥هـ.





الإمام أبو زهرة

(١٣١٥-١٣٩٤هـ=١٨٩٨-١٩٧٤م)

قلق في عقل النظام

رغم فترة الحكم الشمولى وتكميم الأفواه التى عاشتها مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، وفى الوقت الذى خفتت فيه أصوات قائلى الحق، ظل الإمام الفقيه «الشيخ محمد أبو زهرة» يقول الحق بصوت جهير، لا يخشى فى الله لومة لائم، فقد كان لهذا الإمام قوة لا تُغلب، فهو مع فقهه الصائب، وعلمه الغزير ذو حجج وجدل، يقتحم المعارك القلمية فى الصحف، والمصاولات اللسانية فى الندوات، فيُسيطر على الموقف بدامغ الحجة، وواضح البرهان، لأن الرجل ممتلىء بأصول الشريعة، بصير بتيارات العصر ودوافعه، عالم بما يحيكه المغرضون من مكايد، ثم هو صريح لا يمارى ولا يدارى. لذلك كان موضع الهيبة والخشية يحذره معارضوه، ويؤيده أنصار رأيه فى حب خالص.

فى الوقت الذى كان فيه الكتاب والمفكرون الموالين للسلطة يتنافسون فى مدح الاشتراكية، ويشيدون بمنهجها فى تحقيق العدل، وزعم فريق منهم أنها من أصول الإسلام، كان الشيخ أبو زهرة معارضاً لهذه الآراء، فالإسلام شرعة سماوية فوق المذاهب الوضعية التى تتبدل وتتحول، وتظهر سوءاتها عند التطبيق.

شجاعة عالم:

هذا الرأى أغضب صاحب السلطان فى مصر وقت ذاك، فدعاه، لا ليناقشه بالمنطق الواضح، ولكن ليصيح به: أنت يا أبا زهرة تؤلف الكتب وتبيعها بالثمن الباهظ، وتعيش عيش المترفين، ثم تصيح فى الناس منددا بالاشتراكية غافلاً عن حقوق الكادحين والفقراء، وتقول أنك عالم من علماء الإسلام!!

بدأ المتحدث صاحب الجبروت حديثه مهاجماً للشيخ، وكان يعتقد أنه سيعتذر متراجعاً، ولكنه قال له فى ثبات وقوة حجة: أنا أؤلف الكتب داعياً إلى الله، يقرؤها المسلمون فى جنبات الأرض، خارج مصر وداخلها، ويسارعون إلى المناداة بإعادة طبعها حين تنفذ على وجه سريع فأستجيب، ثم أدفع الضرائب للدولة، وأعطى الزكاة للمستحق، وذلك كله مباح فى شريعة الإسلام، بل إنه فرض على من يقدرُ

عليه من العلماء، ولكنكم تصدرون الكتب مؤيدة سياساتكم، وتتحمل الدولة نفقاتها الكثيرة وتمتلئ بها المخازن الحكومية، وتوزع على الطلاب وغير الطلاب، فلا يقرؤها أحدا؛ فمن هو الصحيح؛ من يكتب لنفع المسلمين فيسعون لقراءة ما كتب، أم من يؤلف وتطبع الدولة مؤلفاته ثم تُركن على الرفوف؟

منطق قوى:

كان منطق الشيخ قوياً، فلم يستطع المسؤول جواباً، وبدلاً من الحرج، ترك الشيخ ينصرف ثم أوحى للمسؤولين عن القطاع الذى يعمل به لمضايقته وملاحقته، ولكن هذه المضايقات لم تُزد الشيخ إلا ثباتاً وتمسكاً بقول الحق. ليس فى مصر وحدها، بل وفى كل مكان ذهب إليه من بلاد العرب والمسلمين.

من ذلك أن «الشيخ أبا زهرة» قد دُعى إلى ندوة إسلامية كبرى في ليبيا، وكان ضيوف الندوة من كبار العلماء فى العالم الإسلامى. أراد الرئيس الليبي الراحل معمر القذافي أن يجعلهم يؤيدون ما يذهب إليه، ويوم افتتاح الندوة حضر القذافي ليلقي كلمة الافتتاح، ويقول إنه دعا إلى هذه الندوة ليقرر العلماء أن الاشتراكية هى المذهب الإسلامى، وأن يدافعوا عن هذا الرأى.

بعد كلمة القذافي عبست الوجوه، وتكدرت النفوس، ولم يتقدم أحد ليعلق على ما قاله الرئيس الليبي، ولكن «الشيخ أبا زهرة» طلب الكلمة، واتجه إلى المنبر وقال بشجاعة منقطعة النظير:

«نحن علماء الإسلام وفقهاؤه، وقد جئنا إلى هذه الندوة، لنقول كلمة الإسلام كما نراها نحن لا كما يراها السياسيون، ومن واجب رجال السياسة أن يستمعوا للعلماء، وأن يعرفوا أنهم متخصصون فاهمون، لا تخدعهم البوارق المغرية، وقد درسوا ما يسمى بالاشتراكية، فرأوا الإسلام أعلى قدراً، وأسمى اتجاهاً من أن ينحصر فى نطاقها، وسيصدر المجتمعون رأيهم كما يعتقدون، لا كما يريد رجال السياسة، فهم أولُو الأمر فى هذا المجال، ثم توجه الشيخ إلى زملائه قائلاً: هل فيكم

من يخالف؟».

فرأى الإجماع منعقداً على تأييده، فقال: الحمد لله أن وفق علماء المسلمين إلى ما يرضى الله ورسوله.

وبعد موقف «الإمام محمد أبو زهرة»، لم تستمر الندوة فى انعقادها أسبوعاً كما كان من المقرر لها من قبل، بل كان حفل الاستقبال هو حفل الختام - كما يقول الدكتور محمد رجب البيومى.

وكان الشيخ يرى أن الفقيه لابد أن يكون أديباً على درجة عالية من البيان، فالثقافة الإسلامية جزء لا يتجزأ، وكم لا ينفصل، فلابد لدارس الفقه والحديث والتفسير أن يدرس علوم الأدب، لأنه لا يستطيع التعبير عن نفسه إلا إذا رُزق البيان الناصع. والأئمة الكبار من الفقهاء كانوا يملكون نعمة البيان، فاستطاعوا أن يضعوا المؤلفات القيمة. وما انحطت كتب الفقه فى العصور المتأخرة إلا لأنها كُتبت بأقلام لم تتذوق البيان العربى فجاء أكثرها شبيهاً بالأحاجى والألغاز.

وكان فضيلة «الشيخ محمد أبو زهرة» يحرص على المساهمة فى الندوات العلمية، مهما كان موضوعها، وحتى لو لم تتم دعوته إليها. فهو يرى أن الإسلام لم يترك كبيرة أو صغيرة فى أمور الدنيا والدين إلا وتصدى لها، ومن هنا يجب أن يكون للعالم الدينى المجتهد رأى فى كل أمر. ومن هنا كان حرصه على حضور هذه الندوات. وكان له آثار صوتية فى الندوات العلمية، لو جُمع مضمونها فى مؤلفات لبلغت عدداً كبيراً، إذ كان يحرص على أن يقول كلمة الإسلام جهيرة مدوية، فيتحول الموقف إلى النقيض.

الإسلام والسينما:

عندما عُرض فيلم «ظهور الإسلام» المأخوذ عن كتاب «الوعد الحق» للدكتور طه حسين، دعا بعض الكتّاب إلى تمثيل العصر النبوى على الشاشة باعتبارها عامل تأثير فى النفوس، وأُقيمت ندوة أدبية لتدعيم هذا الاتجاه، ولم يجرؤ المنظمون لها على

دعوة «الشيخ أبو زهرة» خوفاً من معارضته. ولكنه سعى إلى الندوة مستمعاً، وبعد أن تبارى المشاركون فى الحديث عن أهمية هذه الدعوة وأن للفن دوره المؤثر فى ذلك، طلب أبو زهرة الحديث، واضطر مُنظم الندوة أن يدعو الشيخ للكلام، فقال:

إن الذين يتحدثون عن أثر السينما فى الدعاية للإسلام بدليل انكباب الجمهور على مشاهدة فيلم «ظهور الإسلام» لم يوفقُوا فيما يدعون، لأننا نعلم أن هذا الفيلم لم يزد المؤمن إيماناً فوق إيمانه، ولم يردع فاسقاً عن غيه، ولم يدخل أحداً من ذوى الأديان الأخرى إلى حظيرة الإسلام، فهل نفدت كل وجوه الدعايات للإسلام، ولم يبق إلا تمثيل أحداث العصر النبوى بأعلام من صحابة رسول الله ﷺ وهل يُعقل أن يقوم ممثل اليوم بتمثيل دور «بلال» حين عُذب فى ذات الله، ثم يجده المشاهد فى رواية أخرى يمثل دور ماجن خليع؟ وهل يُعقل أن تضع ممثلة لبعض الصحابيات الماكياج فى وجهها، ثم تزعم أنها تمثل صحابية شهيدة ذهبت روحها فداء لدينها الحبيب؟ وماذا نصنع إذا وجدنا هذه الشهيدة فى فيلم آخر تأتى بما ينكره الإسلام فى بعض المشاهد المخلة بالآداب؟ أليست هذه إساءة واضحة للصحابيات؟

وهكذا بحجة قوية وبأسلوب سهل بسيط واضح من «الشيخ أبو زهرة» عارض رأى المؤيدين لموضوع الندوة، وكان لكلمة «أبو زهرة» أثرها فى عقول وقلوب المشاركين فخرجوا غير مؤيدين ورافضين للهدف الذى من أجله أُقيمت الندوة.

شتان بين حرية وحرية!:

وفى ندوة أخرى عن حرية المرأة، فوجئ المجتمعون بحضور «فضيلة الإمام محمد أبو زهرة» وقد طلب الكلمة ليقول مُعقباً على من يمنع التعدّد فى الزوجات ويرى تقييد الطلاق.

بصوت جهورى، صاح فى المجتمعين: يا قوم، أنتم تريدون حرية للمرأة المسلمة مثل حرية المرأة الأوربية، ونحن نرى قوانين التشريع فى ألمانيا وإيطاليا تتجه وجهة إسلامية، فتجيز الطلاق لدوافعه المعقولة، وتبيح التعدد لضرورته الملزمة، فهل

فقدت المرأة الإيطالية أو الزوجة الألمانية حريتها، حين اتجه قانون البلاد إلى ما يتجه إليه الإسلام؟

إن المرأة فى منزلها ذات حرية، ولكن الذين يطالبون باحتذاء الغرب، لا يرون الحرية إلا فى تمزق الأسرة، وتأكيد أسباب الفرقة والانفصام.

واستطاع الشيخ كعادته أن يستحوذ على اهتمام الحاضرين ويحوذ على تأييدهم لما يقول، لسلامة منطقه وقوة حجته: فقد كان «الشيخ محمد أبو زهرة» رجل شُجاع، جهر بما يرى، وبما يعتقد أمام الناس وأمام السلطان.

كانت له آراء فى قضايا الشورى، والربا، والحكم بالطاعة وغيرها وغيرها، وفى حدود ما يعتقد أنه الصواب، قال رأيه دون مواربة. وكانت له أفكار حول إصلاح الأزهر وقوانين الأسرة والأحوال الشخصية.

وكانت له مواقف مع سعد زغلول، ومصطفى النحاس، ومحمد نجيب، ثم مواقف أخرى مع جمال عبد الناصر والميثاق والاشتراكية والشيوعية، وغير هياب ولا وجل أعلن هذه المواقف.

الرأى الحق:

ولأنه كان شجاعاً، فقد خلص الحاكم النصيحة لأن صاحب الرأى المخالف يأتى للحاكم بجديد، والموافق يأتيه بما عنده ويرجع إليه صداه، ولكن الحاكم لم يكن يريد سوى رجع الصدى، فأصدر قراره بمنعه من الكتابة والفتيا، وصدرت قرارات مختلفة بحرمانه من التدريس فى الجامعة، وإلقاء الأحاديث العامة، وأوصدت أمامه أبواب التليفزيون والإذاعة والصحف، بل وصل بهم الأمر بأن قيدوا حريته فى بيته.

فقد وقع خلاف حاد بين أبو زهرة وبين جمال عبد الناصر فى أمور عدة منها: ما ذهب إليه الميثاق فى شأن الاشتراكية العلمية، التى رأى فيها الشيخ المبادئ الشيوعية، كما اختلف معه حول إعادة تنظيم الأزهر والمعاهد التابعة له. وحول

تحديد النسل. وفى كل هذه الخلافات ظل معتزاً بكرامته إلى أبعد الحدود متمسكاً برأيه الذى يعتقد أنه الحق.

كان يكره النفاق والتملق، حدث أن شارك فى مناقشة دكتوراه فى جامعة الأزهر للمرحوم الدكتور حسن صبرى الخولى عن المسألة الفلسطينية، وبصراحة الشيخ المعهودة فيه قال: إن الرسالة عبارة عن بعض التقارير الخاصة برئاسة الجمهورية، إن الطالب لم يكلف نفسه حتى بجهد ترتيب الصفحات، أو حتى إصلاح الأخطاء اللغوية الفادحة، وهمس أحدهم فى أُذن الشيخ بأن الطالب هو الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية، فصاح أبو زهرة: «متحدث رسمى.. ممثل شخصى، تلك مسميات فى مكتب رئيس الجمهورية لا دخل لنا بها».

بين الميلاد والرحيل:

هذا العالم الشجاع الجريء فى الحق وُلد فى مدينة المحلة الكبرى فى ٢٩ مارس ١٨٩٨م و الموافق ٦ ذو القعدة ١٣١٥هـ، دخل الكُتاب والمدرسة الأولية، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم العامة، والتحق بالجامع الأحمدى فى طنطا سنة ١٩١٣م. فاتجه للعمل بالمحاماة، وحصل عام ١٩٢٧م على دبلوم دار العلوم، وعُين مدرساً للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم. وفى سنة ١٩٣٣م اشتغل بالتدريس فى كلية أصول الدين، وجمع بين التدريس فيها والتدريس فى كلية الحقوق من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤٢. عندما تفرغ للتدريس بالحقوق، وأصبح رئيساً لقسم الشريعة بها حتى أُحيل إلى المعاش سنة ١٩٥٨م. وشارك فى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية، وقام بتدريس الشريعة الإسلامية فى كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر عامى١٩٦٣ - ١٩٦٤م.

وقد ظل متمسكاً بكل آرائه الدينية والاجتماعية والسياسية إلى أن رحل فى ١١ إبريل سنة ١٩٧٤م (١٣٩٤هـ)(*).

(*) د. محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، الجزء الثالث، ١٩٨٠.



الإمام عبد الحليم محمود

(١٣٢٨-١٣٩٧هـ=١٩١٠-١٩٧٨م)

محاربة المذاهب الهدامة

«لا يفارقك- وأنت في مجلس الإمام عبد الحليم محمود- إحساسك أنك مع إنسان يعرف ربه، وأنه بهذه المعرفة الحقيقية قد ارتفع إلى مستوى وضيء، فأنت معه في مكان واحد، ولكن شعورك يدعوك إلى أن ترى أنه في السماء وأنك في الأرض، والإمام-رضي الله عنه- متواضع نبيل، لا يأتي بما يوحي بأنه من طراز نادر، ولكن هيبته تملأ مشاعرك، وتواضعه يزيده لألاء، ويزيدك إجلالا للعارفين بالله، فتحاول أن تسمع منه ليعطيك، مفضلا مأثرة السكوت الناطق أمام وجه وضيء الملامح، طاهر القسمات، تنطق أساريره المؤمنة بمعان لا تعرفها الأرض، لأن بوارقها الفاتنة تلوح في الأفق الأعلى كما تلوح أشعه الشمس، وضياء القمر».

بهذه الكلمات وصف أحد مريديه مجالس «الإمام الراحل عبدالحليم محمود» .

والده العالم الجليل الحسيب النسيب الشيخ محمود علي أحمد من نسب الحسين بن علي-رضي الله عنه- فهو من تلك العترة النقية الطاهرة له من خصائصها ما تمتاز به تلك الدوحة المصطفاه من الطهر والشرف وكمال النبل.

النجم اللامع:

لقد كان «الشيخ محمود» النجم اللامع للأسرة مشهودا له بالرأي السديد وحسن المشورة وصدق النصيحة، وكان ذا همة عالية يعطف على الفقراء والمحتاجين وله أريحية عالية، ورجولة ذات شهامة وحزم: إذا عاهد وفي وإذا قال صدق وإذا استشير أشار بخير رأي، وإذا استجير أجار بكل صدق.

فى هذه الأسرة وُلد عبد الحليم محمود فى ١٢ مايو سنة ١٩١٠م الموافق ٢ جمادي الأولى ١٣٢٨هـ. ولم يكن في الذهن من مستقبل مرموق لواحد من آل البيت الكريم الشريف إلا أن يذهب إلى الأزهر فأدخلوه كتاب القرية حتى أتم حفظ القرآن الكريم، وكان يومها يوم الفرحة العارمة والبهجة والسرور فقد ذُبحت الذبائح وأكل الشارد والوارد وأُقيمت حفلة الذكر شكرا لله تعالى.

أما الشيخ الذي تعهده بحفظ القرآن الكريم، فقد ظفر بما لم يكن في حسبانه،

وقد أتم الإمام الأكبر حفظ القرآن الكريم في سن صغيرة لم يستطع بعدها الالتحاق بالأزهر الشريف، فالتحق بالمدرسة الأولية «الإلزامي الآن» حتى ناسب سنه دخول الأزهر.

وفي عام ١٩٢٣م سافر مع والده إلى القاهرة ليدخل الأزهر، وكانت الدراسة في ذلك الحين داخل المسجد نفسه، وداوم الإمام في الأزهر يدرس زهاء عامين افتتح بعدها معهد «الزقازيق» فانتقل إليه، ليمضي سنوات الدراسة بنجاح، حتى حصل على الثانوية الأزهرية، ليلتحق بجامعة الأزهر بالقاهرة بعد ذلك ويحصل على شهادة العالمية.

السفر إلى أوروبا:

بعد أن حصل الشيخ «عبدالحليم» على شهادة العالمية، كان والده في نشوة الفرحة بنجاح ولده الأكبر، فهو أصغر الحاصلين على العالمية من الأزهر، ووسط هذه النشوة فوجئ الوالد برغبة ولده فى السفر إلى فرنسا. وعلى عادة الآباء حاول أن يقنعه بالعدول عن رأيه، ولكن التصميم قد أخذ حده، فلم يأل الوالد جهداً عن تحقيق رغبة ولده الأكبر ورافقه إلى الإسكندرية مودعاً إياه إلى فرنسا وقد خرج «الشيخ عبدالحليم» من مصر وهو محصن عفيف، عالم معتز بأزهره فاهم لكل مخططات الاستعمار، مدرك لأبعاد المعركة ضد التيار الإسلامى في مصر، مدركاً لنواحى الضعف في نفوس بعض الناس.

التحق الشيخ بجامعة «السوربون» وتعرف فيها بأساتذة الاستشراق «ماسينيون» و «موسيه» وهناك حصل على الدكتوراة في يونية ١٩٤٠م بمرتبة الشرف الأولى عن الحارث المحاسبى وبعدها عاد إلى الأزهر.

الزواج المبكر:

وقد تزوج «عبدالحليم محمود» وهو في السنة الأولى الابتدائى بالأزهر، ومع هذا فقد تخطى كثيراً من الزملاء ودخل في مسابقتين نجح في «مدرسة المعلمين» و«تجهزية دار العلوم» وحصل على العالمية دون تعثر أو صعوبة، يقول الشيخ عن

زواجه: «في منتصف العام زارني والدى رحمه الله في المعهد المسجد ولعله جاء إلى المعهد ليقف على مدى انتظامى في الدراسة، ولعله أخذ يراقبنى عن بعد، ثم التقى بى وشرع يحدثنى عن الزواج وعرض علىّ أسماء فتيات واستطلع رأيى، وكانت سنى آنذاك ثلاث عشرة سنة، وكان رأيى الذى قلته له: «الأمر لك».

وعاد والدى إلى العزبة ومضت فترة جاءني بعدها خطاب يقول فيه ولدى: «إن الأسرة كلها في شوق إليك فاحضر لتراك ولتطفئ غلة شوقها إليك».

وعدت إلى «العزبة» في مساء الأربعاء وتم عقد زواجى في يوم الخميس وعدت إلى القاهرة في يوم الجمعة.

ونجح شيخنا في الامتحان من السنة الأولى، وعاد ليقضى أجازته الصيفية، وكانت فرصة للأسرة لاتمام زواجه بالزفاف.

ثم كانت سهرة ظل طيفها مماثلا في الأذهان سنوات طويلة، فقد سهر الناس ليلتهم يذكرون الله.

اللغة والأصول:

عين الدكتور «عبد الحليم محمود» مدرساً لعلم النفس في كلية اللغة العربية أثر وصوله إلى مصر، واستمر في هذه الكلية عشرة أعوام، ثم نقل إلى كلية أصول الدين أستاذا للفلسفة وكان ذلك في عام ١٩٥١، ثم تولى بعد ذلك مشيخة الأزهر الشريف إثر عام كامل قضاه في وزارة الأوقاف من ١٩٥١ - ١٩٥٢م.

وسار الشيخ في أول مشيخته يدعو الناس إلى الاستغفار والتوبة ويذكرهم بالاستعداد لتحرير أرض الوطن، وأخذ شوطاً طويلاً في فروع القوات المسلحة يحاضر هنا وهناك باعثاً الحمية في النفوس، وراح كذلك يدعو الشعب إلى التخلص من كل ذنب والتوجه إلى الله بقلب سليم والعزم على تحرير الوطن من كل عدو وغاصب.

وفي وقاره الشامخ راح يطالب برفق المسئولين لإعادة الأزهر إلى مكانته وإعادة

مشيخة الأزهر إلى جوهرها الطبيعي.

عبد الحليم والغزالى:

اتفق عبد الحليم محمود، في طريق سلوكه مع أبي حامد الغزالي، إذا بدأ كما بدأ الأخير دارسا فاحصا، متعطشا متطلعا، ناقبا باحثًا، ثم انتهى إلى ما انتهى إليه: صوفيا ذواقا، لقلبه عين بصيره ترى ما لا يراه الناظرون، ولعل «الإمام عبد الحليم محمود» قد فطن إلى ذلك، حين أثر أن يشرح كتاب: المنقذ من الضلال للغزالي وأن يفسر اتجاهاته، وأن يقرره على طلابه، في كلية أصول الدين، حيث كان يعتقد: أن الغزالي يعبر عن نفسه وينطق عن وجدانه.

لقد كان التصوف أسلوب الإمامين معا، وهو تصوف عاقل فعال، لم يكن هروبا من الحياة، بل كان علاجا لمعضلاتها، لقد كان عبد الحليم لا يفارق الناس إلا عند نومه، ولكنه يزور ويرحل ويجتمع ويناقش، ويدفع إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. والفرق بينه وبين سواه من النظريين، أنه يصدر عن يقين، وينفعل عن عقيدة، وينصح عن إدراك، وقد فهم رسالة المسلم في الحياه فهم أنه خليفة في الأرض.

ومن هنا كان التصميم التام أقوى دعائمه الإصلاحية، وكان النجاح المثمر نتيجة هذا التصميم، لأنه تصميم الموقن الجازم، تصميم المتصوف، الذي اعتقد أن عمره في هذه الحياة مرحلة محدودة، تعد ابتداء لمرحلة مقبلة غير محدودة، حين يقرأ كتابه عند ربه، فيجد سجله الواعي الدقيق، لا يغادر من كبيرة أو صغيرة إلا أحصاها! هذا الإيمان الجازم الموقن، هو مفتاح شخصية «عبد الحليم محمود» وبه حالفه التوفيق وآزره النجاح.

التسامح الدينى:

لقد درس الدكتور: «عبدالحليم» مأساة التبشير ظاهره ومقنعه، ولمس جهود السابقين من شيوخ الأزهر في مجال التسامح الديني، وعرف أن الأستاذ «الإمام محمد مصطفى المراغي» حبذ فكرة مؤتمر الأديان، وأرسل كلمة صافية تدعو إلى السلام الروحي، وتمنع أن يتشاجر رجال الدين كما يتشاجر سماسرة البورصة في

سوق الربا، فكانت النتيجة أن واصل المبشرون اعتداءاتهم الصارخة على الإسلام، بمحاولة تنصير أبنائه في أفريقيا، ودس الشبهات المسمومة في تعاليمه بأيدي قساوسة المستشرقين، تحت ستار البحث العلمي النزيه!

وقد تطلع الدكتور «عبد الحليم» إلى عوامل هذه البغضاء الكامنة في أوروبا وأمريكا نحو الإسلام، فلمس أن الكنيسة تقيم جهازا دقيقا للتبشير بين المسلمين في أفريقيا وآسيا، وأنها تبني المستشفيات والمدارس لا للعلاج والثقافة بل لتشويه مكانة الإسلام، وتخالف الوقائع حين تعلن على لسان مبعوثيها أن الإسلام دين وثني! وهو دين التوحيد الخالص، والمسيحية بإزائه لا تصل إلى أصالته العريقة في التوحيد!

مخاطبة القلوب المؤمنة:

لقد كان الإمام حاسما حازما حين واجه الحقائق بلسان الصراحة، وحين رد هذه الدعوات المسمومة ردا صريحا لا تعوزه شجاعة الحق، وجهاره الإيمان، فكمم أفواها تعودت القول المعسول والفعل المرذول، لقد اهتدى الإمام بعد عناء طويل في رحلته الفكرية إلى أن القلب موضوع إقناع المؤمن، فالمؤمن لا يتطلب تغلغل العقل كي يقتنع، ولكنه يلتمس ماء الهداية كي يرتوي!

المؤمن: مؤمن، قام يقينه على صخرة ثابتة لا تعصف بها الأعاصير، ولا تنال منها الزلازل، وقد آمن بكتاب ربه وسنة نبيه، وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وفي ذلك كله ما يقدم الغذاء الهنيء والطعام المريء.

يصعد الإمام المنبر في مناسبة عامة، فلا يجعل هذه المناسبة تأخذ عليه أقطار تفكيره، لأن المناسبات تتكرر كل عام، وقد ألم المجتمعون بما قيل في موضوعها سنة وراء سنة: فالهجرة والميلاد النبوي، والإسراء، وصوم رمضان وذكرى بدر وفتح مكة، ورحلة الحج والعمرة، مما تقام له الحفلات العامة وقد شبع المجتمعون حديثا عنها، فإذا وقف الرجل في أمثال هذه المجتمعات فإنه يمر بالمناسبة مرورا سريعا، ويختار آية من كتاب الله، أو حديثا للرسول، ليجعل منهما مجالاً للشرح والتوجيه.

فقد وقر في ذهنه أن القرآن كتاب المسلم الأول، وأن الحديث مورده الثاني، ولن يسأم مؤمن ترداد ما بهما من الكنوز، فجعل يتجه إلى الشرح الهادئ المبسط وقد يعلو المنبر مرتين في اليوم الواحد، ثم يجد المدد المتجدد المستفيض لأنه يرشف من معين الكتاب والسنة.

الاهتمام بالمعاهد الأزهرية :

* أدرك الشيخ عقبى ما ينتظر الأزهر من قضاء على صميم رسالته الدينية، فجعل يجوب القرى والمراكز والمدن ليدعُ الناس إلى التبرع الحتمي كي ينشئوا المعاهد الدينية في كل مكان. كان الرجل من قوة العزيمة ومضاء الهمة، بحيث هانت عليه أعباء الطريق من أقصى الصعيد إلى أقصى الدلتا، فلم يترك محافظة ما دون أن يتصل بذوي أمرها، ودون أن يدعو الناس إلى استماع موعظته بالمسجد الجامع ليعلن رغبته في إنشاء معهد ديني في الإقليم.

ثم امتد بنظره إلى مكاتب تحفيظ القرآن لتكون المدد الأول للمعاهد، حيث تسلح الطالب الأزهري بحفظ قدر كبير من كتاب الله، وبذل ما بذل حتى ضم أكثر هذه المكاتب إلى إدارة الأزهر.

وليت المتسرعين تركوه في جهاده الشاق، كي يجني جميع الثمار المرتجاة، ولكن فريقا يعارض لوجه المعارضة حينا، أو ينسى الهدف الأساسي من ذيوع المعاهد على هذا النطاق الشامل حيناً آخر، أو يحاول إحباط مساعي الإمام لحاجة خاصة في نفسه، هذا الفريق يدَّعي الحرص على الكيف، ويلوم من يسعى إلى انتشار المعاهد بدعوى أنها لا تجد ما تتطلب من أساتذة ومقاعد وأبنية وغذاء، حتى رجفت الراجفة في صحيفة يومية دأبت على استنكار ما يقوم به هذا المجاهد المكافح من نضال ولكن الرجل لا يسكت عن لجاج فشرع يرد، وأخذ يقنع بالحجة الداحضة، ليدمغ الشبهة الواهية.

الدعوة إلى تطبيق الشريعة :

أما المطالبة بالشريعة الإسلامية تطبيقا والتزاما، فما نعرف أن الإمام قد كل عنها

ذات يوم، فقد كتب عشرات المقالات ليُعلن أن مصر لم تعرف الأحكام المدنية إلا بعد الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م، وأن الشريعة بعد هذا التاريخ بقيت في مسائل الأسرة وما يُعرف بالأحوال الشخصية، كما بقيت في أكثر مواد القانون المدني، وعلينا أن نطالب بتعميمها في كل المواد، جنائية ومدنية ودستورية ودولية!

وقد سارع رحمه الله فألف لجنة علمية لصياغة قوانين الشريعة، في مواد محددة لتسهل مهمة التطبيق، وراجع ما كتب من المواد، ونشره في الصحف، ثم اتصل بأعضاء مجلس الشعب فردا وراء فرداً ليجمع تكتلاً إسلامياً ينادي بتطبيق الشريعة، وأخذ يتعجل التطبيق ملحا، ولم ييأس ذات مرة، وكان يطالع آراء المسؤولين في وجوب تطبيق الشريعة فيتساءل متعجبا: إذا كانوا صادقين في إصدار هذه الآراء، فما الذي يقعد بهم إلى الآن؟

استعادة هيبة الأزهر:

وبينما يزاول الشيخ أعباء منصبه كشيخ للأزهر وينهض بدوره على خير وجه حتى بوغت بصدور قرار جديد من رئيس الجمهورية في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩٤هـ= ٧ يوليو ١٩٧٤م. يكاد يجرد شيخ الأزهر مما تبقى له من اختصاصات ويمنحها لوزير الأوقاف والأزهر، وما كان من الشيخ إلا أن قدم استقالته لرئيس الجمهورية على الفور، معتبرا أن هذا القرار يغض من قدر المنصب الجليل ويعوقه عن أداء رسالته الروحية في مصر والعالم العربي والإسلامي.

روجع الإمام في أمر استقالته، وتدخل الحكماء لإثنائه عن قراره، لكن الشيخ أصر على استقالته، وامتنع عن الذهاب إلى مكتبه، ورفض تناول راتبه، وطلب تسوية معاشه، وأحدثت هذه الاستقالة دويا هائلا في مصر وسائر أنحاء العالم الإسلامي، وتقدم أحد المحامين الغيورين برفع دعوى حسبة أمام محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة ضد رئيس الجمهورية ووزير الأوقاف، طالبا وقف تنفيذ قرار رئيس الجمهورية.

إزاء هذا الموقف الملتهب اضطر أنور السادات إلى معاودة النظر في قراره ودراسة المشكلة من جديد، وأصدر قرارا أعاد فيه الأمر إلى نصابه، جاء فيه: شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأي في كل ما يتصل بالشئون الدينية والمشتغلين بالقرآن وعلوم الإسلام، وله الرياسة والتوجيه في كل ما يتصل بالدراسات الإسلامية والعربية في الأزهر. تضمن القرار أن يعامل شيخ الأزهر معاملة الوزير من حيث المرتب والمعاش، ويكون ترتيبه في الأسبقية قبل الوزراء مباشرة، وانتهت الأزمة وعاد الشيخ إلى منصبه ليواصل جهاده. وجدير بالذكر أن قرارا جمهوريا صدر بعد وفاة الشيخ بمساواة منصب شيخ الأزهر بمنصب رئيس الوزراء.

مسئولية شيخ الأزهر:

كان الشيخ عبد الحليم يدرك خطورة منصبه، وأنه مسئول عن القضايا التي تتعلق بالمسلمين، وأنه لا ينتظر من أحد توجيها إلى النظر في بعض القضايا وغض النظر عن بعضها، فكان للأزهر في عهده رأي ومقال في كل قضية وموضوع يتعلق بأمر المسلمين، فتصدى لقانون الأحوال الشخصية الذي حاولت الدكتورة عائشة راتب إصداره دون الرجوع إلى الأزهر، وحرصت على إقراره من مجلس الشعب على وجه السرعة، وكان هذا القانون قد تضمن قيودا على حقوق الزوج على خلاف ما قررته الشريعة الإسلامية.

ولما علم الإمام الأكبر بهذا القانون أصدر بيانا قويا حذر فيه من الخروج على تعاليم الإسلام، وأرسله إلى جميع المسئولين وأعضاء مجلس الشعب وإلى الصحف، ولم ينتظر صدور القانون بل وقف في وجهه قبل أن يرى النور، لكن بيان الشيخ تآمرت عليه قوى الظلام فصدرت التعليمات إلى الصحف بالامتناع عن نشره، واجتمعت الحكومة للنظر في بيان الشيخ عبد الحليم محمود، ولم تجد مفرا من الإعلان عن أنه ليس هناك تفكير على الإطلاق في تعديل قانون الأحوال الشخصية، وبذلك نجح الإمام في قتل القانون في مهده.

الكتب الدينية المشتركة :

اقترح البابا شنودة بطريرك الأقباط في مصر تأليف كتب دينية مشتركة ليدرسها الطلبة المسلمون والمسيحيون جميعا في المدارس، مبررا ذلك بتعميق الوحدة الوطنية بين عنصري الأمة، وتقوية الروابط بينهما. لقي هذا الاقتراح قبولا بين كبار المسئولين، وزار الدكتور مصطفى حلمي وزير التربية والتعليم آنذاك الإمام الأكبر ليستطلع رأيه في هذا الاقتراح، لكن الشيخ الغيور واجه الوزير بغضبة شديدة قائلا له: من آذنك بهذا، ومن الذي طلبه منك، إن مثل هذه الفكرة إذا طلبت فإنما توجه إلينا من كبار المسئولين مباشرة، ويوم يطلب منا مثل هذه الكتب فلن يكون ردي عليها سوى الاستقالة.

ما كان من الوزير إلا أن استرضى الشيخ الغاضب وقدم اعتذارا له قائلا له: إنني ما جئت إلا لأستطلع رأي فضيلتكم وأعرف حكم الدين، ويوم أن تقدم استقالتك لهذا السبب فسأقدم استقالتي بعدك مباشرة.

المحاكم العسكرية غير مؤهلة :

من مواقف الشيخ الشجاعة ما أبداه تجاه المحكمة العسكرية التي تصدت للحكم في قضية جماعة التكفير والهجرة المصرية، وكانت المحكمة قد استعانت بعدد من علماء الأزهر لإبداء الرأي في فكر هذه الجماعة، غير أن المحكمة لم تسترح لرأيهم، وكررت ذلك أكثر من مرة، وكانت في عجلة من أمرها؛ الأمر الذي جعلها تصدر أحكاما دون استئناس برأي الأزهر.

لم تكتف هذه المحكمة بذلك بل تضمن حكمها هجوما على الأزهر وعلمائه، وقالت: إنه كان على المسئولين عن الدعوة الدينية أن يتعهدوا الأفكار بالبحث والتدبر بدلا من إهمالها وعدم الاعتناء بمجرد بحثها. ولمزت المحكمة علماء الأزهر بقولها: «ووا أسفا على إسلام ينزوي فيه رجال الدين في كل ركن هاربين متهربين من أداء رسالتهم أو الإفصاح عن رأيهم أو إبداء حكم الدين فيما يعرض عليهم من

أمور، فلا هم أدوا رسالتهم وأعلنوا كلمة الحق، ولا هم تركوا أماكنهم لمن يقدر على أداء الرسالة».

كانت كلمات المحكمة قاسية وغير مسئولة وتفتقد إلى الموضوعية والأمانة، وهو ما أغضب الإمام الأكبر بهذا الهجوم العنيف، فأصدر بيانا امتنعت معظم الصحف اليومية عن نشره، ولم تنشره سوى صحيفة الأحرار.

في هذا البيان اتهم عبد الحليم محمود المحكمة بالتعجل وعدم التثبت، وأنها لم تكن مؤهلة للحكم على هذا الفكر، وأنها تجهل الموضوع الذي تصدرت لمعالجته، وكان يجب عليها أن تضم قضاة شرعيين يقفون موقفها ويشاركونها المسئولية ويتمكنون من الاطلاع على جميع ظروف القضية ونواحيها فيتمكنون من إصدار الحكم الصحيح.

اتهم الإمام المحكمة بأنها لم تمكن علماء الأزهر من الاطلاع على آراء هذا التنظيم أو الاستماع إلى شرح من أصحابه، والاطلاع على كافة الظروف التي أدت بهم إلى هذا الفكر، واكتفت بأن عرضت عليهم المحضر الذي سجلته النيابة من أقوال ومناقشات، وهذا لا يرقى أن يكون مصدرا كافيا يقوم عليه بحث العلماء، أو أساسا متكاملا تصدر عليه أحكام.

الاهتمام بأمور المسلمين:

كان الشيخ عبد الحليم محمود يستشعر أنه إمام المسلمين في كل أنحاء العالم، وأنه مسئول عن قضاياهم، وكان هؤلاء ينظرون إليه نظرة تقدير وإعجاب، فهم يعتبرونه رمز الإسلام وزعيم المسلمين الروحي، ولهذا كان يخفق قلب الإمام لكل مشكلة تحدث في العالم الإسلامي، ويتجاوب مع كل أزمة تلمّ ببلد إسلامي.

فقد أصدر بيانا بشأن الأحداث الدامية والحرب الأهلية في لبنان، دعا الأطراف المتنازعة من المسلمين والمسيحيين إلى التوقف عن إراقة الدماء وتخريب معالم الحياة، وأهاب بزعماء العرب والمسلمين إلى المسارعة في معاونة لبنان على الخروج من أزمته، وفاء بحق الإسلام وحق الأخوة الوطنية والإنسانية، وقياما ببعض تبعات

الزعامة والقيادة التي هي أمانة الله في أعناقهم.

لم يكتف الشيخ بذلك بل أرسل برقية إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية يناشده العمل بحسم وعزم على وقف النزيف الدموي الذي أسالته المؤامرات المعادية على أرض لبنان.

الأزمة المغربية الجزائرية :

قامت أزمة عنيفة بين المغرب والجزائر بشأن مشكلة الصحراء الغربية التي كانت أسبانيا تحتلها، وأدى الخلاف بينهما إلى مناوشات حربية كادت تتحول إلى حرب عنيفة. لما علم الإمام بأخبار هذه التحركات سارع إلى إرسال برقية إلى كل من ملك المغرب ورئيس الجزائر، دعاهما إلى التغلب على نوازع الخلاف وعوامل الشقاق والفرقة، وأن يبادرا بتسوية مشكلاتها وموضوعات الخلاف بينهما بالتفاهم الأخوي والأسلوب الحكيم، وناشدهما باسم الإسلام أن يلقيا السلاح وأن يحتكما إلى كتاب الله.

أرسل في الوقت نفسه برقية إلى الرئيس السادات يرجوه التدخل للصلح بين القطرين الشقيقين، جاء فيها: «تتعلق بزعامتكم قلوب المسلمين من العرب والمسلمين الذين ينتظرون مساعيكم الحميدة في إصلاح ذات البين بمناسبة الصدام المسلح المؤسف بين البلدين الشقيقين الجزائر والمغرب».

رد السادات على برقية شيخ الأزهر ببرقية يخبره فيه بمساعيه للصلح بين الطرفين جاء فيها: «تلقيت بالتقدير برقيتكم بشأن المساعي لحل الأزمة بين الجزائر والمغرب، وأود أن أؤكد لكم أن مصر تقوم بواجبها القومي من أجل مصالح العرب والمسلمين، وما زال السيد محمد حسني مبارك نائب الرئيس يقوم بمهمته المكلف بها، أرجو الله عز وجل أن يكلل جهوده بالنجاح والتوفيق» .

في الوقت نفسه أرسل برقية إلى خالد بن عبد العزيز عاهل المملكة السعودية آنذاك يدعوه للتدخل إلى حقن الماء بين الشقيقين وفض النزاع بينهما، وقد أحدثت هذه البرقيات أصداء قوية، وكانت عاملا في هدوء الحالة بين الدولتين الشقيقتين.

وفاة الشيخ :

كانت حياة الشيخ عبد الحليم محمود جهادا متصلا وإحساسا بالمسئولية التي يحملها على عاتقه، فلم يركن إلى اللقب الكبير الذي يحمله، أو إلى جلال المنصب الذي يتقلده، فتحرك في كل مكان يرجو فيه خدمة الإسلام والمسلمين، وأحس الناس فيه بقوة الإيمان وصدق النفس، فكان يقابل مقابلة الملوك والرؤساء، بل أكثر من ذلك؛ حيث كانت الجموع المحتشدة التي هرعت لاستقباله في الهند وباكستان وماليزيا وإيران والمغرب وغيرها تخرج عن حب وطواعية لا عن سوق وحشد وإرهاب.

ويُحسب له أيضا اهتمامه بتدريس الإعلام بجامعة الأزهر، حتى يتم إعداد الإعلامي المسلم على هدى من تعاليم الكتاب والسنة، وذلك بتنسيق مع د. إبراهيم إمام عميد أساتذة الإعلام في مصر ود. إجلال خليفة أستاذة الإعلام بجامعة القاهرة (رحمهما الله).

وكثيرة هي مواقف الإمام المتصوف الهادئ الوقور والثائر في دعة دفاعاً عن الإسلام وضرورة أن يكون هو أساس وجوهر التشريع.

في ظل هذا النشاط الجم والرحلات المتتابعة لتفقد المسلمين شعر بآلام شديدة بعد عودته من الأراضي المقدسة فأجرى عملية جراحية لقي الله بعدها في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق (١٧ أكتوبر ١٩٧٨م الموافق ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٩٧هـ) تاركا ذكرى طيبة ونموذجا لما يجب أن يكون عليه شيخ الأزهر.





الشيخ محمد الغزالي

(١٣٣٥-١٤١٦هـ=١٩١٧-١٩٩٦م)

الإمام المجدد

كان «الشيخ محمد الغزالي» -رحمه الله- مدينة حافلة ذات ميادين شتى، متسعة الأرجاء، فهو مؤلف بارع ومجاهد صادق، وخطيب مؤثر، وعالم بأجواء المجتمع الإسلامي في شتى ربوعه.

تربى «الغزالي» في بيئة مؤمنة بإحدى قرى مديرية البحيرة، وحفظ القرآن وقرأ الحديث في منزل والده قبل أن يلتحق بالأزهر، ومضت حياته العلمية في هذا المعهد الخالد حتى نال درجة التخصص في الوعظ والإرشاد وعُين واعظا فور تخرجه، ولعل من توفيق الله بعد أن يلتحق بكلية العقيدة والفلسفة لأن ميوله الأدبية وتمتعه بالبيان العربي المشرق واطلاعه على أمهات الكتب في عهد الدراسة الثانوية مما كان يرشحه لكلية اللغة العربية، ولكن الله يعلم أنه سيكون مناضلا باسلا في ميدان الدعوة الإسلامية وسيصير زعيما إسلاميا تلتف حوله القلوب، فهيأ له أن يلتحق بكلية أصول الدين وأن يخرج منها مجاهدا بقلمه ولسانه معا، بلسانه في الندوات وفوق المنابر وبقلمه في حقل التأليف العلمي وهو حقل مديد.

روعة البيان:

لقد كان «الغزالي» من أكبر دعاة الإسلام في عصره، إذ يملك روعة البيان وقوة الإيمان وصلابة العقيدة، وأسلوبا حارا يتوهج حمية، ويلتهب غيرة، أسلوبا يملك المشاعر حين يكون الغزالي خطيبا ويأسر عواطفه حين يكون الغزالي كاتبا، إذ تكفلت كتبه الكثيرة بشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة في عصر الإلحاد. واقترن اسم الغزالي بالفكر والمنهجية في الدعوة الإسلامية، فقد قاد العديد من المعارك الفكرية أوضح من خلالها رؤية الإسلام ووسطيته في مواجهة الفلسفات المعاصرة، كما أظهر سماحة الإسلام في مواجهة التشدد والغلو والتطرف باسم الدين من خلال مؤلفاته العديدة وكتاباته ولقاءاته مع وسائل الإعلام.

الحوار الحضاري:

والساحة الكبرى التي صال فيها الغزالي وجال وحاور وجادل وكر وفر وفاز،

هي ساحة التماس بين الإسلام والغرب، أو موقف الإسلام من الحضارة الحديثة، والغزالي حضاري التفكير، واقعي الرؤى، لا يلقي بالتهم في وجه منجزات الحضارة الغربية الحديثة -شأن البعض من علماء المسلمين- ولكنه يفتش عن مواطن الداء في طريقة فهم المسلمين لدينهم وكيفية تعاملهم مع منجزات العلم الحديث.

هذه الرؤية الناقدة دفعت بالشيخ الغزالي -رحمه الله- إلى رصد إيجابيات حركة التلاقي بين الإسلام والغرب، وهي حركة يجب أن يفيد المسلمون من تفاعلها وليس من تصادمها.

والغزالي الداعية المستنير في كتابه «الغزو الثقافي يمتد في فراغنا» يؤكد أن صلة الحضارة الحديثة بالعرب أيام صدارتهم لا يمكن إنكارها، فإن أحبار اليهود وآباء الكنيسة جميعا حرصوا على الالتحاق بجامعة الأندلس، والارتواء من ثقافتها الخصيبة، وقد ترجموا القرآن إلى العبرية واللاتينية، وكان لترجمات معاني القرآن الكريم في مناهجهم أثر كبير، ويكشف الغزالي النقاب عن عدة ملامح تجسد إيجابيات التلاقي المتفاعل بين الإسلام والغرب فنراه يشيد بالمنجزات العلمية الباهرة للحضارة الغربية، وينعي على المسلمين تخلفهم المزري في هذا المضمار!!

ومن ملامح التفاعل والتلاقى بين الحضارتين: حضارة الإسلام وحضارة الغرب. ما يسوقه «الشيخ الغزالي» على لسان نابليون، ورأيه في نابليون نفسه فهو في نظره رجل من عشاق المجد وطلاب العلا، ومما يفسر ذلك أن نابليون في كتاب «نظرات سياسية» يؤكد حبه للإسلام وتقديره لمده الحضاري وتعاليمه الرشيدة، ويرى أن نابليون كان مقتنعا بأن الإسلام هو أصلح قاعدة لبناء أعظم دولة في التاريخ، وأن هذا الاقتناع صاحبه لدى إعداد الحملة الفرنسية على مصر.

تفاعل لا تصادم:

وأما الملمح الثاني من مظاهر التفاعل وليس التصادم بين الإسلام والحضارة

الحديثة فهو يتمثل فى رأي الفيلسوف الفرنسي فولتير في الإسلام وموقفه من الذين يهاجمون القرآن الكريم. ويكيدون لأتباعه يقول فولتير: «كيف تحقرون كتابا يدعو إلى الفضيلة والزكاة والرحمة؟، كتابا يجعل الرضوان الأعلى جزاء لمن يعملون الصالحات، وتتوفر فيهم الكمالات الذاتية، إن الذين يهاجمون القرآن لم يقرؤوه قطعا!».

وبعد هذه الشهادة القوية لفولتير عن القرآن الكريم.. والدفاع عنه والدعوة إلى قراءته بتدبر يؤكد «الغزالي» هذه الرؤية الحضارية الإيجابية للعلاقة بين الإسلام والغرب، فيقدم للأجيال المعاصرة شهادة المفكر المسيحي أبادي في كتابه المطبوع سنة ١٧١٩هـ حيث يقول أبادي منوها بني الإسلام ومدافعا عنه، ومشيدا بالقرآن الكريم.

«لا يسعنا إلا أن يكون لنا رأي رفيع في مكانة محمد ﷺ وعده نبيا عظيما، فقد علم البشر أن يفردوا ربهم بالسلطان المطلق، ولم يمنح هذا السلطان أحدا من الخلق، ودفع الأجيال المتعاقبة إلى عبادة الله ذي الجلال والإكرام، فالله فوق عرشه رفيع الدرجات والناس في إطار الخليقة الفقيرة إليه وحده.. هل هناك شرع أكثر صحة من هذا الشرع؟. إن القرآن كتاب نبيل ومن المؤكد أن محمدا ﷺ شتت به ضلالات كثيرة».

رأب الصدع:

إن هذه الرؤى الإيجابية عن الإسلام والقرآن في الفكر الغربي يقدمها «الشيخ الغزالي» إلى جماهير الأمة الإسلامية والعربية رغبة في رأب الصدع وإزالة الفجوات العميقة التي حفرها الكثيرون في الطريق الواصل ما بين الحضارتين.

وحين يقرأ المتشككون من أبناء جلدتنا في طبيعة الإسلام والقيمة الإنسانية للقرآن الكريم حين يقرأ هؤلاء المستغربون هذه الشهادات لمفكري الغرب وفلاسفته عن الإسلام سيراجعون أنفسهم، ويعيدون حساباتهم مع منهجهم

التصادمي أو الرافض لقدرة الفكر الإسلامي على مواكبة ما يتطلبه العصر من تقنية وإنجازات حضارية.

إن «الغزالي» يستثير حمية المثقفين المسلمين المفتونين بالثقافات الأجنبية ويأسى كثيرا، لأن هؤلاء لم يستثمروا طاقاتهم الفكرية ومنافذهم الثقافية في إلقاء الأضواء على طبيعة الإسلام، وقيمه العليا وأهدافه الإنسانية النبيلة ويتساءل: ماذا أفدتم من هذه المقدرة؟ وماذا أفادت أمتكم منكم؟. هل استصحبتم دينكم وتاريخكم وأنتم تطالعون الثقافات الأجنبية؟

إنكم لم تترجموا العلوم، وكنا أفقر إليها وأحوج من الروايات الغرامية والجنائية التي زحمتم بها لغتنا، وشغلتم بها أولادنا، ونقلتم أكاذيب المستشرقين، وفي الحضارة الغربية عباقرة كثيرون عرفوا للإسلام فضله وقدروا له ما أسدي للعلم وللعالم.

أخطاء تاريخية:

إن هذه الرؤية الإيجابية لحركة التلاقي بين الإسلام والغرب لا تعني أن «الغزالي» غافل عن الوجه الآخر المضاد المتجدد للصراع والتصادم وهو وجه سلبي يشارك في تشكيل ملامحه المشوهة بعض أتباع الإسلام قبل أعدائه، أو الذين يجهلون معالمه وتضاريسه ويسيئون تقديم الخطاب الإسلامي للناس، ومأساة الإسلام كما يرى «الشيخ الغزالي» تكمن في أن أناسا يتقدمون بتقاليد الشعوب على إنها تعاليم الوحي بل إنهم يتقدمون بالأخطاء التاريخية على أنها توجيهات سماوية.

وستبقى الحضارة الحديثة حاكمة ما بقي هؤلاء يدعون ويكابرون، ولن تصح مسيرة العالم إلا بعودة الإسلام ذاته على أيدي أولي الألباب ومن لهم قلوب، وسنظل نردد مع الداعية الفارس المؤمن الشيخ الغزالي والأسى يتملكنا والأمل يدفعنا إلى البحث عن الطريق الصحيح، والمنهج القويم للتفاعل مع المد الحضاري المعاصر، حتى لا تظل آفاق المستقبل أمامنا -كما هي الآن- غائمة الرؤى، مطفأة الشموس حالكة الأقمار.

إعادة النظر:

يقول «الغزالي»: «لابد من إعادة النظر في ثقافاتنا كلها، أعني ثقافتنا الذاتية لننبذ منها ما ليس له رصيد من هداية الله وإعادة النظر في العلوم الكونية والإنسانية التي تموج بها الأرض لنقتبس منها ما نحتاج إليه على عجل».

المولد والنشأة:

وحتى نعرف كيف وصل «الشيخ الغزالى» إلى هذه الدرجة الرفيعة من الفكر والفهم الصحيح للإسلام ودعوته، يجدر بنا أن نتعرف على مراحل حياته والبيئة التى أحاطت بنشأته وتعليمه.

ففى قرية «نكلا العنب» التابعة لمحافظة البحيرة بمصر ولد «الشيخ محمد الغزالى» في ٢٢ من سبتمبر ١٩١٧م الموافق ٥ ذي الحجة ١٣٣٥هـ. ونشأ في أسرة كريمة، وتربى في بيئة مؤمنة؛ فحفظ القرآن، وقرأ الحديث في منزل والده، ثم التحق بمعهد الإسكندرية الدينى الابتدائى، وظل به حتى حصل على الثانوية الأزهرية، ثم انتقل إلى القاهرة سنة (١٣٥٩هـ - ١٩٣٧م) والتحق بكلية أصول الدين، وفي أثناء دراسته بالقاهرة اتصل بالإمام حسن البنا وتوثقت علاقته به، وأصبح من المقربين إليه، حتى إن الإمام البنا طلب منه أن يكتب في مجلة «الإخوان المسلمين» لما عهد فيه من الثقافة والبيان؛ فظهر أول مقال له وهو طالب في السنة الثالثة بالكلية، وكان البنا لا يفتأ يشجعه على مواصلة الكتابة حتى تخرج سنة (١٣٦٠هـ - ١٩٤١م) ثم تخصص في الدعوة، وحصل على درجة «العالمية» سنة (١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م) وبدأ رحلته في الدعوة في مساجد القاهرة.

فى ميدان الدعوة والفكر:

كان الميدان الذى خُلق له «الشيخ الغزالى» هو مجال الدعوة إلى الله على بصيرة ووعى، مستعينا بقلمه ولسانه، فكان له باب ثابت في مجلة «الإخوان المسلمين» تحت عنوان «خواطر حية» جلى قلمه فيها عن قضايا الإسلام ومشكلات المسلمين

المعاصرة ، وقاد حملات صادقة ضد الظلم الاجتماعى وتفاوت الطبقات وتمتع أقلية بالخيرات فى الوقت الذي يعانى السواد الأعظم من شظف العيش .

ثم لم يلبث أن ظهر أول مؤلفات «الشيخ الغزالى» بعنوان «الإسلام والاوضاع الاقتصادية» سنة (١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م) أبان فيه في أن للإسلام من الفكر الاقتصادى ما يدفع إلى الثروة والنماء والتكافل الاجتماعى بين الطبقات، ثم أتبع هذا الكتاب بآخر تحت عنوان «الإسلام والمناهج الاشتراكية»، مكملا الحلقة الأولى في ميدان الإصلاح الاقتصادى، شارحا ما يراد بالتأمين الاجتماعي، وتوزيع الملكيات على السنن الصحيحة، وموضع الفرد من الأمة ومسئولية الأمة عن الفرد، ثم لم يلبث أن أصدر كتابه الثالث «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».

فى المعتقل:

ظل الشيخ يعمل في مجال الدعوة حتى ذاعت شهرته بين الناس لصدقه وإخلاصه وفصاحته وبلاغته، حتى هبّت على جماعة «الإخوان المسلمين» رياح سوداء؛ فصدر قرار بحلها في (صفر ١٣٦٨هـ - ديسمبر ١٩٤٨م) ومصادرة أملاكها والتنكيل بأعضائها، واعتقال عدد كبير من المنضمين إليها، وانتهى الحال باغتيال مؤسس الجماعة تحت بصر الحكومة وبتأييدها، وكان «الشيخ الغزالى» واحدا ممن امتدت إليهم يد البطش والطغيان، فأودع معتقل الطور مع كثير من إخوانه، وظل به حتى خرج من المعتقل في سنة (١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م) ليواصل عمله، وهو أكثر حماسا للدعوة، وأشد صلابة في الدفاع عن الإسلام وبيان حقائقه.

ولم ينقطع قلمه عن كتابة المقالات وتأليف الكتب، وإلقاء الخطب والمحاضرات، وكان من ثمرة هذا الجهد الدؤوب أن صدرت له جملة من الكتب كان لها شأنها فى عالم الفكر مثل: «الإسلام والاستبداد السياسى» الذى انتصر فيه للحرية وترسيخ مبدأ الشورى، وعدها فريضة لا فضيلة، وملزمة لا مُعلمة،

وهاجم الاستبداد والظلم وتقييد الحريات، ثم ظهرت له تأملات فى: الدين والحياة، وعقيدة المسلم، وخلق المسلم.

من هنا نعلم:

وفي هذه الفترة ظهر كتاب للأستاذ «خالد محمد خالد» بعنوان «من هنا نبدأ»، زعم فيه أن الإسلام دين لا دولة، ولا صلة له بأصول الحكم وأمور الدنيا، وقد أحدث الكتاب ضجة هائلة وصخبا واسعا على صفحات الجرائد، وهلل له الكارهون للإسلام، وأثنوا على مؤلفه، وقد تصدى «الغزالى» لصديقه «خالد محمد خالد»، ففند دعاوى كتابه في سلسلة مقالات، جُمعت بعد ذلك في كتاب تحت عنوان «من هنا نعلم».

ويقتضى الإنصاف أن نذكر أن الأستاذ «خالد محمد خالد» رجع عن كل سطر قاله في كتابه «من هنا نبدأ»، وألف كتابا آخر تحت عنوان «دين ودولة»، مضى فيه مع كتاب الغزالى في كل حقائقه.

ثم ظهر له كتاب «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»، وقد ألفه على مضض؛ لأنه لا يريد إثارة التوتر بين عنصرى الأمة، ولكن ألجأته الظروف إلى تسطيره رداً على كتاب أصدره أحد الأقباط افترى فيه على الإسلام. وقد التزم الغزالى الحجة والبرهان في الرد، ولم يلجأ إلى الشدة والتعنيف، وأبانِ عن سماحة الإسلام في معاملة أهل الكتاب.

الغزالى وعبد الناصر:

بعد قيام ثورة ١٩٥٢م، ونجاح قادتها في إحكام قبضتهم على البلاد، تنكروا لجماعة الإخوان المسلمين التي كانت سبباً في نجاح الثورة واستقرارها، ودأبوا على إحداث الفتنة بين صفوفها، ولولا يقظة المرشد الصلب «حسن الهضيبى» وتصديه للفتنة لحدث ما لا تُحمد عقباه، وكان من أثر هذه الفتنة أن شب نزاع بين الغزالى والإمام المرشد، انتهى بفصل الغزالى من الجماعة وخروجه من حظيرتها.

وقد تناول «الغزالى» أحداث هذا الخلاف، وراجع نفسه فيه، وأعاد تقدير الموقف، وكتب في الطبعة الجديدة من كتابه «من معالم الحق في كفاحنا الإسلامى الحديث»، وهو الكتاب الذى دون فيه الغزالى أحداث هذا الخلاف فقال: «لقد اختلفت مع المغفور له الأستاذ حسن الهضيبي، وكنت حادّ المشاعر في هذا الخلاف، لأنى اعتقدت أن بعض خصومى أضغنوا صدر الأستاذ «حسن الهضيبى» لينالوا منى، فلما التقيت به -عليه رحمة الله- بعد أن خرج من المعتقل تذاكرنا ما وقع، وتصافينا، وتناسينا ما كان. واتفقت معه على خدمة الدعوة الإسلامية، وعفا الله عما سلف».

وهذا مما يحسب «للغزالى»، فقد كان كثير المراجعة لما يقول ويكتب، ولا يستنكف أن يؤوب إلى الصواب مادام قد تبين له، ويُعلن عن ذلك في شجاعة نادرة لا نعرفها إلا في الأفذاذ من الرجال.

وظل الشيخ في هذا العهد يجأر بالحق ويصدع به، وهو مغلول اليد مقيد الخطو، ويكشف المكر السيىء الذي يدبره أعداء الإسلام، من خلال ما كتب في هذه الفترة الحالكة السواد مثل: «كفاح دين»، «معركة المصحف في العالم الإسلامى»، و«حصاد الغرور»، و«الإسلام والزحف الأحمر».

ويُحسب «للغزالى» جرأته البالغة وشجاعته النادرة في بيان حقائق الإسلام، في الوقت الذى آثر فيه الغالبية من الناس الصمت والسكون، لأن فيه نجاة حياتهم من هول ما يسمعون في المعتقلات. ولم يكتف بعضهم بالصمت المهين بل تطوع بتزيين الباطل لأهل الحكم وتحريف الكلم عن مواضعه، ولن ينسى أحد موقفه في المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الذى عقد سنة (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م) حيث وقف وحده أمام حشود ضخمة من الحاضرين يدعو إلى استقلال الأمة في تشريعاتها، والتزامها بما يتفق مع الشرع، وكان لكلام «الغزالى» وقعه الطيب في نفوس المؤمنين الصامتين في الوقت الذى هاجت فيه أقلام الفتنة، وسلطت سمومها على الشيخ الأعزل فارس الميدان، وخرجت جريدة «الأهرام» عن وقارها وسخرت من الشيخ في

استهانة بالغة، لكن الأمة التي ظن أنها قد استجابت لما يدبر لها خرجت في مظاهرات حاشدة من الجامع الأزهر، وتجمعت عند جريدة الأهرام لتثأر لكرامتها وعقيدتها ولكرامة أحد دعاتها ورموزها، واضطرت جريدة الأهرام إلى تقديم اعتذار.

في عهد السادات:

واتسعت دائرة عمل الشيخ في عهد الرئيس السادات، وبخاصة في الفترات الأولى من عهده التي سُمح للعلماء فيها بشيء من الحركة، استغله الغيورون من العلماء؛ فكثفوا نشاطهم في الدعوة، فاستجاب الشباب لدعوتهم، وظهر الوجه الحقيقى لمصر. وكان «الشيخ الغزالى» واحداً من أبرز هؤلاء الدعاة، يقدمه جهده وجهاده ولسانه وقلمه، ورزقه الله قبولا وبكرة في العمل؛ فما كاد يخطب الجمعة في جامع «عمرو بن العاص» -وكان مهملا لسنوات- حتى عاد إليه بهاؤه، وامتلأت أروقته بالمصلين.

ولم يتخلَّ «الشيخ الغزالى» عن صراحته في إبداء الرأى ويقظته في كشف المتربصين بالإسلام، وحكمته في قيادة من ألقوا بأزمتهم له، حتى إذا أعلنت الدولة عن نيتها في تغيير قانون الأحوال الشخصية في مصر، وتسرب إلى الرأى العام بعض مواد القانون التي تخالف الشرع الحكيم؛ قال الشيخ فيها كلمته، بما أغضب بعض الحاكمين، وزاد من غضبهم التفاف الشباب، ونقده بعض الأحوال العامة في الدولة، فضُيق عليه وأُبعد عن جامع عمرو بن العاص، وجُمّد نشاطه في الوزارة، فاضطر إلى مغادرة مصر إلى العمل في جامعة «أم القرى» بالمملكة العربية السعودية، وظل هناك سبع سنوات لم ينقطع خلالها عن الدعوة إلى الله، في الجامعة أو عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

فى الجزائر:

ثم انتقل «الشيخ الغزالى» إلى الجزائر ليعمل رئيسا للمجلس العلمى لجامعة

الأمير عبد القادر الإسلامية بقسطنطينة، ولم يقتصر أثر جهده على تطوير الجامعة، وزيادة عدد كلياتها، ووضع المناهج العلمية والتقاليد الجامعية، بل امتد ليشمل الجزائر كلها، حيث كان له حديث أسبوعي مساء كل يوم اثنين يبثه التلفاز، ويترقبه الجزائريون لما يجدون فيه من معان جديدة وأفكار تعين في فهم الإسلام والحياة. ولاشك أن جهاده هناك أكمل الجهود التي بدأها زعيما الإصلاح في الجزائر: «عبد الحميد بن باديس»، و«محمد البشير الإبراهيمي»، ومدرستهما الفكرية.

وبعد السنوات السبع التى قضاها في الجزائر عاد إلى مصر ليستكمل نشاطه وجهاده في التأليف والمحاضرة حتى لقى الله وهو في الميدان الذى قضى عمره كله، يعمل فيه في (٩ من مارس ١٩٩٦م ٢٠ شوال ١٤١٦هـ) ودفن بالبقيع في المدينة المنورة.

الغزالى بين رجال الإصلاح:

يقف «الغزالى» بين دعاة الإصلاح كالطود الشامخ، متعدد المواهب والملكات، راض ميدان التأليف؛ فلم يكتف بجانب واحد من جوانب الفكر الإسلامى؛ بل شملت مؤلفاته: التجديد في الفقه السياسى ومحاربة الأدواء والعلل، والرد على خصوم الإسلام، والعقيدة والدعوة والأخلاق، والتاريخ والتفسير والحديث، والتصوف وفن الذكر. وقد أحدثت بعض مؤلفاته دويًا هائلا بين مؤيديه وخصومه في أخريات حياته مثل كتابيه: «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» و«قضايا المرأة المسلمة».

وكان لعمق فكره وفهمه للإسلام أن اتسعت دائرة عمله لتشمل خصوم الإسلام الكائدين له، سواء أكانوا من المسلمين أو من غيرهم، وطائفة كبيرة من كتبه تحمل هذا الهمّ، وتسد تلك الثغرة بكشف زيغ هؤلاء، ورد محاولاتهم للكيد للإسلام.

أما الجبهة الأخرى التي شملتها دائرة عمله فشملت بعض المشتغلين بالدعوة الذين شغلوا الناس بالفروع عن الأصول وبالجزئيات عن الكليات، وبأعمال

الجوارح عن أعمال القلوب، وهذه الطائفة من الناس تركزت عليهم أعمال الشيخ وجهوده؛ لكى يفيقوا مما هم فيه من غفلة وعدم إدراك، ولم يسلم الشيخ من ألسنتهم، فهاجموه في عنف، ولم يراعوا جهاده وجهده، ولم يحترموا فكره واجتهاده، لكن الشيخ مضى في طريقه دون أن يلتفت إلى صراخهم.

وتضمنت كتبه عناصر الإصلاح التي دعا إليها على بصيرة؛ لتشمل تجديد الإيمان بالله وتعميق اليقين بالآخرة، والدعوة إلى العدل الاجتماعى، ومقاومة الاستبداد السياسى، وتحرير المرأة من التقاليد الدخيلة، ومحاربة التدين المغلوط، وتحرير الأمّة وتوحيدها، والدعوة إلى التقدم ومقاومة التخلف، وتنقية الثقافة الإسلامية، والعناية باللغة العربية.

واستعان في وسائل إصلاحه بالخطبة البصيرة، التى تتميز بالعرض الشافى، والأفكار الواضحة التي يعد لها جيدا، واللغة الجميلة الرشيقة، والإيقاع الهادئ والنطق المطمئن؛ فلا حماسة عاتية تهيج المشاعر والنفوس، ولا فضول في الكلام يُنسى بعضه بعضا، وهو في خطبه معلِّم موجه، ومصلح مرشد، ورائد طريق يأخذ بيد صاحبه إلى بَر الأمان.

وخلاصة القول أنه توافرت للغزالى من ملكات الإصلاح ما تفرق عند غيره؛ فهو: مؤلف بارع، ومجاهد صادق، وخطيب مؤثر، وخبير بأدواء المجتمع بصير بأدويته (*).



(*) أحمد تمام، «الغزالى فارس الدعوة البليغ» من موقع «الإسلام أون لاين».



الشيخ عماد عفت

(١٩٥٩-٢٠١١م)

شيخ ثوار ٢٥ يناير

إذا كان موقف الرسميين في الأزهر كان باهتا في موجات ثورة ٢٥ يناير الأولى، واكتفي من بيدهم أمر الأزهر بالدعوة إلى التعقل وضبط النفس على عادة الساسة الرسميين في وطننا العربي،فإن الشيخ عماد عفت يمثل جيلا من علماء الأزهر كانوا وسط الثوار في ميادين التحرير المصرية، حتى استشهد مضحيا بنفسه في موقعة الشرف ،فور تلقيه رصاصة حية فى صدره، والتى قضى على إثرها نحبه، مساء الجمعة،١٦ ديسمبر ٢٠١١ فى الاشتباكات بين المعتصمين وقوات الأمن بشارع مجلس الوزراء، و شيعت جنازته في يوم السبت ١٧ ديسمبر ٢٠١١ من الجامع الأزهر بالقاهرة .

ففي هذه الفترة كانت صدور الثوار تغلي غضبًا من موقف المجلس العسكري والحكومة التي لم تعمل على تحقيق أهداف الثورة ، وتباطأت في محاكمة قتلة الثوار فاحتشد المتظاهرون في الميادين المختلفة يطالبون بالمحاكمات العاجلة والثأر للشهداء.

وفي ميدان التحرير وقف المتظاهرون السلميون بشجاعة أمام هجمات الأمن المتكررة غير مبالين بكمية وأنواع الأسلحة التي تُطلق عليهم سواء غاز أو خرطوش أو رصاص حي. على الرغم من استشهاد المئات أمامهم وإصابات عشرات الآلاف منهم، كأن هؤلاء الأبطال يستمتعون بشم الغاز المسمم ورائحة الموت والدم. ولكنهم كانوا غير نادمين لأنهم لبوا نداء الوطن في حين تخاذل الكثيرون عن تلبية النداء في أشد الأوقات حاجة لهم،وكان من بين هؤلاء الأبطال الشيخ عماد عفت ،الذي شارك في الثورة المصرية منذ اليوم الأول لها وكان من المعتصمين في ميدان التحرير حتى تم خلع مبارك،ثم شارك بعد ذلك في جميع المليونيات والوقفات التي طالبت بتحقيق أهداف الثورة، حتى استشهد في أحداث مجلس الوزراء.

مرابط في ميدان التحرير :

وكان الشيخ عماد عفت.. وجها يألفه الكثيرون من المصريين الذين دأبوا على

النزول إلى ميدان التحرير والمشاركة في المليونيات التى خرجت للاحتجاج. لم يكن الشيخ عماد من هؤلاء الذين يعتلون منصات التحرير بقدر ما كان من أولئك المصريين المتعطشين للحرية والعدالة الاجتماعية،ويوم وفاته نزل الشيخ عفت، إلى ميدان التحرير ليس فقط كمشارك كعادته.. لكنه حاول بابتسامته التى أبي الموت أن يخفيها عن وجهه، تهدئة الأوضاع بين المتظاهرين والأمن.. ليتلقي بقلبه رصاصة غادرة استشهد على إثرها.

تحريم التصويت للفلول :

عُرف الشيخ عفت، الذي كان حريصا على رفع علم مصر في كل المظاهرات التى شارك بها، بفتواه الخاصة بتحريم التصويت لفلول الحزب الوطني المنحل والتى قال فيها:« إن التصويت للفلول في الدورات السابقة أو من كانوا منتمين لعضوية الحزب المنحل هو حرام شرعا، باعتبار أنهم ساهموا في الفساد،إن ذلك الحكم مبني على أن فلول الوطني يرغبون في تدمير مستقبل مصر بنشر الرشاوى والمحسوبيات ثانية بعدما قضت الثورة على تلك الأفعال المشينة ومن يمنحهم صوته يساعدهم على الوصول إلى المنصة التشريعية ».

لم يفتِ الرجل بأكثر مما أملى عليه علمه وضميره تجاه الذين أفسدوا حياة المصريين السياسية والاقتصادية والصحية والاجتماعية والإعلامية على مدار ثلاثة عقود، وعلى ما يبدو كان لفتواه نصيب ليس قليلاً من بين الأسباب الداعية لقتله. طبعًا مع عدم التقليل من دوره كمصلح بين المشتبكين خاصة، وقد تكرَّرت هذه الجهود للإصلاح من جانب شيوخ الأزهر خلال أحداث شارع محمد محمود، لكنها ما كادت تسير في طريق النجاح وتهدئة الأوضاع والفصل بين المتظاهرين ورجال الأمن حتى يندس مشعلوها من جديد حتى تعود لسابق عهدها في الاشتعال. ويبدو أن عمليات الإشعال كانت تكلِّف هؤلاء المندسين الكثير، فرأوا التخلص من هذا الصوت الذي أدمن إطفاء حرائقهم.

عُرف الشيخ عماد عفت بمواقف نضالية ضد النظام البائد، ويقول من عرفوه إنه

كان «فقيهًا عابدًا ذاكرًا شاكرًا لله خاضعًا لربه، وكان نبيلاً لا يخشى في الله لومة لائم، وكان خلوقًا جم التواضع حسن السمت، ما رآه أحد إلا وأحبه». ويقول د. علي جمعة مفتي الجمهورية الذي زار جثمان الفقيد في المشرحة وقام بتوديعه : «عفت من الثوار، وشارك في أحداث ثورة يناير».

وفي رثائه كتب الشيخ، أنس السلطان، أحد تلامذة الشيخ عفت، قائلا : «دمك لعنة على قاتليك يا شيخ عماد.. دمك لعنة على العسكر ولاعقي بياداتهم..... دمك لعنة على الجالسين في بيوتهم يكتفون باتهامات موزعة على الجميع.. دمك لعنة على من يجعلون الانتخابات والمحافظة عليها ذريعة لترك شهدائنا يموتون ثم يكتفون بالبيانات.. دمك يا شيخ عماد حجة على زمانك، كما كان دم جدك الإمام الحسين حجة على زمانه.. وإنا نعاهدك يا شيخنا أنا على دربك حتى نلقاك إن شاء الله».

دراسته وعلمه :

ولد الشيخ عماد عفت يوم السبت ١٥ أغسطس ١٩٥٩م بمحافظة الجيزة، وحصل على ليسانس اللغة العربية من كلية الآداب جامعة عين شمس بتقدير جيد عام ١٩٩١م، وليسانس الشريعة الإسلامية من كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر بالقاهرة بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف عام ١٩٩٧م، ودبلومة الفقه الإسلامى العام من كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر بالقاهرة عام ١٩٩٩م، ودبلومة الشريعة الإسلامية من كلية دار العلوم بالقاهرة، ومتزوج ولديه أربعة أطفال ذكرين وأنثيين، آخر الوظائف التى عمل بها كانت مديرا لإدارة الحساب الشرعى بدار الإفتاء المصرية، وعضو لجنة الفتوى بها، بعد أن تولى رئيس الفتوى المكتوبة بالدار فى بداية تعيينه بأكتوبر ٢٠٠٣.

وكان يعمل باحثا فقهيا بـ«دار التأصيل للدراسات الشرعية». وباحثًا شرعيًا في شركة «العالمية للبرمجيات صخر». ومُراجِعًا للكتب الدينية. وفي تجارة الكتب. ومُدخِل للبيانات على الحاسب الآلي.

قال عن نفسه في الأوراق التي قدمها عند تعيينه: «أحمل كتاب الله تعالى. وعندي إجازة بقراءته وإقرائه بقراءاته العشر من طريقَي الشاطبية والدرة، من فضيلة الشيخ« محمد عيد عابدين»- رحمه الله تعالى. وإجازة بقراءة وإقراء: قراءة عاصم بروايَة: شعبة وحفص، والكسائي برواية: أبي الحارث والدوري، ورواية ورش عن نافع، من فضيلة الشيخ« عباس المصري» رحمه الله تعالى. وإجازة بقراءة وإقراء: قراءة ابن عامر برواية : هشام وابن ذكوان، من فضيلة الشيخ« إيهاب فكري» صاحب مجلس الإقراء بالحرم النبوي الشريف.

دَرَستُ من كتب السنة: البخاري ومسلم وأبا داود والترمذي والنسائي كواملَ على فضيلة الشيخ «علي جمعة» . والكثير من البخاري ومسلم وغيرهما مع الشرح على فضيلة الشيخ «سعيد الحبشي» رحمه الله تعالى، بالحرم المكي الشريف ثم بالمسجد القطري بمكة المكرمة.

دَرَستُ بعضًا من الفقه الشافعي على: فضيلة الشيخ «الحسيني الشيخ» رحمه الله تعالى (من شرح المحلي على منهاج النووي)، وفضيلة الشيخ «علي جمعة» (سمعنا عليه متن منهاج الطالبين، وبعضا من شرح المحلي عليه، وبعضا من شرح الخطيب على متن أبي شجاع.

دَرَستُ أبوابا وفصولا من «الأشباه والنظائر» للسيوطي على كل من: فضيلة الشيخ/ جاد الرب رمضان- رحمه الله تعالى، وفضيلة الشيخ «علي جمعة» مفتي جمهورية مصر العربية .

دَرَستُ فصولا من كتاب «شرح منتهى ابن الحاجب» على فضيلة الشيخ «القرنشاوي» رحمه الله تعالى.

دَرَستُ كتاب «لبّ الأصول» للشيخ زكريا الأنصاري كاملا على فضيلة الشيخ «علي جمعة».

قرأتُ بعضا من كتاب «التمهيد» على الشيخ «الحسيني الشيخ» رحمه الله تعالى.

كما قرأته كاملا مرتين على فضيلة الشيخ «علي جمعة».

دَرَستُ المجلد الأول من كتاب «تشنيف المسامع شرح جمع الجوامع» للزركشي على فضيلة الشيخ «علي جمعة».

قرأتُ كتاب «الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية» كاملا على فضيلة الشيخ «علي جمعة».

كما دَرَستُ على فضيلة الشيخ «علي جمعة» رسالة في الوضع. وكثيرا من حكم ابن عطاء الله السكندري.

دَرَستُ معظم «حاشية البيجوري على السلم المنورق للأخضري» في المنطق على فضيلة الشيخ «علي جمعة»، وشيئا من «شرح الخَبيصي على تهذيب السعد التفتازاني» على الشيخ «مصطفى عمران».

دَرَستُ معظم «حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد» على فضيلة الشيخ «علي جمعة».

كما دَرَستُ على فضيلة الشيخ «علي جمعة» مقدمة ابن الصلاح كاملة. ودَرَستُ كثيرا من مصطلح الحديث على الشيخ «محمد عمرو عبد اللطيف» رحمه الله تعالى، وخاصة من «شرح النخبة»، وكذا على غيرهما من أهل هذا الفن.

دَرَستُ بعضا من «ألفية ابن مالك» على الشيخ «يوسف الجرشة» رحمه الله تعالى، وقرأت فصولا من كتب متعددة في النحو والصرف على: فضيلة الشيخ «محمد أحمد سحلول» رحمه الله تعالى (من كتابه النحو التطبيقي، وبعض كتب التراث)، والشيخ «محمد مختار المهدي»، والشيخ «صبحي عبد الحميد»، والدكتور «مصطفى إمام» من الجامعة الأزهرية، والدكتور «جمال عبد العزير أحمد» من دار العلوم بجامعة القاهرة، وفضيلة الشيخ «محمد الحبشي» بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة، وغيرهم.

قرأتُ كثيرا من فصول البلاغة على فضيلة الشيخ«عبد العظيم المطعني» رحمه الله تعالى. وعلى فضيلة الشيخ« إبراهيم عبد الله الخولي» بالجامعة الأزهرية (درست عليه شيئا من دلائل الإعجاز).

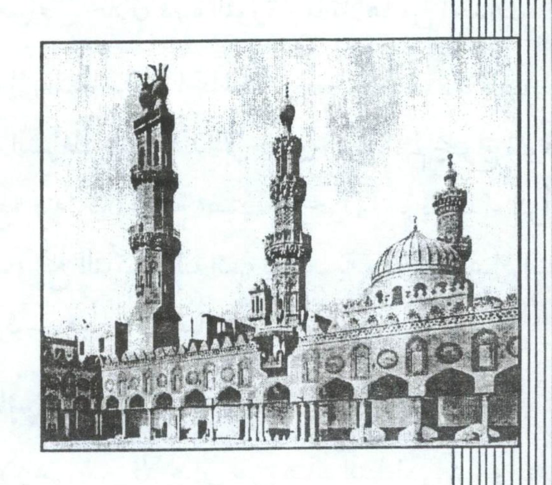
دَرَستُ تقريبا نصف «شرح الشنشوري على الرحبية في علم الفرائض» على فضيلة الشيخ«الحسيني الشيخ» رحمه الله تعالى.

تدريس القرآن :

وعن نشاطه التدريسي ذكر أنه كان يقوم بإقراء القرآن الكريم بالقراءات العشر، وشَرَحَ بالجامع الأزهر بالقاهرة «حاشية البيجوري كاملة على شرح ابن قاسم، على متن أبي شجاع» في فروع الشافعية، وقد أجازه فيه شيخه فضيلة العلامة الدكتور علي جمعة، بالإضافة إلى إجازاته له في الحديث وغيره. كما شرحَ شرح «المكودي على ألفية ابن مالك»بمسجد التوحيد بمدينة نصر بالقاهرة. وشَرَحَ «شرح الأزهرية» للشيخ خالد الأزهري في النحو. وكذلك «الترصيف شرح متن تصريف الغَزِّي»، وشيئا من «ملحة الإعراب» للحريري في النحو، كلاهما بالمسجد السابق ذكره. كما قام بشرح «تمهيد الإسنوي في تخريج الفروع على الأصول» وذلك للطلبة المتدربين بدار الإفتاء المصرية. بالإضافة إلى «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام.

** أكد الشيخ عماد عفت بمشاركته في فعاليات ثورة الشباب ، ومرابطته مع المعتصمين في ميدان التحرير واستشهاده وهو بين الجموع الهادرة الغاضبة ؛ إن عالم الدين الحق هو من ينزل بعلمه بين الناس ، وليس هو من يستعلي عليهم أو ينتظر أن يذهبوا إليه ، وبرهن على أن رجل الدين المسلم عليه واجب كبير في رأب الصدع ومحاولة الإصلاح بين المتخاصمين ، وتهدئة الأمور سعيًا للاتفاق ومنعًا للاختلاف .

وهذا هو الهدف الذي استشهد الشيخ عماد عفت من أجله فبعد أن نجح الثوار في خلع الطاغية مبارك ، وكان الشيخ معهم ، لم يترك الساحة وظل حريصًا على استكمال المسيرة بمؤازرة الثوار والنصح لهم .



الأزهر وثورة ٢٥ يناير بين الصمت واستعادة زمام المبادرة

لأن الأزهر رجالاً ومؤسسة كان دوما مبعثا للثورات والواقف في الصفوف الأولي ضد الطغاة، كان لابد أن نرصد دور الأزهر في ثورة ٢٥ يناير وموقفه منها سواء مشاركة العلماء المنتمين إليه في وقائعها مشاركة مباشرة أو من خلال تصريحات شيخ الأزهر وغيره من العلماء[1] خلال فترة الثورة وما تلاها من أحداث.

منذ بداية الدعوة إلى التظاهرات الحاشدة في أنحاء مصر بدايات ٢٠١١، واتخاذ ٢٥ يناير (يوم «عيد الشرطة») موعداً لإحدى ذُراها، لم يخرج الموقف الأزهري الرسمي عن «المتوقع» منه: كلامٌ عامٌّ مستهلكٌ حول «حرية إبداء الرأي»، ووجوب «سلمية» التظاهرات، مع التأكيد الدائم، بمناسبة ودونها، على الثقة في «القيادة الرشيدة الحكيمة للرئيس مبارك والقيادات الأمنية».

موقف غير إيجابي

وتأكَّد موقف الأزهر غير الإيجابي من هذه التظاهرات، وانحيازه مع نظام مبارك، يوم ٢٨ يناير ٢٠١١، «جمعة الغضب».. حيث لم تكن التظاهرات قد هدأت طوال الأيام الثلاثة السابقة، وحيث بدأت أسقف المطالبات تعلو.. وإذا بصحيفة «صوت الأزهر»، الصوت الرسمي للأزهر جامعاً وجامعةً، تنشر تهنئةً إلى وزير الداخلية اللواء حبيب العدلي، مع صورة كبيرة له، بمناسبة «عيد الشرطة»!

ومثل هذا التصرف وإن بدا معتاداً، بل وآليًا، يدل على «المعتاد» و«المتوقع» من «المؤسسة الدينية الرسمية» طوال عقود نظام مبارك وما قبلها :التأييد الدائم، والمباركة المستمرة.. دون اعتبار لموقف الشعب الحقيقي من النظام ورموزه. وهو الأمر الذي تتضاءل دلالته بالاعتياد والتوقع، إلا في مثل هذه الأيام التي بدت أنها استثنائية منذ سقوط أوائل شهداء «الأحداث».

---

(١) اعتمدت في هذا الجزء علي دراسة لمعهد العربية للدراسات ،نشرت بتاريخ الاثنين ٢٩ من ذي القعدة ١٤٣٣هـ - ١٥ من أكتوبر ٢٠١٢م.

ومع تصاعد أحداث التظاهرات، وارتفاع سقف المطالب إلى حد إقالة الرئيس، بل ومحاكمته (لا سيما بعد «موقعة الجمل» ٢ فبراير).. بدأت المؤسسة في طرح نفسها مركزاً للقاء ممثلين عن الشباب الثائرين، ومحاولة تقريب وجهات النظر، وحماية البلاد من الانزلاق في الفوضى الكاملة.

وحث فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب شيخ الأزهر في بيان له (٣ فبراير ٢٠١١) الشباب على «التعقل» لافتاً نظرهم إلى أن هذه «الأحداث يراد بها تفتيت مصر وتصفية حسابات وتنفيذ أجندات خارجية»، وتساءل: «أين أصوات العقلاء؟!»، ودعا شباب الميدان «الذين يحظون بثقته حتى هذه اللحظة» إلى العودة إلى بيوتهم وتهدئة الأوضاع، وإلى انتخاب مجموعة منهم للاجتماع معه للتباحث في حل للأزمة و«النقف على كلمة سواء».

السكون المتربص

تواصلت هذا الدعواتُ المستمرة إلى وجوب الحفاظ على الأرواح والممتلكات، لا سيما بعد انسحاب الشرطة الكامل من جميع شوارع مصر، ونزول الجيش المصري منذ مساء «جمعة الغضب» ٢٨ يناير، وبدايات تشكيل «اللجان الشعبية» في جميع نواحي مصر.

وفي ٣ فبراير أعلن المتحدث الرسمي باسم مشيخة الأزهر السفير محمد رفاعة الطهطاوي (غير الأزهري، القادم من وزارة الخارجية) تركَ منصبه وانضمامه بشكل كامل إلى المعتصمين في ميدان التحرير، وأنه «يساندهم بكل ما أوتى من قوة، ولن يترك الميدان إلا برحيل الرئيس مبارك عن الحكم.»

وكان هذا هو الموقف العملي الوحيد لأحد ذوي المناصب في المؤسسة الأزهرية تأييداً واضحاً للثورة وتسميةً للأمور بأسمائها، وإن كان صاحبه غير أزهري !

وكان لافتاً تأكيد السفير الطهطاوي على أنه لا يمثل الأزهر منذ لحظة إعلانه استقالته، وسكوت المؤسسة عن هذا.. فلم تعترض، ولم تؤيد: انتظاراً لما ستُسفر

عنه الأيام!

هذا السكوت المتربص أباح للإمام الأكبر بعد أيام من خلع مبارك أن يؤكد أن الأزهر لم يتملق أو يهادن النظام السابق خلال المظاهرات، مشيرا في هذا السياق إلى موقف السفير الطهطاوي، «الذي كان قد شارك في المظاهرات، وهو المتحدث الرسمي باسم الأزهر، وهو ما يعنى أن الأزهر كان مسانداً للثورة وليس للنظام»!

انتقاد حاد

ومع ارتفاع مطالب الميدان، واشتداد حدة النقد لمبارك لحثه على التنحي.. حصل «تلاسنٌ» بين الإمام الأكبر والفقيه المصري والأزهري القديم، وعضو «مجمع البحوث الإسلامية» أيضاً د. يوسف القرضاوي.. حيث تكرر ظهور د. القرضاوي على إحدى القنوات الفضائية العربية منددا بمبارك ونظامه، وحاثًّا جماهير الشعب على «المرابطة» في الميدان وعدم التراجع عن أيٍّ من مطالب الثورة.. وفي أثناء بعض هذه المداخلات حمل القرضاوي بشدة على الإمام الأكبر، متهماً إياه بـ«خيانة الثورة والركون إلى الظالمين»..

فرد عليه الإمام الأكبر «ضمنيًا، وبما يشبه التصريح، وفي سياق انتقاد حاد لتدخل مرشد الثورة الإيرانية آية الله خامنئي في الشأن المصري بتأييده القوي لمطالب الميدان ، حذر الإمام الأكبر (٧ فبراير ٢٠١١) بوجهٍ خاص من «إثارة المشاعر، واللعب على عواطف الجماهير، عبر فتاوى دينيةٍ صدرت بالأمس القريب من مرجعيات فقهية ورموز دينية دعت فيها إلى فتنة حرَّمها الله ورسوله وأجمع المسلمون كافةً على تأثيم كل من يدعو إليها».

ووصل الأمر، وفقاً لمصدر مقرب من شيخ الأزهر، إلى حد الإيعاز إلى «مجمع البحوث الإسلامية»، في اجتماعه الذي عقد الخميس ١٠ فبراير السابق لقرار التنحي، للتصويت على سحب الثقة من د. يوسف القرضاوي، إلا أن عدم اكتمال النصاب القانوني حال دون ذلك!

وفي يوم التنحي ١١ فبراير، وقبل إعلانه بساعات، صرح الإمام الأكبر للتلفزيون الحكومي بأن المظاهرات غدت حراماً، حيث تحققت مطالب الميدان، وانتهى «النظام» بقرار الرئيس تعيين نائبه اللواء عمر سليمان بالصلاحيات المطلوبة . وهو الموقف الذي اضطره لاحقاً، وأكثرَ من مرة، إلى الاعتذار عنه، مبرراً إياه بأن دافعه كان حقنَ الدماء وتهدئةَ الأمور!

في هذه التصريحات الأخيرة، قبيل التنحي، طالب شيخ الأزهر المتظاهرين في ميدان التحرير وكافة المحافظات المصرية بالعودة إلى بيوتهم وفض اعتصامهم فوراً، معتبراً أن ما يحصل نوعٌ من الخروج على الشرعية.

وزاد موقف المؤسسة الأزهرية حرجاً، وتأكيداً لمساندتها النظامَ المتداعي، بنفي مكتب شيخ الأزهر في اليوم ذاته (١١ فبراير ٢٠١١) ما تردد عن استقالته، حيث كانت شائعات قد ترددت صباح اليوم السابق عن استقالة الطيب احتجاجاً على القمع الذي يمارسه النظام مع المتظاهرين المطالبين بتنحي الرئيس حسني مبارك.

تحول نوعي

ولم يطرأ تحولُ نوعي على موقف الأزهر حتى مساء «جمعة الحسم» ١١ فبراير) أو «جمعة الزحف» أي إلى القصر الجمهوري بمصر الجديدة)، حين أعلن اللواء عمر سليمان، المسمَّى قبل أيام «نائباً للرئيس» تخلي مبارك عن السلطة وتكليفه «المجلس الأعلى للقوات المسلحة» إدارةَ شؤون البلاد.

من لحظتها بدأت المرحلة الانتقالية «المستطيلة»، والتي لم تنتهِ إلا بتنصيب الدكتور محمد مرسي رئيساً للبلاد في ٣٠ يونيو ٢٠١٢، أو بالأحرى.. في يوم ١٢ أغسطس بإقالة رأسي «المجلس الأعلى للقوات المسلحة» المشير محمد حسين طنطاوي والفريق سامي عنان، وإلغاء إعلانه الدستوري «المكمِّل» (والمكبِّل) الذي أصدره قبيل إعلان فوز محمد مرسي بالرئاسة .

***

موقف الأزهر من «الربيع العربي»

بانتصار الثورة المصرية في موجتها الأولى، التي تكللت بإزاحة مبارك ومعظم رؤوس نظامه الكبار في ١١ فبراير، بدا للمراقبين أن المؤسسة الأزهرية تتأهب لاستعادة زمام المبادرة على أكثر من صعيد.. ومنها ملف «الربيع العربي» (كما استقرت تسميته من قِبَل معظم المعلِّقين) برُمَّته..

ففي حين لم يكن للمؤسسة رأي واضح فيما حصل في تونس نهايات ٢٠١٠ من ثورةٍ شعبيةٍ ظافرةٍ أدت إلى هروب رئيسها زين العابدين بن علي وسقوط نظامه الأمني العتيد.. وفي حين كان موقف المؤسسة باهتاً، كما هو التوقع والمؤسف!، طوال الأيام الثمانية عشرة الممثلةِ الموجةَ الأولى من الثورة المصرية ..

بيان شديد اللهجة

لم يعد مقبولاً، بعد انتصار الثورة المصرية الكبير الأول، أن يظل موقف المؤسسة الأزهرية كما هو: متراوحاً بين الغياب الكامل، أو التواطؤ السافر، أو الخفوت غير اللائق!

من هنا.. كانت المؤسسة على قدْر التوقع هذه المرة.. فتتابعت التصريحات والبيانات من الإمام الأكبر ومن عدد من أبرز رجال المؤسسة (لا سيما رئيس المكتب الفني لشيخ الأزهر (د. حسن الشافعي)، تأييداً لحق الشعب الليبي، ثم الشعب اليمني، ثم الشعب السوري في طلب حريته وكرامته، وتغيير سلطاته الظالمة الباغية.. وذلك بعد تأييد الشعب التونسي، ثم الشعب المصري في المطالب ذاتها (بأثرٍ لاحق!).

كانت الثورة الليبية أولى الثورات التي تلت انتصار الثورة المصرية.. فلم تمضِ ستة أيام على تنحي مبارك حتى اشتعلت «ثورة ١٧ فبراير».

كان رد طاغية ليبيا معمر القذافي بالغ القسوة والعنف منذ اللحظات الأولى . نتيجةً لهذه القسوة المفرطة أصدر شيخ الأزهر (٢٦ فبراير ٢٠١١) بياناً شديد اللهجة، غير مسبوقٍ، مؤكداً أن حكم القذافي «أصبح الآن في حكم الغاصب

المعتدي المتسلط على الناس ظلماً وعدواناً»، داعياً جميع المسؤولين الليبيين وضباط الجيش الليبي وجنوده إلى «أن يرفضوا طاعة النظام في إراقة دماء الشعب الليبي واستحلال حرماته، وإلاّ أصبحوا شركاء له في الجرم».

وكان الشيخ قد ناشد قبل هذا البيان بأيام (٢١/ ٢/ ٢٠١١) «قادة الأمة - حكاماً وعلماءَ وعقلاءَ - إيقاف هذه المذابح البشرية فوراً، وحقن دماء الشعب الأعزل، والاستجابة لمطالبه المشروعة وحقه في الحرية والعدالة والعيش الكريم». وأضاف، موجهاً كلامه للحكام العرب والمسلمين: «لا تقتلوهم من أجل المطالبة بحقوقهم، فمن قتل دون حقه فهو شهيد، كما يقول النبي ﷺ».

الأزهر والثورة السورية:

ثم اندلعت الثورة السورية (١٥ مارس ٢٠١١..(وتأخر رد الفعل الأزهري الرسمي حتى ٨ أغسطس ٢٠١١ !

ولم ينفِ هذا التأخرَ البيانُ الرسمي الأول الصادر عن الأزهر، حيث قال: «الأزهر الذي صبر طويلاً وتجنب الحديث عن الحالة السورية، نظراً لحساسيتها في الحراك العربي الراهن، يشعر بأن من حق الشعب السوري عليه أن يعلن الأزهر وبكل وضوح أن الأمر قد جاوز الحد وأنه لا مفرمن وضع حد لهذه المأساة العربية الإسلامية»، وناشد «المسؤولين في سوريا الشقيقة أن يرعوا هذا الشعب الأبي»، «وأن يتداركوا الدماء المسفوكة والأسر المتشتتة والمصائر المهددة، ومواجهة الشعب الأعزل بالرصاص الحي دون جدوى وعلى مدى شهور عدة أهدرت فيها أرواح وانتهكت فيها حرمات وأعراض».

وقد انُتقد تأخر بيان موقف الأزهر من الثورة السورية من عدد من القوى الثورية. وهذا مفهوم. لكن اللافت.. كان انتقاد الشيخ علاء أبو العزائم (أحد القيادات الصوفية المتنافسة على تصدر المشهد الصوفي بمصر) تصريحات شيخ الأزهر تجاه القضية السورية، معتبراً إياها غير كافية نظراً لمكانته السامية في العالم

الإسلامي، بل ومحملاً إياه مسؤولية سفك الدماء هناك، حيث يرى أنه كان يجب على الإمام الأكبر أن يذهب بنفسه إلى سورية لمحاولة المصالحة بين المعارضة ونظام بشار الأسد، داعياً إلى أن يكون شيخ الأزهر مثل بابا الفاتيكان وأن يمتلك طائرة خاصة يحط بها على الأراضي السورية، مثلما فعل بابا الفاتيكان السابق يوحنا بولس الثاني عندما ذهب بنفسه إلى رواندا في التسعينيات وجمع القبائل النصرانية التي كانت تحارب بعضها، ونجحت جهوده في وقف القتال الدامي بينهم.

تصاعد التصريحات

ومهما يكن من أمر.. فقد تصاعدت قوة وحدة تصريحات المؤسسة الأزهرية وبياناتها حول أزمة الشعب السوري «وما يتعرض له من قمع واسع ومن استعمال لأقصى درجات العنف واعتقال وترويع، يمثل مأساة إنسانية لا يمكن قبولها، ولا يجوز شرعاً السكوتُ عنها».

ولا تخفى المفارقة الكبيرة هنا.. بين موقف الأزهر، مؤسسة الإسلام السني («الأشعري»)، الجازم بأن ما يحصل من النظام السوري إجرامٌ وعدوانٌ يجيزانِ- شرعاً- الخروجَ عليه ومقاومتَه بكل سبيل.. وبين موقف المؤسسة الإسلامية الرسمية في سورية («الأشعرية» أيضاً)، وعدد من كبار أهل العلم السوريين من حمَلة لواء المذهب السني الأشعري، وعلى رأسهم د. محمد سعيد رمضان البوطي، الجازمين بأن ما يحصل من احتجاج و«خروج» (لا «ثورة»!) على النظام «الشرعي» إنما هو «مؤامرة خبيثة، وتنفيذ لمخطط رهيب لضرب سورية والمقاومة»!

في أثناء ذلك كانت الاحتجاجات القوية قد اندلعت في مملكة البحرين (١٤ فبراير ٢٠١١)، ولم تلقَ صدًى مناسباً من قِبَل المؤسسة. ونُظر إلى خفوت أثر «الثورة البحرينية» (كما أسماها شبابُ البحرين الغاضبون) على أنه - من جهة - مراعاة لجانب المملكة العربية السعودية الرافضة تسمية تلك الاحتجاجات ثورةً، بل والمتدخلة عسكريًّا لمساندة النظام البحريني في محاولاته استعادة زمام الأمور. ومن جهةٍ

أخرى: تحفظٌ على سَمْت احتجاجات البحرين الشيعي، وما يستتبعه من حساسيات طائفية لها صلة وثيقة بموقف الجمهورية الإسلامية الإيرانية و«حزب الله» اللبناني المؤيدين بقوة لما يعتبرانه «ثورة الشعب البحريني» ضد الفساد والظلم والتهميش.

الدعوة للحوار:

واكتفى شيخ الأزهر بإصدار بيان متأخر جدًّا (٨ أكتوبر ٢٠١١) وجه فيه كلمة إلى دول الخليج قائلاً: «في ضوء أحداث الخليج المقلقة التى تنذر بشَرٍّ حَذَّرَ منه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو إثارة النَّعَرات الطائفية، ورفع رايات العصبية، مذهبيةً كانت أو عنصرية، والتي لا يقتصر خطرُها على تهديد مجتمعاتنا العربية وتمزيق نسيجها الاجتماعي، وحياتها الآمنة ووشائجها الوثيقة منذ مئات السنين، بل يُهدد كذلك بتدخل قوى متربِّصة خارجية وإقليمية [في إشارة إلى إيران]، تتخِذُ الصراع المذهبي والخلل الاجتماعي، سبيلاً للتدخُّل والهيمنة، والاستبداد بمصير المنطقة [إشارة للوضع بالسعودية والبحرين]. في ضوء هذا كله نحذر الجميع من تطورات ليست في صالح أحَدٍ، ويومها يندم الكل على ما فعلوه بأنفسهم. كما نُوصي باسم الأزهر الشريف، الذي يُؤلمه أشد الألم ما يحدثُ الآن.. نُوصى بحل الخلافات والمشاكل عن طريق الحوار والمصارحة الرشيدة، ومِن حِكْمة القيادة أن تتخذ من الحلول ما يحولُ دون الأخطار التى تهدِّدُ أوطاننا العربية، فاحرصوا أيها الإخوة على وَحْدَتكم الاجتماعية حماية للحاضر والمستقبل. اللهم إنا نسألك رحمة تهدى بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وترد بها الفتن، يا رب العالمين».

وثيقة الأزهر

وبعد انتصار ثورة مصر بنحو تسعة أشهر.. تمخضت اجتماعاتٌ دعت إليها المؤسسة الأزهرية عدداً من علماء الأزهر والمثقفين المصريين عن إعلان وثيقة الأزهر بخصوص الربيع العربي، «وثيقة إرادة الشعوب العربية»، في ٣١ أكتوبر ٢٠١١.

جاءت الوثيقة - التاريخية بحقٍّ - في أكثر من ألف كلمة، وستة مبادئ كبرى، تتلخص في اعتبار المعارضة الشعبية والاحتجاج السلمي، حقًّا أصيلاً للشعوب، واستنكار إمعان الأنظمة في تجاهل المطالب المشروعة بالحرية والعدالة والإنصاف، ونفي صفة «البغي» عن المعارضين الوطنيين «السلميين». بل وتذهب إلى أن معارضة القهر والفساد والظلم واجبةٌ على المواطنين لإصلاح مجتمعهم، وواجبٌ على الحكّام الاستجابة لهم دون مراوغةٍ أو عناد.

واعتبرت الوثيقة انتهاك حرمة الدم المعصوم هو الخط الفاصل بين شرعية الحكم وبين سقوطه في الإثم والعدوان الموجبين مقاومته «سلميًّا». وطالبت «الجيوش المنظّمة في أوطاننا كلِّها» أن تلتزم بواجباتها الدستورية في حماية الأوطان من الخارج، ولا تتحوّل أدواتٍ للقمع وإرهاب المواطنين وسفك الدماء.

الحفاظ على النسيج الوطني:

كما دعت الوثيقة أيضاً من أسمتهم «قوى الثورة والتجديد والإصلاح» إلى الابتعاد كليًّا عن كل ما يؤدي إلى إراقة الدماء، وعن الاستقواء بالقوى الخارجية أيًّا كان مصدرها، لئلا يتدخل الأجنبي في شؤون دولهم وأوطانهم .وأكدت أن عليها الاتحادَ في سبيل تحقيق حلمها في العدل والحرية، وتفاديَ النزاعات الطائفية والعرقية والمذهبية، حفاظاً على النسيج الوطني، ولبناء المستقبل على أساسٍ من المساواة والعدل.

وأعلنت الوثيقة المناصرةَ التّامة لإرادة الشعوب العربية في الإصلاح ومجتمع الحرية والعدالة التي انتصرت في تونس ومصر وليبيا، ولا تزال محتدمة في اليمن وسورية (دون أية إشارة إلى ما حصل، ثم هدأ نسبيًّا، في البحرين!) .وناشدت المبادرة الأنظمة تحقيق الإصلاح السياسي والاجتماعي والدستوري طوعاً، والبدء في خطوات التحول الديمقراطي.. «فصحوة الشعوب المضطهدة قادمة لا محالةَ، وليس بوسع حاكمٍ الآن أن يحجبَ عن شعبه شمس الحريّة».

مثلت هذه الوثيقة نقلة حقيقية في طرح المؤسسة الأزهرية بوصفها الإسلامي الأعم، وبوصف شيخها إماماً للمسلمين في أنحاء العالم، لا مجرد «موظف حكومي» كما كان شيخ الأزهر السابق د. محمد سيد طنطاوي يصرح في السابق!



أهم المصادر والمراجع

أولا: الكتب العربية:

- أحمد رضوان أبو الخير، «من مواقف العلماء» دار المنار، القاهرة، ١٩٩٧م.

- د. إسماعيل إبراهيم عبد الرحمن، «شخصيات صنعت التاريخ في البطولة والفداء والنهضة الفكرية»، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- السيد يوسف، «الإمام محمد عبده، رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث»، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

- جرجى زيدان، «بناة النهضة العربية»، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ.

- جمال الدين الشيال، «أبو بكر الطرطوشى»، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، والقاهرة، ١٩٦٨م، سلسلة أعلام العرب.

- سعد القاضى، «جعفر الصادق»، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م.

- سعيد عبد الرحمن، «شيوخ الأزهر»، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧م.

- سمير محمد طه، «أحمد عرابى ودوره في الحياة السياسية المصرية»، هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.

- سنية قراعة، «تاريخ الأزهر»، مكتب الصحافة الدولى، ١٩٦٨م.

- صبرى الأشوح، «التفكير عند أئمة الفكر الإسلامي»، مكتبة رجب، القاهرة، ١٩٩٧م.

- صلاح عبد الصبور، «قصة الضمير المصرى الحديث» كتاب الإذاعة

والتليفزيون، القاهرة، ١٩٧٨م.

- عبد الرحمن الشرقاوى، «أئمة الفقه التسعة»، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- د. عبد الرحمن عميرة، «مواقف العلماء أمام الحكام والولاة»، دار العلم والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- د. عثمان أمين، «رائد الفكر المصري، الإمام محمد عبده»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٦م.

- على الطنطاوى، «رجال من التاريخ»، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- د. كمال الدين عبد الغنى المرسى، «الإمام محمد عبده وأثره في تجديد الفقه والفكر الإسلامي»، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

- لمعى المطيعى، «موسوعة هذا الرجل من مصر»، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

- د. محمد حسن الحمصى، «الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة المنطلقة من مساجد دمشق» دار الرشيد، دمشق وبيروت، ١٩٩٧م.

- محمد رجب البيومى، «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» الجزء الأول، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، فبراير ١٩٨٠م.

- محمد رجب البيومى، «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» الجزء الثالث، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، فبراير ١٩٨٠م.

- محمد عبد الله ماضى، «الأزهر في ١٢ عاما» ، مجمع البحوث الإسلامية، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤م.

- د. محمد عمارة، «الإسلام بين التنوير والتزوير» دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

- محمود قاسم، «عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

- د. ناصر الدين سعيدونى، «عصر الأمير عبد القادر الجزائرى»، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى، الكويت، ٢٠٠٠م.

ثانيا : مقالات ودراسات :

- أحمد تمام، «الغزالى فارس الدعوة والتبليغ»، من موقع إسلام أون لاين على الإنترنت.



سيرة ذاتية

- **الاسم بالكامل** : د. إسماعيل إبراهيم عبد الرحمن محمد.

- **تاريخ ومحل الميلاد**: ٥ مارس ١٩٥٢ في قرية ميت فارس مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية.

المؤهلات العلمية :

- ليسانس الآداب من جامعة القاهرة، تخصص صحافة سنة ١٩٧٤م. بتقدير جيد جداً.

- درجة الماجستير في الإعلام من جامعة الزقازيق عام ١٩٩٣م، بتقدير امتياز مع التوصية بالطبع والتداول مع الجامعات العربية والأجنبية، وكان موضوعها: «فن التحرير الصحفى في مجلات المرأة والأسرة في الوطن العربى».

- درجة الدكتوراة في الإعلام من جامعة الزقازيق سنة ١٩٩٥م، بمرتبة الشرف الأولى. وكان موضوعها: «مجلات المرأة والأسرة في الوطن العربى.. دراسة تاريخية فنية».

الخبرات العلمية :

- التحق بجريدة الأهرام بتاريخ ١/ ١٠/ ١٩٧٦م.

- سكرتير تحرير فنى جريدة الأهرام من ١٩٧٦ – ١٩٨٢م.

- محرر أول بمجلة «زهرة الخليج» بدولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٣م – ١٩٨٨م.

- مدير تحرير مجلة «زهرة الخليج» ١٩٨٨ – ١٩٩٠م.

- مدير تحرير «جريدة الأهرام المسائى» ١٩٩١ - ١٩٩٨م.

- مساعد رئيس تحرير جريدة الأهرام ٢٠٠٤م.

- نائب رئيس تحرير جريدة الأهرام ٢٠٠٨ م

- مدير تحرير جريدة الأهرام ٢٠١٠ م.

- أستاذ صحافة محاضر بكليات الإعلام بالجامعات المصرية.

- عضو اتحاد الكتاب المصريين.

- شارك في مناقشة العديد من رسائل الماجستير والدكتوراة في الإعلام.

- معد ومحاور ومقدم برامج بالإذاعة والتليفزيون.

المؤلفات:

- «الصحافة النسائية في الوطن العربي».. الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.

- «صحفيات ثائرات».. الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م.

- «الشباب بين التطرف والانحراف».. الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٨م.

- «فن التحرير الصحف بين النظرية والتطبيق».. دار الفجر، ١٩٩٨م.

- «مواقف حاسمة في حياة الخلفاء الراشدين».. المكتبة العلمية، ١٩٩٨م.

- «انتحار الحب».. مجموعة قصصية - دار قباء، ١٩٩٩م.

- «فن المقال.. الأسس النظرية والتطبيقات العملية» دار الفجر، ٢٠٠٠م.

- «الصحفى المتخصص».. دار الفجر، ٢٠٠٠م.

- «زيد بن ثابت.. جامع القرآن» - دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.

- «أبو حذيفة بن عتبة.. الشهيد المجاهد».. دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.

- «عبد الله بن عمر.. الفقيه المجاهد».. دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.

- «عبد الله بن رواحة.. الشهيد الطائر».. دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.

- «عياش بن أبى ربيعة .. الشهيد الظامئ».. دار العلم والثقافة، ١٩٩٩م.

- «عتبة بن غزوان.. الأمير الزاهد».. دار العلم والثقافة، ٢٠٠٠م.

- «شخصيات صنعت التاريخ في الآداب والفنون»..عالم الكتب، ٢٠٠٣م.

- «شخصيات صنعت التاريخ في البطولة والفداء والنهضة الفكرية».. عالم الكتب،٢٠٠٣م.



الفهرس

